

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

القاهرة

مدينة الفن والتجارة

للمستشرق الفرنسي الكبير

جاستون فييت

ترجمة الدكتور

مصطفى العيسوي

القلامة

مدينة الفن والتجارة

المستشرق الفرنسي
جاستون فيبيث هدية من الفنان التشكيلي

ترجمة الدكتور
مصطفى العبادي عبد الغني أبو العينين

أبو العينين

■ المشرف على التحرير : جمال الشيطاني



● العدد ٣٠٨ ● مايو ١٩٩٠ ●

كتاب اليوم

انتسمة

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة

سعيد سنبل

العدد شوال ١٤١٠ هـ

٣٠٨ مايو ١٩٩٠ م

ايار

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنية مصري

البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربي

والاfrيقى ١٥ دولار امريكي او ما يعادله

باقي دول العالم واوروبا والامريكتين

واسيا واسفرااليا ٢٠ دولار امريكي او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عر ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ اش الصحافة

القاهرة ت ٧٤٨٩٤٤ (٥ خطوط)

في الخارج

٢٠٠٠	ليرة	ايطاليا
٥	فلورين	هولندا
٣٥	روبية	باكستان
٤	فرنك	سويسرا
١٠٠	دراخمة	اليونان
٤٠	شيلز	الجمها
١٥	كرونات	الدنمارك
١٥	كرون	السويد
٣٥٠	سنتا	الهند
٣٠٠	سنت	كندا امريكا
١٠٠	كرويزو	البرازيل
٣٥٠	سنتا	سربودوانطر
٤٠٠	سنت	تونس انطوس
٤٠٠	سنت	اسفرااليا

اسعار كتاب اليوم

٢٠	درهم	المغرب
٧٠٠	ليرة	لبنان
١٠٠٠	فلس	الاردن
٥٠٠٠	فلس	العراق
٧٥٠	فلس	الكويت
٧	ريالات	السعودية
٧٠٠	قرش	البتودان
١٤٠٠	ملهما	تونس
١٧٥٠	سنتيما	الجزائر
١٤٠٠	قرش	سوريا
٦٠٠	سنت	الحبشة
٨٥٠	فلس	البحرين

المساكيت : محمد عفت

● مؤلف هذا الكتاب ●

* جاستون فييت

* مستشرق فرنسى ، ولد عام
١٨٨٧ .

* كان مديرا لدار الآثار العربية
بالقاهرة (١٩٢٤ - ١٩٤٤) ،
وانتخب عضوا بالمجمع اللغوى
بالقاهرة (١٩٣٠) .

* استاذ شرف للغة العربية فى الكوليج دى فرانس .
وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ الاسلامى والفنون الاسلامية ، منها
كتابان فى تاريخ مصر الاسلامى ، وعدة كتب فى وصف محتويات
متحف الفنون الاسلامية .

حقق الجزء الأول من كتاب « الخطط » للمقرىزى ، وترجم كتاب
« البلدان » لليعقوبى ، و« مختصر الادريسى » ، وشارك فى دائرة
المعارف الاسلامية ، كما أنه صنف بمعاونة لويس هوتكور كتابا
ضخما عن جوامع القاهرة . ومن أحداث مؤلفاته كتاب « عظمة
الاسلام » .

.....

● مترجم هذا الكتاب ●

الدكتور مصطفى العبادي

* نال درجة الليسانس من قسم
التاريخ بجامعة الاسكندرية
عام ١٩٥١ ، ونال درجة الدكتوراه في
التاريخ اليوناني الروماني من جامعة
كمبردج عام ١٩٦٠ .

درس بعد ذلك في جامعة
الاسكندرية ، ومنذ ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .

شغل منصب استاذ مساعد في جامعة بيروت العربية .

له كتاب : « مصر من الاسكندر إلى الفتح العربي » .

وهو الآن يعمل استاذاً في جامعة الكويت .

وقد رأى الدكتور العبادي عند ترجمة هذا الكتاب أن يثبت فيه
هوامش بمصادر النصوص العربية ، بعد أن ردها إلى أصولها ،
نظراً لأن المؤلف الأصلي لم يتضمن مثل هذه الهوامش باعتباره من
كتب الثقافة العامة .

.....

المقدمة

« بغبطة أدخل هذه المدينة الفريدة »

أوجين فرومنتان

إن هدفى هو دراسة تطور العواصم الاسلامية لمصر ، وبصفة خاصة مدينة القاهرة ، وسوف أبدأ بالفتح العربى الذى أدى إلى اختلاط واسع الانتشار بين الشعوب فى قارتين ، وانتهى باكتشاف الطريق حول رأس الرجاء الصالح ، فهو حدث لم يسبق له مثيل فى تاريخ التجارة العالمية ، أدى بطريقة حاسمة إلى اضعاف دور مصر الدولى الحيوى ..

لقد كتب هذا الكتاب لجمهور ذى ميول مختلفة ، وأن التصدى لوضع مؤلف عن القاهرة ، مهما كانت الظروف ، لهو عمل لا يخلو من مخاطرة ، إذ لعلها المدينة الاسلامية التى حيرت المؤرخين أكثر من غيرها . فهناك كتب كثيرة فى جميع اللغات تتناول تاريخ المدينة وأثارها وسكانها . ولهذا ، فإن من المشكوك فيه أن هذا الكتاب ، الذى يأتى بعد كثير غيره ، يمكن أن يوصف بالأصالة . ولعل أصالة هذا العمل تقع فى التعبير بكلمات جديدة عن الاعجاب بحضارة لا ادعى لنفسى فضل اكتشاف خصائصها . فسوف أفيد من أعمال من سبقونى ، مضيفا إليها جهدى الشخصى ، وأنه لمن المستحيل ألا أكرر ما سبق أن قالوه . على أن الهدف الذى أسعى إليه أمر ليس من السهل تحقيقه . فهناك كلام كثير اليوم عن الدراسة الشاملة للشعوب ، وفى هذا المجال ، نجد القائمين بالدراسات الشرقية متخلفين عن الركب ، حتى أنهم يجدون صعوبة فى دراسة الأوصاف الظاهرة لشخصيات كبرى . وأنى لأمل أن أقدم عرضا دقيقا للعادات والتقاليد ، وأن أجعل الماضى يعيش من جديد ، ولكن مازالت هناك وثائق مفقودة أو لم يتم نشرها ودراستها .

ليس للقاهرة من ذبوع الشهرة ما لمراكز الحضارة فى مصر القديمة ، والجنوح الى التعالى بالاضافة الى الاكتشافات الأثرية مثل مقبرة توت عنخ آمون لم تساعد على تغيير هذه النظرة . ومع ذلك ، فإن هذه المدينة تحتل مركزا مرموقا فى تاريخ الفن ، وذلك بفضل الأعمال العمرانية التى ازدهرت فى ربوعها ازدهارا باهرا . ولا يزال بالمدينة احياء تتميز بطابعها الذى

يسمح للخيال بأن يعود بنا إلى العصور الوسطى ، فالأبنية تحرك ذكريات كثيرة من الماضي . فهي ترد إلى مخيلاتنا أحداث السنين الخوالي . أنها تقف بمثابة شهود تمنعنا من أن نقلل من شأن تاريخ القاهرة ، فنرتكب بذلك اثم تزيفه . ففيها ، كما في غيرها ، تردد الأحجار الحانا من المجد السالف . ونحن أنفسنا يجب أن ننظر خلال المئات من الدروب الضيقة لنرى تلك الساكن المقدسية المتواضعة التي تخيم عليها مسحة من الكابة الحلوة . فعلى طول الطريق ، من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية إلى حدود المدينة الجنوبية ، يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة ، حيث نسمع لحنا لنشيد رفيع فخم ، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن أعيننا في تحد قوى .

وحين نصعد إلى قمة القلعة ، بعيدا عن الزحام وضوضاء الطريق ، ننظر تحتنا إلى « آلاف من الابنية البيضاء المتداعية ، والآثار ، والجبانات ، وعدد لا يحصى من القباب والمآذن الدقيقة المزركشة » ، فتبدو وكأنها غابة من القلاع « تتجه إلى السماء » ، مرتفعة في كل مكان فوق مجموعة من المكعبات .

كانت القاهرة العظمى ، كما يسميها الرحالة من الأوروبيين ، عاصمة سياسية منذ بدء وجودها . ونظرا لكونها مركزا شيعيا ، فمن المرجح أن المدينة كانت مكروهة ، كما كانت هناك محاولة لمنع انتشار نفوذها بنوع من السياج الوقائي . وكان للمدينة فوق ذلك منافسون في ذلك الوقت ، ولو أن هذه المنافسة اقتضرت ، من ناحية ، على بغداد ، العاصمة القديمة للدولة الإسلامية والتي حلت محل دمشق ، ومن ناحية أخرى ، على مدينة قرطبة التي كانت عاصمة لحضارة قريضة ، وتحت حكم السلاطين المملوكيين ، أصبحت القاهرة بمثابة عاصمة عالمية ، مع بقائها مركزا إسلاميا ، كما أصبحت وجهة أنظار الأوروبيين بسبب الرخاء التجارى الذى نعمت به .

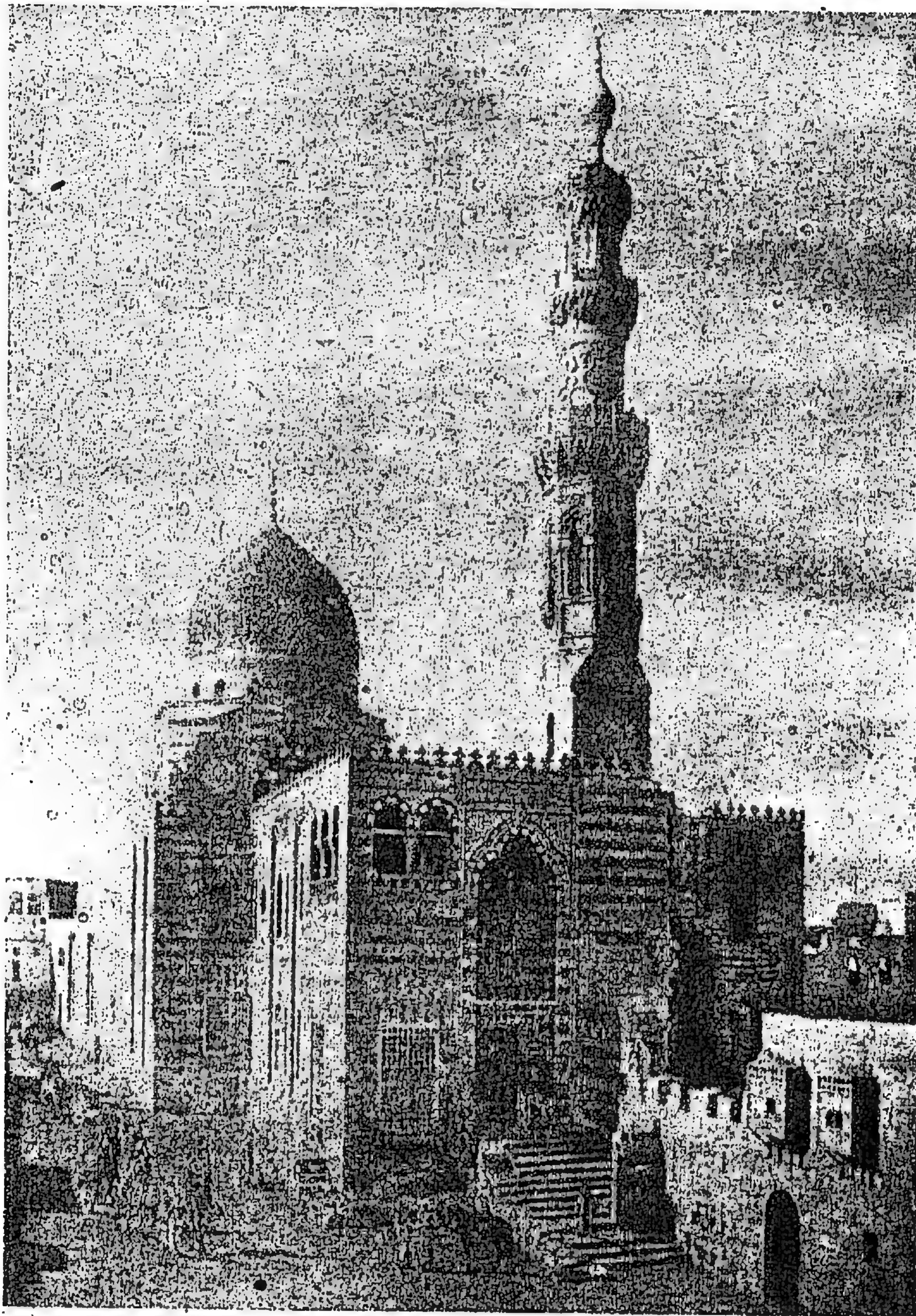
جاستوت فييت

نوبى - سير - سان

١٢ تموز (يولية) ١٩٦٤

المواسم الإسلامية الأولى





إن دراسة القاهرة في الفترة السابقة لقيامها التاريخي
تعين علينا تناول مشكلة موقع العواصم الإسلامية لمصر .
وقد كانت هذه العواصم في أول الأمر مدنا اقليمية هامة قبل
أن تصبح عواصم بالمعنى الصحيح .

كانت هناك عند الفتح العربي ، قبل كل شيء ، مدينة الاسكندرية ،
ولكنها لم تناسب العرب الذين كان عليهم أن يبقوا على اتصال بالمدينة
أولا ، ثم بدمشق ثانيا ، وبعد ذلك أصبحت بغداد مصدر السلطة في الدولة
العربية .

نمت المدينة الأولى ، الفسطاط ، التي كانت مركزا اداريا وعسكريا ،
حول حصن بابلي بيزنطي . وحسب قصة طريفة ، قبلت على أنها حقيقة
تاريخية في الشرق وفي الغرب على حد سواء ، فإن المدينة نمت تدريجيا
حول فسطاط (خيمة) القائد ، الذي عشتت عليه وأفرخت يمامة
برية^(١) . ولقد أخذت هذه القصة مأخذ الصدق إلى أن اكتشفت بردية
مكتوب عليها باللغتين اليونانية والعربية أظهرت العلاقة بين الكلمة
العربية « الفسطاط » والكلمة اليونانية phossaton ، ومعناها : المعسكر
الذي يحيط به خندق^(٢) . ولم يختلط المسلمون ، باعتبارهم القوة
المحاربة ، مع السكان الأصليين . ولأغراض الأمن ، ظل المسلمون في مكان
واحد ، وقسموا إلى جماعات حسب قبائلهم ، وذلك ليكونوا مجموعة
متماسكة في الفسطاط وضواحيها على الأقل . وسرعان ما اتخذت الفسطاط
مظهر المدينة ، بجامعها الكبير الذي لزم توسيعه في الحال ، وبأسواقها
التي أحاطت بالجامع .

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١ : ٦٤ (ط. القاهرة ، ١٩٦٣) : وفي
الخطط للمقريزي ١ : ٢٩٦ (ط. بولاق ١٢٧٠) : « امر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه
يمام قد قرخ » .

(٢) انظر مصر في فجر الاسلام للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : ٢٤٤ (القاهرة
١٩٤٧) : والكلمة باللاتينية أصلا هي fossatnm

ولقد أجمل أحد المؤرخين العرب في براعة وصف نمو القاهرة فيما بعد ،
مثل قيام العواصم ناحية الشمال ، على النحو التالي :

وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين إلى مصر وفتح
الحصن واختط مدينة فسطاط مصر ، فصارت دار الامارة من حينئذ
بالفسطاط ، إلى أن زالت دولة بنى أمية وقدمت عساكر بنى العباس إلى
مصر ، وبنوا في ظاهر الفسطاط العسكر . فصار الأمراء من حينئذ تارة
ينزلون في العسكر وتارة في الفسطاط . إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر
والميدان وأنشأ القطائع بجانب العسكر ، فصارت القطائع منازل
الطولونية إلى أن زالت دولتهم . فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون
بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر المعز لدين الله ،
وبنى القاهرة المعزية ، فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ، ومقر
الأمانة ، ومقر الملك ، إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان
صلاح الدين يوسف بن أيوب . فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر ، بنى
قلعة الجبل هذه ومات ، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى
بكر بن أيوب . واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده ، إلى أن
انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم . فاستقروا
بقلعة الجبل الى يومنا هذا^(١) .

لقد اقميت هذه المدن المختلفة لأغراض عسكرية . ونظرا لأنه لم يكن
هناك خطر من جانب عدو خارجي ، فانه من الأصح أن نقول أن هذه المدن
بنيت بغرض حماية رئيس الدولة ضد الثورات . وليست هذه الحالة فريدة
في العالم الاسلامي .

من الناحية السياسية والفنية ، يبدأ التاريخ الحقيقى لمصر الاسلامية
المستقلة بابن طولون . فحين وجد هذا الأمير أن العسكر غير أمنة ، رغب في
أن تكون له عاصمة وقصر ومسجد لتخلد ذكراه . ومع أن الأسرة
الطولونية لم تعمر طويلا ، إلا أنه يحق لنا أن نتحدث عن الدولة
الطولونية والفن الطولونى .

وقد اتخذ ابن طولون مدينة سامرا ، وهى المدينة الرافدية التى تشأ

(١) الخطط : ٢ : ٢٠١ .

فيها ، مثالا له ، فخطط في داخل محيط دائري رسما للقطائع التي ستمنح للضباط والموظفين والأفراد ، كما رسم مخططا للمسجد الجامع والأسواق التي ستحيط به . وكانت صفوف الأسواق ممتدة وتنقسم حسب التخصص التجاري ، وقد استخدمت هذه الطريقة ذاتها في تقسيم جماعات السكان المختلفة . وهكذا بنيت المدينة الجديدة للجيش والادارة والتجارة التي لا غنى عنها للحياة اليومية في الدولة . وقد خصصت مساحة كبيرة إلى الشرق من المدينة ، بالقرب من سفوح جبل المقطم ، لركوب الخيل والسباق . وكانت التدريبات والعروض العسكرية تقام هناك أيضا . وكان عرض الجيش الطولوني على هذه الساحة مشهورا في جميع أرجاء العالم الاسلامي في ذلك العصر ، ويقارن الكتاب بينه وبين الجمعة ببغداد ، التي كانت تقام بحضور الخليفة . وقد اتخذ خمارويه ، ابن أحمد ابن طولون ، في حرسه الخاص ، أفرادا أشداء أقوياء ، لوحظ في اختيارهم الطول والضخامة . كما كانت لديه قوة من الزنوج ، يمرون في العرض ، تلف رؤوسهم عمامات سوداء وتغطي صدورهم دروع حديدية تلبس فوقها قمصان سوداء ، فكانوا أشبه بمحيط أسود متدافع ، بتأثير لون بشرتهم وملابسهم .

وبدا ظهور البذخ في مصر في أيام هذا الأمير الأخير . فانه زين القصر ووسعه ، وأضاف إليه حديقة صناعية بأشجار مفضضة ومذهبة ، على طريقة أهل العراق التي أعجب بها رسل بيزنطة ايما اعجاب . كما ضمت هذه الحديقة أيضا نباتات زكية الرائحة ، وأشجارا من أندر الأنواع . وكانت هناك حديقة للحيوان تربي فيها الخيول المنتقاة ، والجمال ، والنمور ، والفهود ، والأفيال ، والزرافات ، وكان خمارويه قد استأنس سبعا لم يبرح جانبه قط ، وأحاط نفسه بعدد ضخم من الحسناوات الصغيرات ، اللاتي قضى معهن فيما يبدو أكثر أيام حياته . وعمل في داره مجلسا يرواقه سماه بيت الذهب وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياها والمغنيات اللاتي تغنيته .. وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكودان المرصعة بأصناف الجواهر وفي أذنانها الأجراس الثقالة الوزن المحجمة الصنعة^(١) .

بيد أن كل شيء قد اختفى ، بعد أن قضت عليه أحقاد الخلافة العباسية بالذمار ، ولكن تلك الأحقاد لم تجرؤ على أن تهاجم المسجد الجديد . وهذا البناء الذى هو من تصور ابن طولون « يمثل لنا روحا تتميز بالخشونة والطموح والأباء » . هنا يشعر الانسان بعمق العاطفة الدينية ، كما يتأثر بالبساطة الرائعة فى التصميم ، تلك البساطة التى لم تمنع المهندس من أن يباين بين الضوء الباهر فى الصحن والظل فى الأروقة ، وأن يزيد من حدة التباين بتضخيم الأعمدة . وفى داخل المسجد ، فى وسط ساحة يبعث طهرها على التفكير العميق ، يجد الانسان نفسه وقد انغمس فى جو من التأمل الدينى الذى يوحى به اتساق الخطوط ، والعمق الغامض للأروقة ، وارتفاع العقود الشاهق ، الذى خفف من صرامتها ما بها من نوافذ ، ثم زاد من رقتها نتوءات الزخرفة للجوامات الوردية التى تتوج أعالي الجدران . أن الأجزاء القليلة من الزخارف على الجص تجعل الانسان يفكر فى الفنانين وفيما يبدو فى عملهم من حرج ظاهر متعمد ، لقد وضعوا أساسا تخطيطيا لا تستطيع الأجيال المقبلة إلا أن تجمله .

أما مئذنة المسجد ، فقد أعيد بناؤها فى القرن الثالث عشر ، ولكنها شكلت حتما على نمط المئذنة القديمة التى تذكرنا - كنموذجها الأصلي فى مسجد سامرا - بهياكل النار فى العبادة الزرادشتية . ويفسر الشكل الغريب للمئذنة قصة طريفة يوردها مؤرخ^(١) معاصر للأمير تقول أن أحمد بن طولون ، الذى احتفظ دائما بسمت صارم أثناء مقابلاته ، أخذ قطعة من الورق ذات يوم ولفها حول أصبعه ، مظهرها طرف الأصبع من نهايتها ، فنظر الحاضرون بعضهم إلى بعض فى شيء من العجب ، محاولين تفسير عمل الأمير . وحين لحظ الأمير استغرابهم ، قال مداعبا : « تبني المنارة التى للتأذين هكذا » .

واقتنى أثر الدولة الطولونية فى استقلالها الأخشيديون ، الذين أقاموا حكومة مستقلة قبل وصول الفاطميين إلى مصر مباشرة . وليس هنا مجال الاهتمام بالجوانب السياسية ، ولكن لابد من الإشارة إلى حقيقتين حضاريتين على جانب كبير من الأهمية . لقد عاش الرحالة والمؤرخ

(١) الخطط ٢ : ٢٦٨ ، وزبدة كشف الممالك لخليل الظاهري : ٣٠ (ط . باريس

المسعودى فى مصر فى ذلك الوقت . وتحدث عن الرخاء الاقتصادى فى البلاد فى كتابه الذى ألفه أثناء إقامته هناك ، فقال (١) .

يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين (بحر الروم وبحر الصين) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكول والمشرب والملابس . فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها .

ويجب أن نذكر بصفة خاصة أن الأمراء الأخشيدين شجعوا موهبة المتنبي ، ذلك العملاق بين شعراء العربية . الذى يتميز شعره فى المناسبات بنفحات ملحمية جارفة . وأتينا لنجد فى شعره القوة الخارقة على التصور ، والسيطرة المطلقة على جميع مصادر وامكانيات فنه . سواء فيما يتعلق بالإيقاع أو بالمهارة فى استخدام الكلمات . وبالرغم من احترافه المديح . إلا أن حبيزته الفذة أنقذته من الأسفاف . وما من شك أنه يرجع إليه بعض الفضل فى أن الأجيال اللاحقة لا تزال تذكر الأخشيدين بشيء من الاجلال .

ولقد اتخذت هاتان الدولتان المستقلتان اتجاهها جديدا تجاه الأقلية المسيحية ، ولعل السبب فى ذلك هو الرغبة فى كسب الراى العام فى وجه الخلافة فى بغداد . ويكفى أن نورد هنا الوصف التالى الذى أورده المسعودى والذى يرجع الى عام ٩٤١ م قال (٢) :

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والأخشيدي محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة (الروضة) ... ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور . ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكول والمشرب والملابس وآلات الذهب والفضة

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى : ١٩ (ط . القاهرة) .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١ : ٣٤٣ (ط . الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد) وانظر أيضا الخطط ١ : ٢٦٥

والجواهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر ،
وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب . ويغطس أكثرهم في النيل ،
ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء .

تتميز النظم السياسية الإسلامية بالمركية . ولهذا ، فإنه يمكن أرجاع
النجاح في العمل المزدوج الذي قام به السادة الجدد - وهو صبغ البلاد
بالصبغتين الإسلامية والعربية - إلى العاصمة في مصر ، تحت توجيهات
الخلافة بطبيعة الحال .

ولقد عرض وليام مارسيه بوضوح لموقف المسلمين الأولين من مشكلات
التعليم ، فقال :

ان أهداف التعليم في المجتمع الإسلامي تهتم ، أو لعلها تختلط ،
بالرغبة في تمكين كل شخص من أن يؤدي واجباته الدينية ، وتدعيم عقيدة
المؤمنين ، ونشر الإسلام بين الكفار . ويعتبر من واجبات الحكام الأساسية
العمل بين رعاياهم على نشر المعرفة النافعة بين كل من يعتنق الإسلام .
وأن نظرة سريعة إلى الخطوات التي أدت إلى نشر الإسلام بين الأقباط
تظهر أن المسيحيين أصبحوا أقلية في القرن التاسع الميلادي ، أي بعد
مائتي سنة من الفتح العربي ، وكان هذا يعتبر حينئذ نصرا سريعا . ففي
الفسطاط - وهو ما يهمننا بصفة خاصة - تم التعريب بسرعة أيضا ،
وكادت العربية في أقل من ثلاثة قرون أن تزيل تماما منافستها اللغة
القبطية . وأهم وثيقة لدينا في هذا الصدد هي مقدمة ساويروس الأشمونى
لكتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » ، والذي كتب في نهاية القرن العاشر
الميلادي ، حيث يقول^(١) :

فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم
مساعدي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم
العربي الذي هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بأقليم ديار مصر لعدم
اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية بالاسكندرية ، لساويروس ابن المقفع الأشمونى
History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, Patrologia
Orientalis, Tome I, p. 17)115).

وكان المسجد منذ البداية مركزا للتعليم . وهو أمر طبيعي ، لأن الغاية من التعليم هي اعداد متخصصين في القرآن والحديث . ويعنى هذا معرفة النصوص الدينية عن ظهر قلب ، وترديدها دون ارتكاب أخطاء في تذكرها ، ودون أخطاء نحوية . وكان الفرد يستطيع عن هذا الطريق أن يصبح مسلما صحيحا وداعية يتصف بالجد والعزيمة ، وكان العالم في الدراسات القرآنية لاغنى عنه في جميع المساجد . ويقول ابن جبير^(١) :

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد الشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة قينفصل من التلقين إلى التكتيب .

وهناك نوع من التعليم الخاص ، عن طريق تخصيص مبلغ من المال تدفع منه مكافأة لكل شخص يحاضر جالسا في مسجد ومستندا الى أحد الأعمدة . كما قامت الجمعيات الخيرية بمساعدة الأيتام الذين وجد أنهم يفيدون من التربية الدينية . ومنذ القرن السابع ، ظهر في الفسطاط عدد من المحدثين اللامعين . وقام الى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء طائفة من الخطباء الشعبيين ذوي المقدرة ، ممن استمدوا مادتهم من قصائد الهجاء القديمة .

وهكذا اتجه المنهاج التعليمي نحو الاعتماد على الذاكرة . ومنذ البداية ، لعبت الكتابة دورا ضئيلا ، وكان لهذه الحقيقة الهامة تأثير كبير على النظم التعليمية لعدة قرون . كانت هذه هي الطريقة التي اتبعها مرتلو القرآن وقراؤه منذ أقدم العصور الاسلامية . وعلى أى حال ، كان الطفل يتعلم القراءة والكتابة ، وما هما بالأمر الهين . وبعد ذلك ، كان الدارس يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ويرتله حسب قواعد دقيقة معينة في علم القراءات .

لهذا ، كان القرآن هو الأساس الذي تقوم عليه تربية الرجل المسلم وتعليمه . فكان التلاميذ يبدأون بقراءة النص كاملا : وبعد ذلك يطلب إليهم أن يستظهروا منه أكبر قدر يستطيعونه . وبعد تحليل النص بأكمله تحليلًا نحويًا ، يكلف الأساتذة التلاميذ بنسخه بشكله التقليدي . وخلال

(١) رحلة ابن جبير : ٢٤٥ (ط . بيروت) ، و ٢٧٢ (ط . اوربويه)

هذه العملية ، يقوم الأساتذة بتفسير النص . ولم يكن استظهار القرآن مجرد دليل على الثقافة فحسب ، ولكنه كان يميز الرجل العالم بين قرنائه . وقد حرص المؤرخون على أن يحفظوا للأجيال التالية أسماء أولئك الذين وهبوا أنفسهم لهذه الرياضة الذهنية .

ومما لاشك فيه كذلك ، أن غرضا آخر من أغراض التعليم كان الحرص منذ البداية على حفظ الحديث . وكان البرنامج يتكون من قسمين : القسم الاجبارى ويختص بتعليم القرآن والتربية الدينية والقراءة والكتابة ، والقسم الاختيارى ويشتمل على تاريخ ما قبل الاسلام وسيرة الرسول والصحابة والشعر والنحو والانشاء والمفردات والحساب والخط . ولهذا ، تعددت أساليب تنشيط الذاكرة ، إذ لا نعرف في غير هذا الأدب تلك الثروة من الشعر التعليمى التى تقدم للطالب دراسات فى الفلك والرياضيات والتاريخ ، وفى القانون على وجه الخصوص . « ولم يضعف الاعتقاد فى المبدأ القائل بأن نقل المعرفة عن طريق الرواية هو وحده الصحيح » إلا بحلول القرن الثامن واكتشاف الورق .

ولم تسمح بعض كتابات المتزمطين بالتعليم الابتدائى للأطفال فى المدرسة فى العصور الوسطى .. خوفا من أن يلوثوا الجدران . واقترحوا أن تقام الفصول فى الدكاكين التى تقع على الطريق أو على جوانب الأسواق . وقد اقيمت معظم الفصول فى أماكن ضيقة جدا ، باستثناء تلك التى كانت تعقد فى الهواء الطلق . ويمكننا أن نقدم صورة لما كانت عليه المدرسة الابتدائية فى العصور الوسطى حسب ما لدينا من أوصاف حديثة . كان جميع التلاميذ يجتمعون فى مكان واحد ، ويتشدون ويتعلمون ما يقرر عليهم من الدروس بصوت عال . ويمكننا أن نتصور الصوت الذى كان يسمع فى الفصل ، وحتى يتمكن المدرسون من تحمله ، كان عليهم أن يعتادوا عليه تماما . وإلى جانب الترتيل عند انشاد الدروس أو قراءتها ، كما كان يحدث فى جميع البلاد ، كان الأطفال يهزون نصف أجسامهم العلوى إلى الأمام والخلف . هذه الحركة الدائبة ، بالإضافة إلى الصوت النشاز المنبعث من مجموع تلك الأصوات ، جعلت منظر المدارس العربية يبدو غريبا . وكان الأطفال الذين لا يقومون بواجباتهم أو يسيئون السلوك أمام أساتذتهم يعاقبون بشدة . فكان التلميذ المذنب يلقى على ظهره على الأرض ، بينما يرفع المساعد رجليه عاليا ريثما يثبت الشيخ قدميه فى « الفلقة » ،

وهي أداة شبيهة ببعض أدوات التعذيب التي استخدمت منذ العصر البيزنطي وحتى الأزمنة الحديثة . وعند ذلك يضرب الشيخ قدمي الضحية بغصن رفيع من الجريد . وقد كان ينظر إلى مهنة المعلم باحتقار ، فشاع التعبير القائل « أحرق من معلم » . ولم تقتصر هذه النظرة على الحضارة العربية .

أما التعليم في المرحلة الأعلى فكان يتم في المساجد . فمُنظر الطلبة وقد جلسوا على شكل حلقة حول الأستاذ ، الذي كان يجلس مستندا إلى أحد أعمدة المسجد ، يمثل لنا صورة مألوفة لأزلنا نراها إلى وقتنا هذا . وكان التلاميذ ، سواء في التعليم الأولي ، أو في حلقات المساجد ، أو في المدارس الإسلامية فيما بعد ، يجلسون على حصر مبسوط على الأرض . ولقد لقي أساتذة المراحل العليا العنت الشديد في حفظ النظام أثناء دروسهم . فقد كان هناك سيل مستمر من الأسئلة من الطلبة الذين لا يحجمون عن طلب الإيضاحات والشروح . وقد شكوا بعض الأساتذة من ذلك بمرارة . ولعل هذا الوصف الحديث يصدق أيضا على الفصول في جميع العصور : ويمكن للمرء أن يرى عمامة الأستاذ ، وقد جلس القرفصاء على جلد كبش ، وإمام قدميه العاريتين منديل وزوج من النعال . وكان يجلس حول العمود الذي يستند إليه ثلاثة صفوف من المستمعين ، يشبهون بجلستهم فروع القلادة . وكان هؤلاء أيضا حفاة الأقدام ، قد وضعوا نعالهم أمامهم بعناية ، كما يفعل بعض الباعة في الأسواق .

وكان لزاما على الطالب أثناء تلقيه التعليم الديني ، أن يتم اللغة العربية باتقان ، حتى يمكنه أن يفهم كتاب الله فهما صحيحا . وما كانت هذه الدراسة اللغوية ممكنة إلا عن طريق دراسة متعمقة للشعر العربي . ويمكننا الآن أن نفهم حماسة الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما وصف نتيجة الرسالة التعليمية لمسجد القسطنطين الكبير على هذا النحو بقوله^(١) .

يقوم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة

(١) سفرنامه لناصر خسرو : ٥٩ (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب)

الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، في أى وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم ، والغرباء ، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . في الوقت الذى كتبت فيه هذه الكلمات ، كانت الشيعة هى المذهب الرسمى للدولة فى مصر . وإذا ما تذكرنا أن الاسكندرية كانت منذ القرون الأولى للعصر المسيحى مركزا نشطا للمهرطقة ، فإنه يهمنى أن نلاحظ أنه منذ وصول العرب ، تجنبت البلاد بصفة عامة الانقسامات الدينية والسياسية التى مزقت شمل العراق وفارس وشمال افريقية . ومما لاشك فيه ، أن بعض الأفراد دافعوا عن النظريات المنشقة ، ولكن مصر - التى ظلت خارج نطاق صراع الخوارج وجميع ما تخلف عنهم من فرق - لم تبد اهتماما بقضايا الجبر والاختيار ، وكادت أن تتجنب تماما حركات الاضطهاد التى تعرض لها المعتزلة .

ولعل من المفيد فى هذا المجال أن نذكر أن فقيه الاسلام الكبير الامام الشافعى قضى الأعوام الأخيرة من حياته فى مصر ، حيث دفن . وأن الدور الذى قام به فى تنمية التشريع الاسلامى لبالغ الأهمية ، ولا يمكن أن نفيه حقه ، لأنه كان بحق واضع أساس التنظيم العلمى فى حقل التشريع الدينى . فقد أوجد مذهباً متكاملًا بطريقة علمية . ويجب أن نذكر أنه كان هناك اتجاهان فى ذلك الوقت : اتجاه أهل الحديث ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المدرسة التاريخية ، والذين يبنون القانون الأخلاقى برمته تقريباً على الحديث ، دون تحريم للقياس والرأى الشخصى تحريماً مطلقاً عند الحاجة ، واتجاه أهل الرأى ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم أصحاب المذهب العقلى - فى شئ من الاحتراس - وهؤلاء يبدأون موقفهم أيضاً باحترام كبير للحديث ، ولكن نظراً لأنهم شعروا بقلّة المادة الموثوق منها ، فقد فتحوا الباب للاجتهاد الشخصى .

وقد عمل الشافعى على التوفيق بين الاتجاهين . فنحن مدينون له بالتعريف والتطبيق الدقيق لمصادر التشريع الأربعة ، وهى القرآن والحديث والأجماع والقياس . وترجع أصالته إلى أنه جعل الاجماع يمتد ليشمل الجماعة بأسرها . وقد منح ذلك قوة قانونية لتقليد معترف به من الجميع . ومن ثم نشأ القول القائل بعدم خطأ الجماعة ، التى يحددها الشافعيون باجماع أصحاب الرأى فى زمن معين .

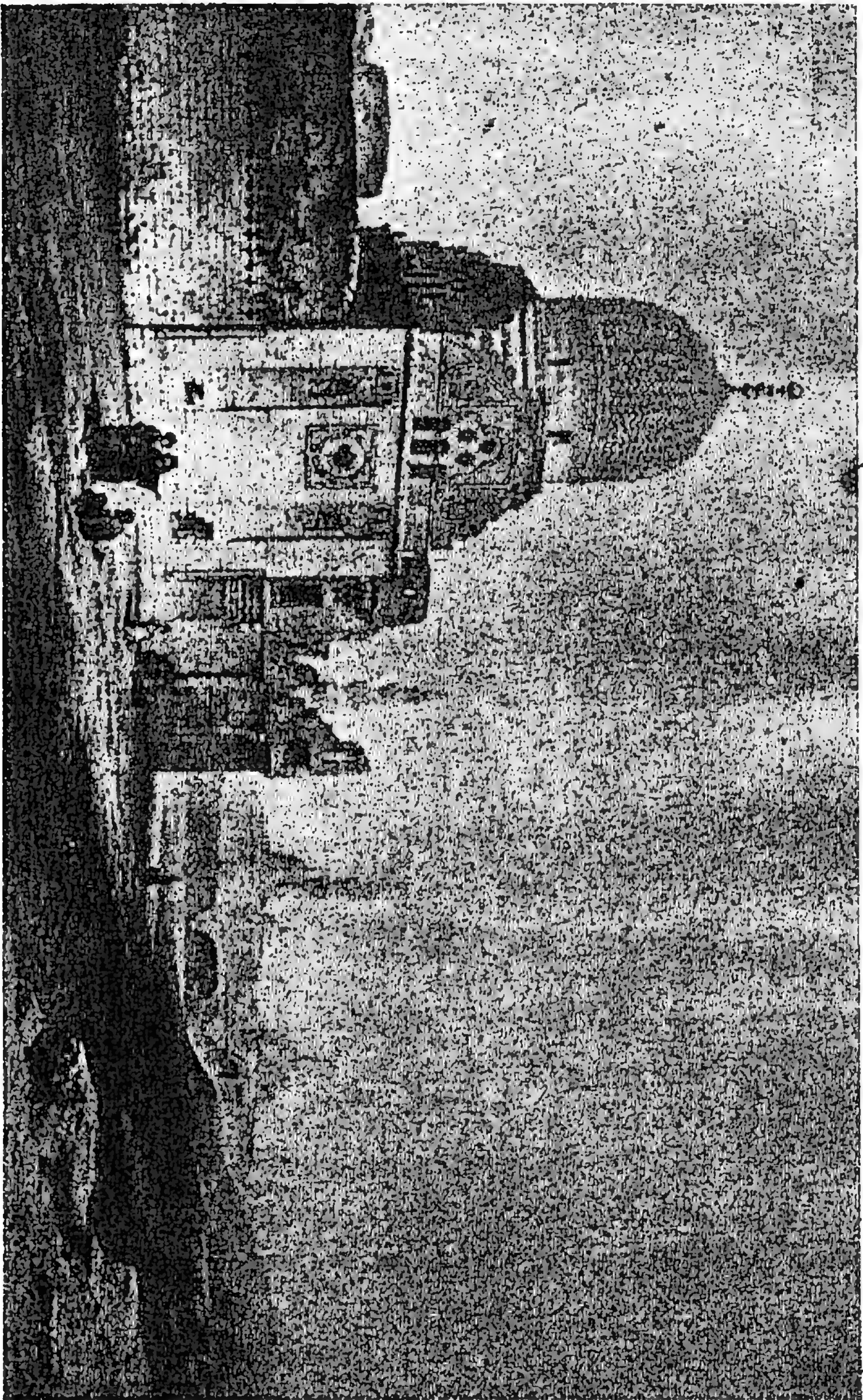
ومعها كان الأمر ، فان الفسطاط - قبل انشاء القاهرة - لم تكن بأى حال
مركزا لنشاط أدبى أو دينى يمكن أن يقارن فى الأهمية بينه وبين مدن مثل
بغداد والبصرة والكوفة .

ونختتم هذه الحقبة بذكر شخصية تاريخية يصعب التعريف بها . وهى
ذو النون الذى يدعيه كل من المتصوفة والكيميائيين والقبليين . وتنقسم
بعض فقرات من كتاباته - وهى حكم وأمثال وقصص - بطابع صوفى . وقد
ترك لنا هذا التعريف لألوهية الله بقوله : « وكل ما خطر ببالك ، فانه
بخلاف ذلك » (١) .



(١) الرسالة القشيرية للامام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى : ٤ (ط . القاهرة ،
١٩٤٠) .





لم تتعد عاصمة ابن طولون مرتبة المدينة الاقليمية . وقد كان لهذه الحقيقة تأثيرها النسبي على الغضب المدمر الذى بدأ من قائد الجيوش العباسية عند سقوط الأسرة . أما القاهرة ، فقد كتب لها أن تتمتع بمجد أبقى .

كان حكام مصر قد بدأوا يتجهون شمالا ، حتى قبل دولة الفاطميين . فنجد أن آخر الأخشيديين أنشأ حديقة كافور بعيدا عن موقع العسكر والفسطاط . وقد بنيت هذه الحديقة الكبيرة - التى حافظ الفاطميون على جزء منها - على مستوى المسجد الأحمر ذاته ، وكان يحدها الخليج . وكان حكام القاهرة يصلون الى هذا المكان - الذى أصبح حديقتهم الخاصة - عن طريق سرادب تحت الأرض .

القاهرة مدينة جديدة انشئت حيث لم يوجد شيء من قبل ، وعلى موقع اختير مقدما اختيارا محددًا ، على سهل رملى . وحسب الرسم الذى كان الخليفة نفسه قد صممه فى شمال افريقية ، قام جوهر ، قائد الجيوش الفاطمية ، فى الليلة الأولى من وصوله الى الفسطاط . بتخطيط موقع اسوار القاهرة شمالى القلعة القديمة ، كما وضع أساس القصر الملكى ، وكما حدث عند تأسيس بغداد ، قبل ذلك بزمان طويل ، حين حدد اقدر الخبراء الوقت الذى تكون فيه النجوم فأل خير لمثل هذا العمل ، اتخذت اجراءات مماثلة عند تأسيس القاهرة .

... ان جوهرًا ، لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة (١) ، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، وبين القائمة والقائمة حبل فيه اجراس ، وافهموا البنائين ساعة تحريك الاجراس ان يرموا ما فى ايديهم من اللبن والحجارة ، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة واخذ الطالع . فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الاجراس ، وظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها فalcقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس ، فصاح المنجمون : لا ، لا ، القاهر فى الطالع ! ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . وكان غرض جوهر ان يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن

(١) النجوم الزاهرة ٤ : ٤١ وراجع ايضا الخطط ١ : ٣٧٧

نسلهم ابدا . فوقع أن المريخ كان في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر .. ولهذا سميت المدينة القاهرة .

تأسست مدينة القاهرة في يوم ٦ تموز (يوليه) سنة ٩٦٩ ، وعينت الأحياء لمختلف الجند بعد ذلك بستة أشهر . وامتدت المدينة الجديدة من المئذنة الجنوبية لمسجد الحاكم الى باب زويلة . وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحديثة ذاتها ؛ أما من ناحية الغرب ، فلم تتعد القناة . وقد بنى القصر الملكي مع المدينة في وقت واحد ، وامتدت واجهته الغربية من المسجد الأحمر حتى مدرسة الملك الصالح أيوب . ووضع أول حجر في الجامع الأزهر في يوم ٤ نيسان (ابريل) سنة ٩٧٠ ، وتم بناؤه يوم ٢٢ حزيران (يونيه) سنة ٩٧٢ .

وهكذا ولدت مدينة ، ستصبح فيما بعد هدفا لعداوة مريرة من جانب أهل السنة ، وذلك بسبب ميولها الدينية المخالفة لهم . وفي الواقع ، كان وصول الفاطميين الى السلطة في مصر انقلابا غير عادي . فمنذ استيلائهم على السلطة في شمال افريقية ، أصبحوا منافسين للعباسيين في بغداد . وبعد ذلك بقليل ، في سنة ٩٢٩ ، حذا الأمير الأموي في قرطبة حذو الفاطميين أنفسهم في الاتجاه الى الرأي العام ، واعتبر ان من حقه ايضا اتخاذ لقب خليفة . وقرر في رسالته الى الناس « وعلمنا ان التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه ، واسم ثابت اسقطناه » (١) . هذا العصر يمكن أن يسمى عصر « الانقسام الأكبر » نظرا لتعدد الخلافات . وهذه التسمية صحيحة ، لأنه اذا كان الخلفاء في بغداد وقرطبة يتمسكون بادعاء انهم قد تمت مبايعتهم بواسطة جماعة يصعب تحديدها من أهل الرأي ، فان الخليفة الفاطمي أو الإمام يقيم حقه على دعوى خاصة . فتوليته الخلافة لا يعتمد على أمور عادية مثل رأى الجماعة ، وانما هو معين بحكم نسبة المقدس ، وهو منزّه عن الخطأ .

وبنيت البيوت لرجال الجيش وأسرههم ، كما انشئت حوانيت تجارية خاصة لخدمتهم . وبينما ارتفعت الأسوار وأخذ اساس القصور والجامع

(١) نص الكتاب الذي تلقب فيه عبد الرحمن الثالث بالقاب الخلافة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) في كتاب : »

الأزهر الكبير في العلو ، كان جنود جوهر يبنون البيوت ، وكان المعسكر يتحول الى مدينة . وعندما قسمت الأرض داخل الأسوار بين فرق الجيش المختلفة ، ابتنت كل فرقة لنفسها خطة واطلقت عليها اسمها أو اسم قائدها . وكانت القاهرة في ذلك الوقت تنقسم الى قسمين متساويين تقريبا بواسطة قصبة كبيرة تمتد بإزاء الخليج ، الذي كان يجرى غربا . وتخرج شوارع القسمين الرئيسيين في المدينة من جانبي القصبة (١) .

ووجدت غربى القناة حدائق امتدت الى ضفاف النيل .. وكثيرا ما كنت ترى فيها اعدادا كبيرة من المتعطلين أو المتنزهين ممن يطلبون اللهو والتسلية . وعندما تبلغ مياه النيل اقصى ارتفاعها ، يقصد الخليفة احدى القاعات التي تقام في السهل ، حيث تقام مهرجانات شعبية كبرى . في هذه المدينة الاقليمية العسكرية ، لم تكن العناية بالطرق امرا عسيرا . وكانت القرب المائية المصنوعة من جلود الماعز والتي كانت تنقل على ظهور الجمال أو البغال تغطي حتى لا يصيب ما يتساقط منها المارة . وبالإضافة الى ذلك ، كان لزاما على كل صاحب متجر ان يحتفظ أمام حانوته بوعاء كبير ممتلئ بالماء ليساعد به في اطفاء النيران . وهناك أمر صدر عن الخليفة الحاكم لا يخلو من طرافة . فقد اصدر أمرا في جميع أرجاء المدينة بأن تضاء الحوانيت والبوابات والميادين والطرق العامة والحارات المسدودة . ثم أخذ الناس يبالغون في استخدام المصابيح في الشوارع والأزقة . فكانت الأضواء تظل مشتعلة طوال الليل في الأسواق المسقوفة والمكشوفة في القاهرة وفي مصر القديمة ، يتزاحم عليها المشترون . كما انفقت اموال كثيرة في حفلات الأكل والشراب والطرب . وسرعان ما ضاق الخليفة الحاكم - الذي لا تحتاج نزواته الى مزيد من الإشارة - فاصدر أمرا مشددا بحظر التجول ليلا .

ولقد امضى رحالة فارسي بعض الوقت في القاهرة وامتدحها اجمل المدح بهذا الوصف (٢) .

(١) المعنى في الخطوط ١ : ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ : وانظر كتاب : القاهرة : تاريخها واثارها

لعبد الرحمن زكي : ١٠ (ط. القاهرة ، ١٩٦٦) .

(٢) سفرنامه : ٤٧ - ٢٠

... وهكذا بنيت هذه المدينة التي قل نظيرها . وقد قدرت ان في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك السلطان ، .. والأربطة والحمامات والأبنية العامة الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، اذ ليس لاحد أن يملك عقارا أو بيتا غير المنازل وما يكون قد بناء الفرد لنفسه . وسمعت أن للسلطان عشرين ألف بيت (١) ، في القاهرة ومصر ، وانه يؤجرها ويحصل أجزتها كل شهر . ويستطيع المستأجر ان يستأجر منزلا أو يتركه بمحض ارادته فلا يجبر شخص على شيء .

... وليس للمدينة قلعة . ولكن أبنيتها اقوى واكثر ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن . ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .. وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار .. وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهي بعيدة عن بعضها : فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر .

... ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاؤون على الجمال .. ويقال ان في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاؤون الروايا (القرب) ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره من القدر النحاسية أو القرب الصغيرة ، وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال

... ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ، ولا يتصل به أى بناء ، وكل ما حوله قضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس . وكانت حراسة القصر ليلا تقتزن بعرض مهيب . فبعد الأذان لصلاة العشاء يقوم الإمام بالصلاة ، ويتقدم احد الأمراء الى سلم القصر : وعند انتهاء الصلاة ، يصدر أمره لفرقة من قارعى الطبول ونافخي الأبواق ان يعزفوا ، كما تعزف آلات أخرى قطعاً موسيقية جميلة لمدة ساعة تقريبا . ثم يترك القصر ضابط معين خصيصاً لهذا الأمر ، فيلوح بمرمحه ، ويقذف بها أولا الى الأرض عند المدخل ، ثم يلتقطها ويغلق الباب ويسير حول

(١) هناك اختلاف بين الرقم الذى يذكرها المؤلف ورقم ترجمة الخشاب ، وقد أثرتنا إثبات الاول .

القصر سبع مرات . وبعد أن يتم جولاته ، يقيم العسس الليلى وافراد الحراسة . وكانت تنضب سلسلة فى اضيق مكان من الميدان الذى يسمى بين القصرين . وابتداء من هذه اللحظة ، يوقف المرور فى الميدان حتى نوبة البوق عند الفجر . عند ذلك ، ترفع السلسلة ويستأنف المرور . ويستمر دليلنا الفارسى فيقول (١) .

ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل . لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة . وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع اسواره ... وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء . وله عشرة ابواب فوق الأرض ، فضلا عن أبواب أخرى تحتها .. وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدي الى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم . وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد .

ولندخل القصر مع دليلنا ناصر خسرو (٢) .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصففا وايوانات .. كان هناك اثنا عشر جناحا ، ابنيتهما مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته احسن من سابقه ، .. وكان (بأحد هذه الاجنحة) تخت يشغل عرضه بتمامه .. وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث ، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما : كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما فى هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى واليوقلمون ، نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك ، يفوق حد الوصف . ومن خلف التخت ، بجانب الحائط ، درجات من الفضة .. وقد رأيت على المائدة شجرة أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها الف صورة تمثال مصنوعة كلها من السكر ايضا .

وهناك تقرير يستحق اهتمامنا كتبه وليام الصورى عن زيارة سفراء الفرنجة للقاهرة سنة ١١٦٧ م . ذلك أن الرسل - الذين قادهم الوزير شاور بنفسه - أخذوا أولا الى قصر رائع الجمال ، عظيم الزخرفة . وهناك رافقهم

(١) سفرنامه : ٤٨ - ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٣ - ٦٤ .

عدد كبير من الحرس ، يسرون أمامهم ، ويحملون سيوفهم مسلولة . وبعد أن اقتيدوا خلال ممرات طويلة ضيقة تعلوها إقبية ، حيث لم يمكنهم رؤية شيء بسبب الظلمة القامة ، وجد الرسل أنفسهم في مكان مضى ، ورأوا سلسلة من الأبواب . وكان عند كل باب حراس عديدون . وعند اقتراب شاور ، كانوا يقفون في الحال ويؤدون له التحية في اجلال . بعد ذلك ، وصل الرسل الى فناء خارجي تحيط به أوراق فخمة ذات عمد وقد رصف الفناء بأسره بالرخام الملون المحلى بذهب خالص ثمين ، كما غطيت الدعامات السقفية كلها بالذهب ، مما جعل المكان غاية في الجمال والامتناع للنظر ، حتى ان اكثر الناس انشغال بال كان يتوقف ليحملك فيه . وفي وسط الفناء نافورة تنبعث منها المياه الصافية عن طريق انابيب ذهبية وفضية الى قنوات واحواض مرصوفة بالرخام ، وكنا نرى في كل مكان طيوراً سابحات من أشكال شتى ، ذات ألوان نابذة ، ومن أجمل الأنواع التي جلبت من جميع اقطار الشرق . وكان كل من رآها يعجب بها ويقول ان طبيعة ناضرة قد أبدعتها ، وقد اختلفت طبائع الطيور : فمنها من لزم النافورات ، ومنها من بقى بعيداً عنها . وكان يقدم لكل طائر الغذاء المناسب له . هنا ، مضت جماعة الحراس الأولى التي كانت قد رافقت المحاربين الفرنجة ، وحل محلهم في الحال قوم اكثر أهمية ، ممن كانوا على علاقة وثق بالخليفة ، فقد هؤلاء الأدلاء الجدد الرسل خلال أروقة اكثر جمالا ، وخلال حديقة فاقت سابقتها فخامة وروعة . وهناك رأوا مجموعات من الحيوانات غاية في الغرابة ، بحيث ان أى شخص يصفها سوف يتهم بالكذب ، كما يستحيل على أى فنان رسمها حتى في احلامه . وبعد ان مروا خلال مزيد كثير من الأبواب وعبروا مزيدا كثيرا من الممرات ، وبعد ان رأوا أشياء جديدة مما بهرهم أكثر من ذى قبل ، وصلوا أخيرا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وهو اكثر بذخا من أى شيء رأوه حتى الآن . وكانت الساحات تعج بالجند المسلحين من العرب ، وقد تقلدوا اسلحة متألثة من الذهب والفضة ، وبدأ عليهم الاعتزاز بالكنوز التي يحرسونها . ثم ادخل رؤساء الفرنجة الى غرفة فسيحة تنقسم الى قسمين بواسطة ستارة تمتد من حائط الى آخر ، قد نسجت عليها صور حيوانات وطيور وأشخاص ، وترصعها الأحجار من الياقوت والزمرد وآلاف من الأحجار الكريمة . ولم يكن هناك احد في هذه الغرفة ؛ فما أن دخل شاور ، حتى سجد على الأرض

كأنه يصلى ، ثم وقف وسجد مرة أخرى ، والقى سيفه الذى كان يتدلى من عنقه : ومرة ثالثة ، سجد على الأرض وبقي على هذه الصورة فى خضوع تام . وفجأة ، وفى لمح البرق ، رفعت حباتل الستارة المفضضة المذهبة مثل الحجاب ، وكانت تحجب الجزء الأمامى من الغرفة ، وظهر الخليفة الطفل أمام الأعين المبهورة من الرسل اللاتين . وكان وجه هذا الأمير الغامض مغطى تماما بحجاب . وكان يجلس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والحجارة الكريمة .

ويجدر بنا أن نقف بزهة لنتمعن فى الاخشاب المحفورة التى وصلتنا من هذه القصور . فهذا الجفر الذى استحق شهرته العظيمة يقدم لنا مناظر متتابعة على نحو غير متوقع . من مناظر الصيد ، وحفلات الموسيقى والرقص ، ومجالس الشراب . ولم يهمل الفنانون الذين تخيلوا هذه المناظر ما تحتاج اليه من توازن وتخطيط منظم . وبعض الأجزاء تصور ايضا مجموعات من الحيوانات يواجه بعضها بعضا ، بعضها ساكن فى اوضاع هادئة جميلة ، ولكن اكثرها صور وكأنه ينبض بالحركة . والطابع العام هو الأطراد ، مع زخرفة متعاقبة من اشكال هندسية هلالية وسداسية مستطيلة . ويستمر هذا التباين فى التوزيع مع التناسق فى الاشكال الهندسية التى تتكرر بطريقة منظمة عن يمين وشمال المنظر الأوسط . وقد رتب الزخرفة على مستويين : صور بشرية صغيرة ، وصور حيوانات وطيور تظهر أمام خلفية من الاشكال اللولبية والأوراق الثلاثية ، وهى أقل بروزا فى الحفر . ويحد كل منظر إطار مزدوج المناظر . وحين ننظر اليها فى مجموعها ، نجدها تمثل الجوانب المختلفة لحياة الملك . وتعتبر اعمال الحفر الخشبية هذه ، بآترانها المقصود ، من بين روائع فن رسم الظل (السيلووبت) . وحيث أن تصوير ثنيات الملابس تصويرا متقنا كان أمرا عسيرا ، فيجب علينا أن نشيد بالبساطة فى التصميم التى مارسها هؤلاء الفنانون لاطهار خطوات الرقص بحيوية دافقة . وقد تمكن الفنانون الذين قاموا بعمل هذه المحفورات أن يخرجوا لنا صورا تشيع فيها البهجة ، وتكاد تنبض بالجمال الحسى . فالتصور الفنى فيها حاد وثورى .

وتقدم لنا هذه الأوصاف تعبيرا بليغا يمكننا من ادراك ما كانت عليه حياة الخلفاء الفاطميين من البذخ . فقد ضمت قصورهم خزائن كثيرة استخدمت كمخازن أو أماكن لحفظ الأشياء النادرة . ومما ذكره الكتاب

العرب في هذا الشأن ما يأتي (١) : خزانة الكسوة ، حيث حفظت جميع أنواع الثياب والبز التي كان الخلفاء يوزعونها بسخاء على كبار رجال الخاشية على نحو اضر بمالية الدولة ؛ وخزانة الجواهر والطيب والطرائف ، حيث حفظت مجموعات من الجواهر والأحجار الكريمة وأشياء مختلفة من البلور والصيني والمرايا واطقم الشطرنج المصنوعة من الأبنوس والعاج والفضة والذهب والصحاف الذهبية للأكل ، بالإضافة الى كمية هائلة من الطيب والعطور النادرة ؛ وخزانة الفرش والامتعة ، وهي مخصصة لحفظ السجاد والأقمشة المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة على اشكال الطيور والفيلة المصورة بسائر انواع الصور شيء كثير ، وكذلك الستور الحرير المنسوجة بالذهب منها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ، كما ضمت ايضا خياما ضخمة كانت تستخدم في الرحلات - وباختصار جميع المفروشات التي يمتلكها الخليفة ، وخزائن السلاح ، حيث وجدت شتى أنواع الأسلحة من السيوف والرماح والدروع والخوذ والتخافيف والقسي والسهام والنصول ؛ وخزائن السروج ولجم الخيل ؛ وخزانة الشر ؛ وخزانة غريبة للتوابل وانواع شتى من البهارات والشمع والعسل والسكر المكرر والحلويات المسكرة وزيت السمسم وزيت الزيتون ؛ وخزانة البنود التي ضمت الرايات والأعلام وساريات من الذهب والفضة ، وقد استخدمت ايضا كسجن للضباط وكبار رجال الدولة ؛ واخيرا دار الفطرة ، وكانت تعمل فيها الفطائر والحلوى .

وتمثل لنا القصور والأعمال الفنية البيئية المناسبة لحياة المرح واللامبالاة التي كانت سائدة في القاهرة . واننا لنعرف تفصيلا ترتيب الأعياد التي احتفل بها في الدولة الفاطمية ، ومنها اعياد كانت مجرد مناسبات لتوزيع الطعام والمال على الفقراء ، واقامة الموائد ، وتقديم المنح لموظفي الدولة . وكثيرا ما تلاحقت هذه الفرص للعطاء ؛ اذ بالإضافة الى احتفالات المسلمين السنين الذين اعترف بهم الفاطميون ، وجدت مهرجانات الشيعة ، واعياد المسيحيين ، وأيام اخرى للمرح الفتها وثبتتها التقاليد الشعبية للبلاد ، مثل المهرجانات الصاخبة لوفاء النيل

(١) انظر الخطط ١ : ٤٠٨ وما بعدها .

لم يكن الفاطميون أول من كرم الأعياد المسيحية بحضورهم . ومع ذلك ، فإن الرعاية التي حظي بها المسيحيون ، باستثناء بعض الحالات النادرة ، نمت بوصول الفاطميين . ولا ينبغي أن ننسى أن التجارة والزراعة كانا أكثرها في أيدي المسيحيين . ونستطيع أن ندرك أيضا أن العقائد الاسماعيلية التي روج لها في مصر نفرت كثيرين من جماهير المسلمين . واتباعا لسياسة حفظ التوازن ، حاول وزراء الفاطميين بطبيعة الحال أن يكتسبوا من المسيحيين التأييد الذي فقدوه عند غيرهم . ويجب أن نضيف أخيرا ، أن كثيرا من المناصب الإدارية كان يشغلها مسيحيون . وفيما يتعلق ببعض النفقات العامة في هذا المجال ، فقد ورد مثلا في ميزانية سنة ١١٢٣ م . الأبواب الآتية : نفقات الأعياد الإسلامية والمحلية ، ونفقات حاشية القصر ، ونفقات استقبالات السفراء ، ومنح الشعراء . ولدينا في الواقع معلومات تفصيلية عن احتفالات هذه الفترة من القرن الثاني عشر الميلادي ، وما تضمنته من ولاء سخي في القصر ومنح من الخليفة .

وحسب التقاليد المرعية ، كان السلطان يقدم احتفالين في كل سنة ، وذلك في الأعياد العامة . وكان يدعو اليهما كبار الموظفين والشعب . وكان يحضر الموائد التي يدعو إليها رجال القصر ، أما موائد الشعب ، فكانت تقام في المباني العامة . وكانت مطابخ السلطان الخاصة موجودة خارج القصر ، وكان يعمل بها دائما خمسون خادما . ويصل القصر بالمطابخ ممر تحت الأرض . وهناك خبر طريف آخر وهو : أن أربعة عشر جملا كانت تحمل الجليد كل يوم من لبنان إلى مخازن الأطعمة في قصر الخليفة . وكان لكبار الضباط والأعيان نصيب معين من هذا الجليد . وكان بعضه يعطى إلى أهل المدينة عند الطلب لعلاج المرضى .

إن هؤلاء الحكام ، الذين كان لهم ولع شديد بالاستعراضات ومظاهر الأبهة ، لم يعد أحد يذكرهم برغبتهم المحمومة في أن يسودوا العالم . ولكنهم كانوا بناء حضارة رفيعة . ونظرا لحبهم للبذخ في شتى مظاهره - في المباني التي خلفوها لنا ، والأعمال الفنية التي أحاطوا بها أنفسهم ، والأقمشة الفخمة للابسهم ورياش قصورهم ، أظهر خلفاء مصر أنهم قوم ذوو طبع رقيقة وعقول نبيلة خلقة .

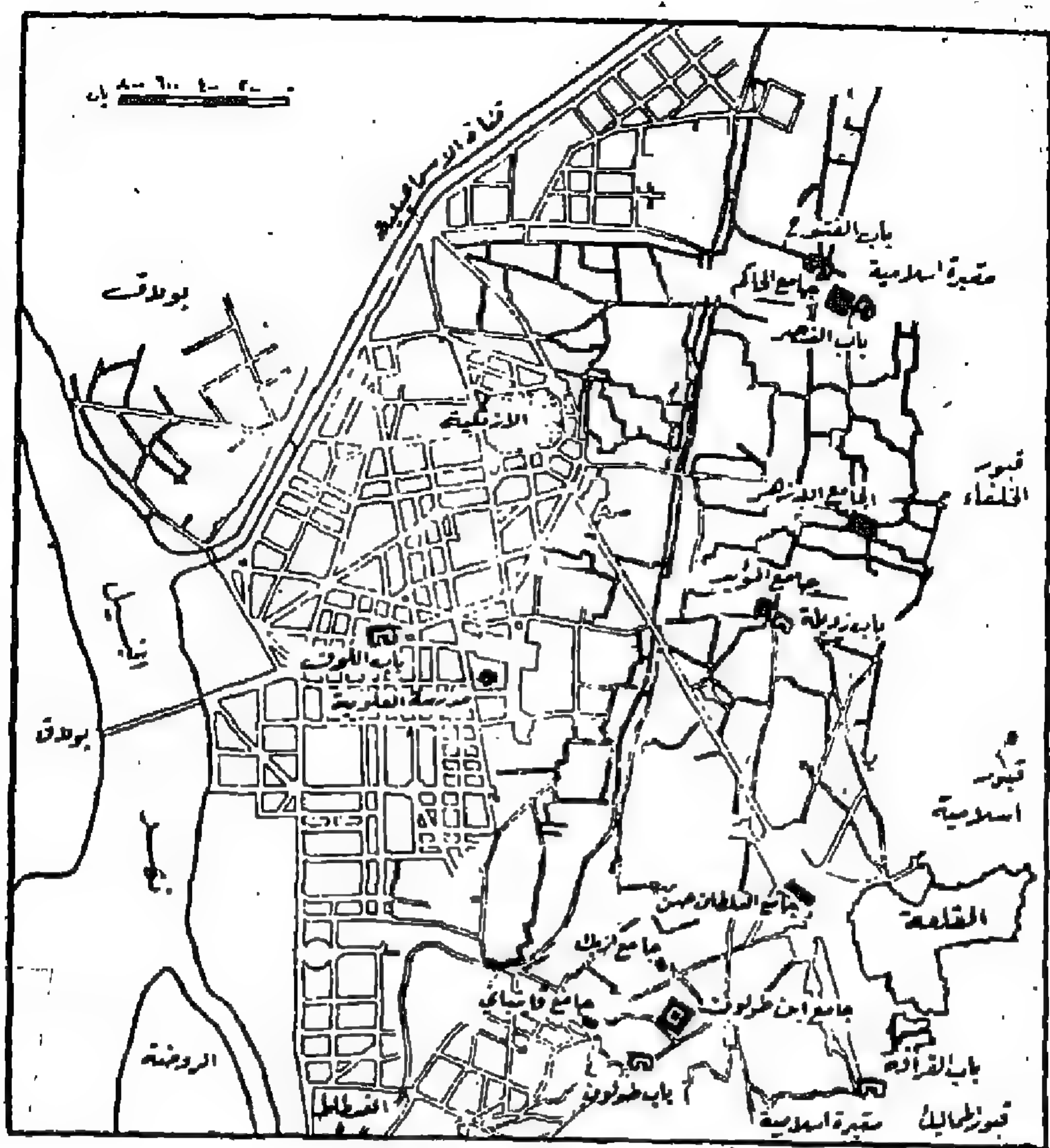
كان للقاهرة في أول أمرها سور من اللبن . وقد ظل الأمر كذلك حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اقام الوزير بدر الجمالى مكان السور الهزيل أسوارا قوية متينة من الحجر . وتقوم هذه الأسوار دليلا على استخدام فن معمارى متقن يختلف تماما عن فن بناء المساجد السابقة . والأبواب الضخمة الثلاثة التى بقيت حتى اليوم ، باب زويلة فى الجنوب وباب النصر وباب الفتوح فى الشمال ، قام بينها - ان نحن صدقنا ما يقوله الكتاب العرب - اخوة ثلاثة جاؤوا من شمال العراق . - وهى تشبه البوابات الرومانية ، وخاصة منها باب النصر ، بمربعاتها الظاهرة من الحجر الرائع ، وبنائها ، وحلية اسفل الأفريز فيها . وكان يحد الأسوار من ناحية الغرب طريق مزدوج لدورة الحراس : اما الداخل ، فكان مسقوفا ومزودا بفتحات جانبية واسعة ليقوم الحراس بالمراقبة ورمى السهام منها . وفى هذه الأسوار هناك عقود نصف دائرية ومعقودة ومصلبة واقبية ذات دعائم . وأما الفتحات التى فى أعلاها ، فهى تنتهى بقطعة حجرية منحوتة نحتا جميلا على شكل مخروط ناقص . وفى الطابق الأول الذى يعلو قسمى الباب ، توجد غرفة لرماة السهام مزودة بفتحات .

ولقد اعجب كثيرا رحالة القرون الماضية بهذه الاعمال العظيمة . وقد وصف احدهم باب الفتوح بقوله انه :

لم يسبق له ان رأى شيئا بهذا الجمال وبهذا القدم وبهذا الكمال . ويزين الباب اساسا برجان ، ليسا تامى الاستدارة ، وانما هما اقرب الى الشكل البيضاوى . وقد بلغ اتقان الصناعة فيهما الى درجة انهما يبدوان وكأنهما مصنوعان من قطعة واحدة من الحجر .

ولكن اصوات هذه الأسوار ظلت صامتة ، فلم يعلن احد قط ممن وقفوا يراقبون خلف الفتحات اقتراب العدو ، ولم تستخدم قط بواباتها الانزلاقية ، ولا صب الزيت المغلى والرصاص المصهور على رؤوس المهاجمين ، ولا أرهبت الأسوار الفقراء الذين بنوا اكواخهم منذ زمن مبكر على جانب الأسوار .

ولم يبق من المدينة الفاطمية بأسرها سوى بقايا الطريق الرئيسى الذى يمتد من الشمال الى الجنوب ، وعدد من الأزقة ، ومعالم رائعة مثل الجامع الأزهر والمسجد الأقمر ومسجد الخليفة الحاكم .



القائمة : التواضع والأجبية الرئيسة

ويعتبر الجامع الأزهر أروع أمجاد الدولة الفاطمية ، وقد ظل (إلى زمن قريب) في شبه عزلة عن العالم ، موليا ظهره نحو حقائق الحياة اليومية . وهو أشبه بخلية نحل من العمل والورع معا . وحيث أنه قد تم توسيع البناء بمرور الزمن ، فقد أصبح بمثابة متحف للعمارة والزخرفة الإسلامية . وهو يضم عددا ضخما من العقود والأعمدة من شتى الأساليب المتباينة . وما كان باستطاعة مؤسسه أن يتوقع الإضافات الضخمة التي أفسدت الخطة الأصلية المعدة له وأخلت بوحدة الأسلوب . ولهذا أصبح البناء معقدا ، ويجب أخذه على هذا الأساس . وقد قدر له أن يكون مدرسة

دينية ومعهدا عظيما . وهو نتيجة لجهود مجتمعة لعدد من الأجيال من الأمراء الذين سعوا الى توسيعه واثرائه معا .

والجامع الأزهر ، في الأصل ، من نوع المسجد التقليدي ذي الأروقة . وأهم تعديل أدخل على البناء مستورد من شمال افريقية ، وهو زيادة عرض الصحن الرئيسى للمسجد ، بحيث أصبح أشبه بطريق لاحتفال رسمى . وقد اعتقد بعض الدارسين ان هذا الطراز مشتق من خطة المعبد لشعب بدوى ؛ ولكن هناك تفسيراً أفضل . ذلك ان التصميم يتفق وعقيدة بسيطة وعبادة خالية من التعقيد . وتواجهنا هذه النقطة بصورة أوضح في مصر ، حيث كانت المعابد القديمة فيما مضى تشتمل على قدس الاقداس في مكان معتم غامض ، لا يسمح لأحد ، الا الملوك والخاصة من رجال الدين ، ان يدخلوه أو أن يتأملوا في جلال الاله فيه . وان بعض العقود التى تتكون في الغابات الغربية الرائعة تذكرنا بالافنية الهائلة في الكاتدرائية ؛ وبالطريقة نفسها ، نلاحظ رابطة شبه بين الانطباع العام لمسجد ملء بالاعمدة وغطوة من النخيل ، التى احيانا ما تكون متسقة التنظيم الى حد بعيد . ومثل المسجد ، فإن غوطه النخيل « غابة خالية من الغموض ، كما ان صرامة سيقان النخيل الجامدة تنتشر في الرحب ، دون أن تخفى معالمه » . وهناك وجه آخر يطالعنا للمقارنة بين الكنيسة والمسجد . فالكنيسة تصعد للسماء بيناتها وابراجها وابراج اجراسها . ولقد رأى ميشليه ان الدعامات الطائرة أشبه بعصى تساعد الكنيسة في صعودها . والمسجد ينتشر ثابتا على الأرض ، مثل رمز للسكينة والايمان والشجاعة المطمئنة ، ويعوزه ذلك المشهد من الخضوع والامل الذى تمثله الكنيسة .

واقام الفاطميون ايضا مسجدا جديدا ، بمثابة تحية وتذكار ، فوق القبور الحقيقية أو المزعومة لكبار العلويين الذين يستحقون تكريما خاصا . وقد أثروا اظهار اجلالهم للعقيدة التى ضحى لها شهداء العلويين . وهكذا انتشر تقديس الأولياء بسرعة فائقة . ولم يقتصر الأمر على ائمة اهل الورع من عصور الاسلام الذهبية ، بل شمل ايضا انبياء العهد القديم . ولدينا من العصر التالى مباشرة كتب لارشاد الحجاج تحتوى على قوائم دقيقة باسماء الأولياء الصالحين . واحضر الى القاهرة رأس الحسين بن على ، شهيد كربلاء ، وكذلك رأس زين العابدين . ويورد

ابن جبير (١) سجلاً بالاضرحة التي كانت تزار في زمانه . وبالرغم من ازدهار المذهب السني ، فقد ظلت الاضرحة الشيعية هدفاً للتقديس الشعبي . وهكذا ، فمدينة القاهرة مدينة بأكثر أوليائها لحكومة شيعية . ورغم اننا نعجب بحضارة الفاطميين ، فلا ينبغي ان نخدعنا المباني والأعمال الفنية التي لقيت منهم رعاية مؤكدة . وانه للزام علينا ان نقوم بدراسة للحياة الأدبية والعلمية ، وان نقدم وصفا حضاريا مركزا للعالم الاسلامي . ففي الشق الشرقي من الدولة الاسلامية ، في ظل الدولة السامانية ، ازدهرت حلقة من الكتاب ، منهم الرودكي والبلعمي المؤرخ ، الذين يصفون بريقاً على اللغة الفارسية لأول مرة . وبسطت دولة بني حمدان بحلب حمايتها على الفارابي الفيلسوف والمتنبي الشاعر ومنافسة ابي فراس . وفي فارس . كتب الهمداني والحريري مقاماتهما الشهيرة ، وهي اقاصيص مليئة بالموارد الشعبية الطريفة ، بينما ارتفع في سورية صوت الشاعر الضرير ابي العلاء المعري بالتشاؤم واليأس . ولا ينبغي ان ننسى انه ساد في القرن الحادي عشر عمالقة الأدب من أمثال الفردوسي ، مبدع الملحمة الفارسية ، وابن سينا ، والبيروني ، وهم اكبر علماء عصرهم ، ولقد اختفت الدولة الفاطمية في سنة ١١٧١ م دون ان تقدم ~~سابقة ذات قيمة في مجال الأدب والعلم . فلم تنتج منافسا للغزالي وعمر~~ الخيام في الشرق ، أو لأبن زهر وابن رشد في المغرب ~~والإندلس في الغرب~~ . وفي القرون السابقة ، كان خيرة علماء اللغة العربية في العراق قد استطاعوا ان يجمعوا تراث حكمة الاقدمين عن طريق ترجمة كتبهم المناسبة . وفي الوقت الذي استولى فيه الفاطميون على حكم مصر ، كانت الجهود الكبرى للمترجمين قد انتهت ، واكتمل قاموس المصطلحات العلمية . ولهذا ، اتجه اهتمامهم الى ان يجعلوا من عاصمة مصر ، التي أصبحت منافسا سياسيا لبغداد وقرطبة ، مركزاً حضارياً يفوق في ظنهم العواصم السابقة . ولنتظر الآن كيف نفذوا خططهم .

فاين كلس - وهو يهودي اعتنق الاسلام واطهر تفاخره به - اسس حلقة للدراسات الدينية العليا في الجامع الأزهر سنة ٩٨٨ م . وما لبث ان عين للتدريس فيه خمسة وثلاثون استاذاً للشرعية .

(١) رحلة ابن جبير : ٢١ - ٢٥ (ط . بيروت)

واتخذ الأزهر من معاهد العراق مثالا يحتذى به ، ما عدا في العقيدة التي ظلت شيعية ؛ واصبح جامعة تدرس فيها ، بالإضافة الى العلوم الاسلامية المحضة ، الدراسات المتوارثة عن العالم القديم مثل الرياضيات والفلك والمساحة والعلوم الطبيعية والأحياء والطب والنحو والشعر والفنون وفروع الفلسفة المختلفة .

واصبح البحث العلمي ممكنا بفضل مكتبة أقامها الخلفاء في القصر الكبير . وكانت هذه المكتبة تتكون من أربعين غرفة مشتملة على عدد هائل من الكتب في شتى فروع المعرفة . وكانت اكبر مكتبة في العالم الاسلامي ، ويمكن اعتبارها احدى عجائب الدنيا . واشتملت المكتبة على عدد كبير من الخزائن ، صفت حول كل غرفة ، ويفصل بينها حواجز ، وفي كل منها باب متين يقفل بأقفال ومزالق . وكانت تضم مائة الف جزء مجلد او مخطوط في الشريعة حسب المذاهب المختلفة ، ومجموعات في الحديث ، ودراسات في النحو والفلك والكيمياء ؛ بالإضافة الى الحوليات ، وسير عدد كبير من الأمراء . وكانت هناك عدة نسخ من كل كتاب . وكانت ملصقة بباب كل خزانة ورقة مسجل عليها اسماء المخطوطات الموجودة بداخلها .

وحفظت نسخ من القرآن في غرفة خاصة ، وكانت تنسخ باليد بواسطة النساخ المشهورين . وكانت المجموعة تتكون من ٢٤٠٠ نسخة في غاية الجمال ، محلاة بالذهب والفضة وزخارف اخرى .

وقد اختفت هذه المجموعة الثمينة بطريقة تبعث على الأسى . اذ بيعت المخطوطات الجميلة حتى يمكن دفع رواتب الجند ، وما تبقى بعد ذلك من كتب عند سقوط الدولة بيع بالمرزاد العلني وتبعثر .

الى جانب هذا العمل العلمي المحض ، عقد الفاطميون حلقة للدراسات الدينية في احدى حجرات القصر . فكان المذهب الشيعي هو موضوع الدرس ، كما نعتقد ان حضور هذه الدراسات كان اجباريا لجماعات معينة من الأفراد . وكذلك عقدت حلقات خاصة للنساء .

ويورد لنا مؤرخ عربي ^(١) معلومات تفصيلية في هذا المجال اذ يقول : وفي يوم السبت هذا - يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة (الموافق ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٠٠٥) ، فتحت

(١) الخطط (١) ٤٥٨ .

الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور . ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ؛ وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون واصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع ابوابها وتمراتها الستور ، واقام قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن امير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك . وابعاح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها .. وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم . وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وفي سنة ثلاث واربعمائة (الموافقة ١٠١٣ ميلادية) ، احضر جماعة من دار العلم من اهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء ، وجماعة من الأطباء ، الى حضرة الحاكم بأمر الله . وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه . ثم خلع على الجميع ووصلهم .

وكما سبق ان رأينا لم يظهر بين الشعراء أو الكتاب شخصية كبرى ذات مكانة أدبية عالية . ولا ينبغي أن ننخدع بـ « الأدباء والعلماء والشعراء العديدين الذين كان يرعاهم الخليفة » ، ممن يتحدث عنهم ناصر خسرو . وقد لقبت العلوم رعاية خاصة ، لأن كثيراً من العلماء الممتازين يمثلون مصر في تلك النهضة العلمية التي شارك فيها - في منافسة حادة - جميع عواصم العالم الاسلامي .

فابن يونس واحد من أعظم الفلكيين الذين كتبوا باللغة العربية . وكان المرصد الواقع على التل المشرف على مدينة القاهرة هو المكان الذي قام فيه بأبحاثه ، التي سجل نتائجها في « الجداول الحاكمة » ، وقد اهداها للخليفة الحاكم وهو أول من اكتشف نظرية في حساب المثلثات الكروية ، كانت ذات نفع كبير للفلكيين قبل اكتشاف علم اللوجاريتمات . ذلك ان نظريته تستخدم الجمع بدلاً من عملية الضرب المعقدة لوظائف حساب المثلثات التي تحسب بكسر الستين . واطهر مقدرة باللغة في حل عدد من

المشكلات في الفلك الكونى باستخدام البروز القائم الزوايا الواقع عند الأفق من القبة السماوية وعند خطوط الطول .

وكذلك ابن الهيثم ، الذى عرف فى أوروبا فى العصور الوسطى باسم Alhazen ، والذى عاش فى الفترة ذاتها ، كان عالما من الطبقة الأولى فى تاريخ العلم . ولا يعدل وفرة إنتاجه سوى تعدد مجالات معرفته ، فقد كتب فى الموازين ، وتكوين العالم ، وبعد المجرة ، وقوس قزح ، وتحديد القبلة ، والف فى الموسيقى ، والمرايا المحدبة والمقعرة ، وضوء الشمس ، والمربعات السحرية . وكان قد استقدم من العراق الى مصر لحل مشكلة علمية ، ولكنه اخفق فى حلها ، وهى تتعلق باستخدام مياه النيل لأغراض الري دون التأثير بمنسوب الماء . وفى الواقع ، كان من الضرورى ، من اجل تحقيق ذلك . ان يقوم بالتطبيق العلمى للعلم فى مصر ، وان يقوم بدراسات حول الآلات الرافعة . ولكن اكثر اعمال ابن الهيثم اصالة هى « رسالة فى البصريات » ، التى ملأت بظهورها ثغرة فى العلم عند العرب . وكانت هناك ترجمة لكتاب اقليدس عن البصريات ، الذى قام بشرحه الفيلسوف الكندى . وما من شك انه كان لرسالة ابن الهيثم فى « البصريات » تأثير حاسم على علماء الطبيعة من الأوروبيين . ففى هذا الكتاب نجد لأول مرة وصفا لآلة التصوير camera obscura .

أما عمار بن على ، فهو اكثر اطباء العيون اصالة بين العرب ، وقد استقر فى مصر بعد ان تنقل طويلا فى الشرق . وقد اهدى الى الحاكم كتابه فى امراض العيون . ورغم انه لم يخترع طريقة الازالة فى عمليات ماء العين cataract . الا انه وصل بطريقة الامتصاص حد الكمال ، وقد استخدم فيها ابرة مجوفة . ولكن هذه الطريقة اعتبرت خطيرة وضعيفة المفعول . وقد خلف لنا ابن رضوان - طبيب الخليفة الحاكم - كتابا غريبا عن علم المناخ . وهو معروف بصفة خاصة بسبب اختلافه مع زميله المسيحى ابن بطلان من شمال سورية (١) . ويدور الخلاف بينهما حول درجة حرارة

(١) خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى (جامعة القاهرة . ١٩٣٧) : الرسالة الأولى فى إن الفرخ احر من الفروج ، ونقدها : ٢٤ وما بعدها . الرسالة الثانية فى ان المتعلم من افواه الرجال افضل واسهل من المتعلم من الصحف إذا ما كان قبولهما واحدا ، وهى لابن بطلان : ٥٠ وما بعدها .

الفرخ والفروج وايهما احر . ولكن الجدل ازداد جدية حين بدأ العالمان في استخدام التهكم ، بدافع الاعتزاز بمكانتهما - كما يحدث غالبا في مثل هذه الحالات . فأكد ابن بطلان ضرورة تلقي العلم على استاذ في اعداد الاطباء ، في حين رأى ابن رضوان العصامي انه يمكن اكتساب المعرفة اللازمة كلها من الكتب . وقد حافظ كل منهما على فكرة التقدم العلمي التي حدد معالمها في القرن السابق الفيلسوف والطبيب الرازي . وان هذين العالمين اللذين يمثلان الاتجاه للاخذ بالمناقشات الحرة في العالم العربي يستحقان منا كل تشريف : اذ سرعان ما قيدت المدرسة - وهي المدرسة الدينية والوحيدة - الفكر الاسلامي بمستوى اقل من ذلك بكثير . تلك كانت في الشرق الادنى اخر طفرة في الدراسات الفلسفية والعلمية بصفة اخص ، وفي رصد الظواهر الطبيعية والحركات الأرضية ، تحت تأثير الفكر الشيعي .

* * *

اضرت سنوات القحط السبع من حكم المستنصر بالفسطاط اكثر من القاهرة . فقدت المدينة الأولى سكانها ، وسرعان ما اصاب الخراب بيوتها . وما من شك ان القاهرة قد اصبحت ايضا وهجر بعض احيائها . واصبحت الفسطاط خرابا مهجورا تتداعى وراء جدرانها . وكم من رجل مات بغير وريث . ولذلك أمر الوزير بدر الجمالي ، ذو السطوة والسلطان حينذاك ، بأن يقوم القادرون بالبناء في القاهرة او في جنوبها مباشرة ، والزّم هؤلاء بأن يستخدموا حجارة ومواد اخذت من بقايا الفسطاط . وقد نفذت هذه النصيحة أو بالأحرى هذا الأمر ، واستخدم كثيرون تلك المواد لبناء بيوتهم في القاهرة .

وبعد ذلك ، في عهد الخليفة الأمر بالله ، اقيمت مبان كثيرة بين القاهرة والفسطاط . فكان موظفو الحكومة يعودون الى منازلهم من العمل في القاهرة الى مصر القديمة خلال شوارع مكتظة تضيئها المصابيح . وقد جدد الوزير المأمون الأمر بمنع الملاك في هذه المنطقة من البناء . أو بيع أراضيهم لأفراد يلزمون بالبناء ، الا اذا استخدموا هذه المواد المتخلفة من المباني القديمة . وكانت الدولة ، في حالة عصيان الأمر ، تصدر الأرض من ملاكها . وقد أدى ذلك الى بيع نوع من الرخاء في المنطقة الواقعة بين باب زويلة وضريح السيدة نفيسة .

وبالإضافة الى ذلك ، فقد أدت إعادة تكوين فرق الجيش التى قام بها بدر الجمالى الى ازمة فى الاسكان ، ولم تمكن اقامة الوحدات الجديدة داخل حدود المدينة ذاتها . فبنيت لهم منازل خارج الأسوار تجاه الجنوب ، واقامت لهم اسواق تفى بحاجاتهم اليومية . ووجد فى هذه الاسواق تجار الأقمشة والعقاقير والقصابون . وكان ذلك شيئا جديدا . لأن ناصر خسرو كتب قبل ذلك بعدة سنين (١) « بين القاهرة والفسطاط تغطى المياه الوادى باجمعه .. عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع » . وكانت بركة الفيل لا تزال موجودة شرقى الترعة التى كانت تصب فيها عند فيضان النيل .

واصبحت هذه المنطقة باسرها عندئذ حيا واحدا كبيرا انتشروا وراء حدود المدينتين . ويقول ابن رضوان (٢) :
والمدينة الكبرى اليوم بارض مصر ذات اربعة اجزاء : الفسطاط والقاهرة والجيزة (الروضة) والجيزة ... والجبل المقطم فى شرقها وبين مقابر المدينة .. وأعظم اجزائها هو الفسطاط ، ويلى الفسطاط من الغرب النيل ، وعلى شط النيل الغربى اشجار طوال وقصار .. وازقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وابنيته عالية .

وينبغى ان نأخذ فى اعتبارنا جغرافية المكان عند وصف الفسطاط والقاهرة ، التى كان قد تم تشييدها حين كتب ابن حوقل ما يأتى (٣) :
والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها قسمين ، فيعدى من الفسطاط الى عدوة أولى ، فيها ابنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة (وكانت تسمى الروضة) ، ويعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة . ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثانى كالجسر الأول الى ابنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجزيرة . والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها فرسخ ، على غاية العمارة والخصب

(١) سفرنامه : ٥١ .

(٢) راجع نص ابن رضوان فى الخطط ١ : ٣٢٩ .

(٣) صورة الأرض لابن حوقل : ١٣٧ (ط . بيروت)

والطيبة واللذة ، ذات رجاى فى محالها واسواق ومتاجر فخام وممالك
جسام ، الى ظاهر انيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام
خضرة .

وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها محالهم كالكوفة
والبصرة ، الا انها اقل من ذلك فى وقتنا هذا وقد باد اكثرها بظاهر المعافر .
وهى سبخة الأرض غير نقيه التربة . والدار تكون بها طبقات سبع وست
 وخمس طبقات . وربما سكن فى الدار المائتان من الناس . . ومعظم بنيانهم
من الطوب واكثر سفل دورهم غير مسكون . .

وكان خارج مصر (الفسطاط) ابنية بناها احمد ابن طولون مساحتها
ميل فى مثله ، يسكنها جنده تعرف بالقطائع . . وقد خرجت فى وقتنا هذا . .
وقد استحدث المغاربة بظاهر مصر مدينة سميتها القاهرة . استحدثها
جوهر صاحب أهل المغرب عند دخوله الى مصر لجيشه وشمله وحاشيته .
وقد ضمت من المحال والاسواق وحوت من اسباب القنية والارتفاق
بالحمامات والفنادق الى قصور مشيدة ونعم عديدة . وقد احرق بها سور
منيع رفيع يزيد على ثلاثة اضعاف مابنى بها ، وهى خالية كأنها تركت
مجالا للسائمة عند حصول خوف . وبها ديوان مصر ومسجد جامع حسن
نظيف غزير القوام والمؤذنين . .

أما عند المقدسى (١) ، فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، فالفسطاط هو
مصر ، قد اتسع بقعته ، وكثر ناسه ، وتنصر اقليمه ، واشتهر اسمه وجل
قدره ، فهو مصر مصر وناسخ بغداد . . حسن الاسواق والمعاش الى
حماماته المفتهى . . أهل من نيسابور ، واجل من البصرة ، واكبر من
دمشق . به اطعمة لطيفة ، وادامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة .
والفسطاط مدينة على النيل ممتدة ، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم ،
تجارته عجيبة معاشه مفيدة وأمواله كثيرة . . قامت به مناظر اللهو
والترسلىة .

والطبيب ابن رضوان (٢) نقد لاذع فيما يتعلق بالحالة الصحية فى
المدينة . منه قوله :

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى : ١٩٧ (ط. ليدن) .

(٢) راجع نص ابن رضوان فى الخطط ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ .

ومن شأن أهل الفسطاط ان يرموا ما يموت في دورهم من السناتير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس في شوارعهم وازقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء . ومن شأنهم ايضا أن يرموا في النيل الذى يشربون منه فضول صواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء . وفي خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط . وهو ايضا كثير الغبار لسخانة أرضها ، حتى انك ترى الهواء في ايام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب التنظيف في اليوم الواحد . واذا مر الانسان في حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع في وجهه ولحيته غبار كثير . ويعلوها في العشيات خاصة في ايام الصيف بخار كدر اسود واغبر ، سيما اذا كان الهواء سليما من الرياح .. الا أن أهل الفسطاط لهذه الحال ، وانسهم بها يعوق عنهم اكثر شرها .

ولعل من الحكمة ان نوازن بين هذه الملاحظة الفنية المضطربة وبين هذه النظرة الحماسية للرحالة الفارسى المعاصر ناصر خسر الذى سبق لنا أن درسنا اقواله (١) :

وتبدو مصر كأنها جبل ، حين ينظر اليها من بعيد . وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات .. وسمعت من تاجر ثقة ان بمصر دورا كثيرة فيها حجرات للاستغلال اى للايجار . وهناك اسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء لا يصل اليها وعلى الجانب الشمالى (لمسجد عمرو بن العاص) سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثله في اى بلد ، وفيه كل ما في العالم من طرائف . ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الصدف كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال .. ورأيت انياب الفيل ، احضرت من زنجبار .. كما احضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا ، له نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس . ويصنعون بمصر الخزف من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس

(١) سفرنامه : ٥٨ .

والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء ويبيعونها بالوزن .

ومدينة مصر ممتدة على شاطئ النيل الذي عليه القصور والمناظر الكثيرة ، إذا احتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاؤون من النيل ايضا . يحمله بعضهم على الابل وبعضهم على كتفه .. وتفرغ السلع من القوارب عند أبواب البقالين . وبسبب الازدحام في الشوارع ، يستحيل على دواب الحمل ان تنقل هذه البضائع . وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل ، كان عليها مدينة في وقت ما ، والجزيرة غربى المدينة .. وهى صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين ، كل منهما في اتساع جيحون ، ولكن اكثر هدوءا وبطئا في جريانه . وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة . ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر ، ويسمونه الجزيرة ، ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو بالمعابر ..

وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون .. ويعطى التجار في مصر ، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات ، الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف أو ورق ، حتى لا يحتاج المشتري ان يحمل معه وعاء . . . ويركب اهل السوق واصحاب الدكاكين الحمر المسترجة في ذهابهم وايابهم من البيوت الى السوق . وفي كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها براذع مزينة ، يركبها من يريد نظير اجر زهيد . وقيل انه يوجد خمسون الف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى . ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر ؛ فلا يركبها التجار أو القرويون أو اصحاب الحرف ، ويركبها العلماء .

... ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس ، فأنى لا استطيع أن احدد أموالهم أو أحصرها . وأخيرا ، يدل كتاب الادريسي الجغرافى (١) - الذى كتب في منتصف القرن التالى - ان تأسيس القاهرة لم يؤثر في ازدهار الفسطاط ؛ بل لعل العكس هو الصحيح :

(١) المغرب وارض السودان ومصر والاندلس للادريسي ١٤٢ - ١٤٣ (ط. لندن)

وهى الآن مدينة كبيرة على غاية من العماراة والخصب والطيب
والحسن : فسيحة الطرقات . متقنة البناءات . قائمة الأسواق ، نافقة
التجارات . متصلة العمارات . نامية الزراعات . لأهلها هم سامية ،
ونفوس تقية عالية ، وأموال مبسوطة نامية . وامتعة رائقة . لا تشغل
نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم . لكثرة امنهم ، ورفاهة عيشهم ،
وانبساط العدل والحماية فيهم .. ومصر بالجملة عامرة بالناس . نافعة
بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس . وفي أهلها رفاهة وظرف شامل
وحلاوة .

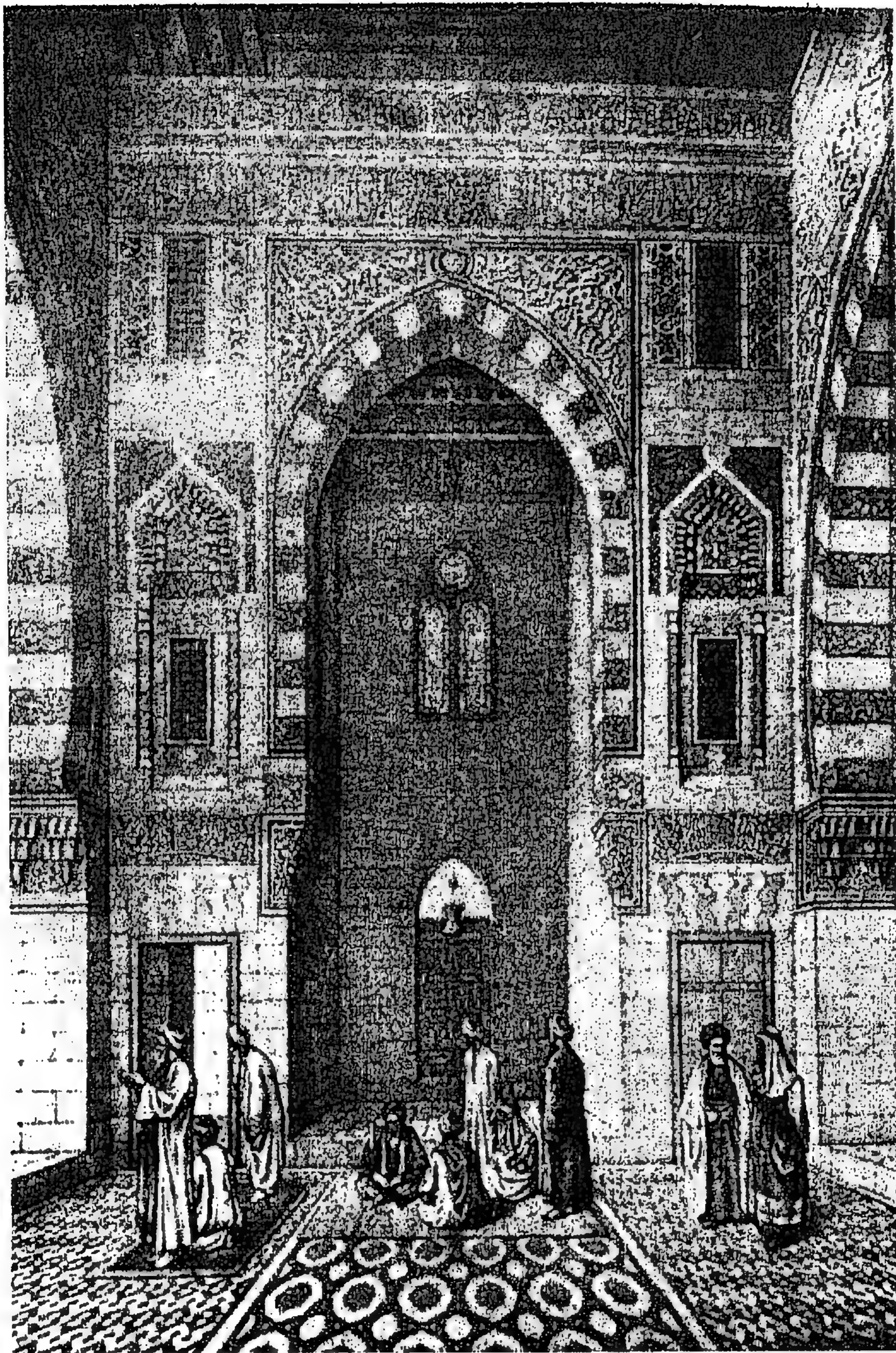
ولكن اصاب المدينة خراب شديد لبعض الوقت على يدى الوزير الفاطمى
شاور فى سنة ١١٦٨ ، حين حاصرتها جيوش الفرنجة . فاراد ان يجمع
قواته للدفاع عن القاهرة (١) :

فنادى شاور بمصر ان لا يقيم بها أحد ، وازعج الناس فى النقلة منها ،
فتركوا أموالهم وأثقالهم . ونجوا بأنفسهم وأولادهم . وقد ماج الناس
واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر ، لا يعيا والد بوالده ،
ولا يلتفت اخ الى أخيه ، وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر
دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا . ونزلوا بالقاهرة فى المساجد
والحمامات والأزقة وعلى الطرقات . فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم ،
وقد سلبوا سائر أموالهم ، وينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف ..
وبعث شاور الى مصر بعشرين ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل نار ،
فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء ، فصار منظرا
مهولا . فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر ... لتمام أربعة وخمسين
يوما ، والنهاية من العبيد ورجال الاسطول وغيرهم بهذه المنازل فى طلب
الخبايا ... فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن
كيما ن مصر .

□ □ □

(١) الخطط ١ : ٣٣٨ - ٣٣٩ .





أخذ صلاح الدين يبحث عن مكان حصين لأقامته بعد أن
قضى على دولة الفاطميين . ويقال أن السبب الذي دعاه إلى
اختيار مكان القلعة ، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم
وليلة ، فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير
إلا بعد يومين وليلتين .

ولذلك أمر ببناء قلعة على بروز في جبل المقطم ، يكون ما يشبه شبة
الجزيرة . ودمرت المساجد والقبور الموجودة في المنطقة ، كما هدمت
الأهرام الصغيرة في الجزيرة ، ونعرف أنها كانت كثيرة العدد . ونقل
ما تخلف عنها من حجارة ، واستخدم في بناء قلعة القاهرة ، وكان السلطان
يهدف إلى بناء سور واحد يضم القاهرة والفسطاط والقلعة ، ولكنه توفي
قبل اتمام السور والقلعة ، وابتدأ العمل في بناء القلعة سنة ١١٧٦ ،
(٥٧٢ هـ) ، وانتهى في سنة ١٢٠٧ م (٦١٤ هـ) ؛ أما السور ، فلم يتم
أبدا . وقد خلص المقرئ إلى الاعتقاد بأن السبب في بنائها أن
صلاح الدين لما أزال الدولة الفاطمية من مصر ، واستبد بالأمر ، لم يزل
يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر ، الذين كان يساندتهم
التنصارى ، فأحب أن يجعل لنفسه معقلا كما فعل أصحاب العسكر
والقطائع بالقاهرة ، وأنه أراد أن يترك مساكن من حكموا قبله ليؤسس
الدولة الجديدة في موقع يليق بها بعيدا عن أحياء السكنى ، وهذا شأن
الملوك ما زالوا يطمسبون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم . فقد هدموا
بذلك السبب أكثر المدن والحصون ، وكذلك كانوا أيام العجم في جاهلية
العرب ، وهم على ذلك في أيام الاسلام^(١) .

وبذلك يكون صلاح الدين قد غير في شخصية المدينة الفاطمية ، التي
كانت كحصن ، فجعلها مكانا يستطيع العامة وسائر السكان أن يبنوا
بيوتهم فيه . وقلل من حجم قصر الخليفة ، فهدم منه جزءا ، وحول جزءا
آخر إلى مساكن خاصة .

وما زالت القلعة شاهدا على عظمة عصر صلاح الدين ، رغم أن
السلطان لم يسكنها أبدا ، وهي تقدم دليلا ملموسا على شخصية فذة ،
ورجل سابق لزمانه وأرقى من معاصريه ، سواء في ذلك أخوانه في الدين
أو أعداؤه ، الذين رأوا فيه انسانا يغلب عليه الاعتدال وشعور الولاء ،

(١) معنى الفقرة في الخطط ٢ : ٢٠ و ١ : ٢٤٨ .

مبرأ تماماً من الأنانية والدوافع الشخصية - وبعبارة مختصرة - رجلاً
فذا .

و حين بنيت القلعة في القاهرة ، وقفت كتحد بلا فائدة أمام السكان
المسلمين ، الذين لم يشقوا عصا الطاعة في العاصمة ، أما في الريف ، فقد
وقعت بعض الاضطرابات حينما تعسفت معهم سلطات الضرائب .
وعلى أى حال ، فإن بناء القلعة يعتبر بمثابة وضع حد للماضى ، بل
فاصل حاد ، لأنها مثلت احتمال تغير في العادات وقلب للبناء الاجتماعى ،
فبحكم موقعها الظاهر فقط ، كانت القلعة تصدم الشعور العام على نحو
مثير للنفس . فظلت مراكز الحكومة محجوبة وراء الأسوار ، محمية ضد
الثورات الممكنة . وكان مبعث الخوف في أول الأمر شعب يرفض
الخضوع : ولكن بعد تكوين جيوش من المرتزقة ، ظهرت الرغبة في منعهم
من الاختلاط الشديد مع الأهالى . وسوف نرى أخيراً أنه في عصر سلاطين
المماليك ، أصبحت هناك حاجة الى حماية الفريق الحاكم ضد المنشقين
العديدين في أى وقت . وما أن بنيت القلعة ، حتى أخذت مدينة القاهرة في
التوسع عن طريق هدم جزء من أسوار الفاطميين ، أو كما حدث في المنطقة
الشمالية ، عن طريق بناء بيوت جديدة عليها .

كانت مدينة ابن طولون مسكناً للأمر : ويمكن إطلاق هذا التعبير ذاته
على القاهرة الفاطمية ، ولم يصبح لمصر عاصمة حقيقية إلا بوصول
صلاح الدين . فمجد القاهرة - دون التقليل من عمل الفاطميين - يبدأ من
عصر الأيوبيين . فالرحالة الأندلسى ابن جبير يعرف المدن ، ويعرف أن
بعضها لا يستحق اسم المدينة ، وقد صرح بذلك عند الحديث عن بلدة في
شمال العراق بهذه العبارة^(١) : « وأما المدينة ، فللبداوة بها اعتناء ،
وللحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصنها ، ولا دور انيقة البناء
تحسنها ، قد ضحيت في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها » .

ولذلك لم يخل قوله من شيء من الاعتزاز عندما وصف موقع بناء القلعة
في ذروة نشاطها سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) بهذه الكلمات^(٢) :

(١) رحلة ابن جبير : ٢١٩ (ط. بيروت) .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥ (ط. بيروت) ، و ٥١ (ط. أوروبا) .

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويمد سورہ حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنثه العظيمة ، كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدث بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا في الصخر . عجا من العجايب الباقية الآثار ، العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم .

وأبدى الطيب عبداللطيف البغدادي عجبته من مساكن الطبقة الوسطى في المدينة ، وأورد لنا بعض المعلومات القيمة بشأنها والتي يمكن أن تفسر ظاهرة أن الغرف الموجودة في طابق واحد لم تكن في مستوى واحد أبدا^(١) :

وإذا أرادوا بناء ربيع أو دار ملكية أو قيسارية ، استحضر المهندس وفوض إليه العمل . فيعمد الى العرصه ، وهى تل تراب أو نحوه ، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصه ، فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن . ثم يعمد الى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك . وأما ابنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغابة حتى انه قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة . ودورهم فيح ، وغالب سكناهم في الأعالي ، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا إلا وفيه باذاهنج وبازاهنجاتهم كبار واسعة ، للريح عليها تسلط ، ويحكمونها غاية الاحكام .

ومنذ العصر الأيوبي ، اتبعت مدينة القاهرة قواعد محددة فيما يتعلق بنموها الناتج عن الزيادة في عدد سكانها . فمن ناحية الجنوب ، نجد أن القاهرة تتجه نحو الاتصال بالفسطاط ، التي أصبحت العاصمة الجديدة

(١) (الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر لعبد اللطيف البغدادي : ٣٩ (ط. القاهرة)) (وانظر أيضا النص العربي والترجمة الانجليزية في كتاب

The Eastern Key, by Kamal Haffuth Zand, John A. and Ivy E. Videan, London, 1965, pp. 179 O 44 l ff and 1 O 44 r ff.

في حاجة اليها كميناء على النيل . أما ما بين المدينتين ، فستستمر الحدائق الجميلة حتى بداية القرن الرابع عشر ، ومن ناحية الغرب ، تنمو المدينة نحو ضفاف النيل وتتعدى الخليج بحيث أن جزيرة بولاق تصبح الواجهة الجديدة على النهر وتنافس الفسطاط كميناء تجارى ، وهكذا ، سوف لا يضر نمو القاهرة بمدينة الفسطاط القديمة ، أو يسبب اضمحلالها ، وانما سيغير وظيفتها .

وقد كتب ابن جبير في ذلك الوقت يقول^(١) :

وبمدينة مصر (الفسطاط) آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين (الفاطميين) ، وذلك سنة أربع وستين وخمس مائة (١٦٦٩ م) وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل . وهى مدينة كبيرة .

هذا هو ما ورد في وصف رحالة أندلسى في طريقه الى الحج ، وسوف نستمر الآن بإيراد وصف ذكره رحالة أندلسى أيضا ، هو ابن سعيد الذى يتميز وصفه بالحيوية والتعليقات اللاذعة ، فأول ما تلحظه عينه هو قذارة المدينة القديمة فيقول^(٢) :

ولا ينزل فيها مطر إلا في النادر ، وترابها ينتن الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر منه أرجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة إلا انها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة . وأضاف ابن سعيد^(٣) :

لما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط ، فسار معى اليها أحد أصحاب القرية ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها .

(١) رحلة ابن جبير : ٢٩ (ط. بيروت) ، و ٥٤ (ط. أوروبا) .

(٢) راجع رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب للمقرئ ٣ : ١٠٢ وما بعدها (ط. القاهرة ، ١٩٤٩) .

(٣) راجع الخطط ١ : ٣٦٦ : وراجع أيضا رحلة ابن سعيد فى نفح الطيب ٣ : ١٠٣ - ١٠٦ .

حمارا ، وأشار الى أن أركب حمارا آخر ، فأنتفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب ، فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البرزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت . وعندما استويت راكبا ، أشار المكارى الى الحمار ، فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني . ودنس ثيابي ، وعاينت ما كرهته ، وقلعة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهد ، وقلعة رفق المكارى ، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج .

فدفعت الى المكارى أجرته ، وقلت له : احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى . ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة . ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبانٍ مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف . فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال ، الى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا تقى به إلا مشاهدته ومقاساته ، الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش ، ثم دخلت اليه عايנת جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ، ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه ، وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم بجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا ، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع ، وفى زوايا العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ، إلا أن مع ذلك ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع أشبيلية ، مع زخرفته

والبستان الذى فى صحنه ؛ ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسننت ما أبصرته من خلق المتصدرين لأقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن ، وسألت عن مواد أرزاقهم ، فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاء والتعب .

ثم انفصلنا من هناك الى ساحة النيل ، قرأيت ساحلا كدر التربة ، غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ؛ إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا ، والنيل هناك ضيق ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر الى البر الغربى المعروف ببر الجزيرة جسر آخر من الجزيرة اليه ، وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز احد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا ، احتراما لموضع السلطان .

ولم أر فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط ، حتى أنهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ؛ والحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة ، واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ؛ والخراب بالفسطاط كثير .

وفي أماكن أخرى ، امتدح ابن سعيد القاهرة مدحا معتدلا ، فقال (١) :
وأما مدينة القاهرة ، فهي الحالية الباهرة ، التي تفتن فيها الفاطميون
وابدعوا في بنائها ، واتخذوها قطبا لخلافتهم ، ومركزا لأرجائها ، فنسى
الفسطاط ، وزهد فيه بعد الاغتياط .. هذه المدينة (القاهرة) اسمها أعظم
منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لكن
الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة .. وكان يجلس فيها
خلفاؤها ، ولهم على الخليج الذي بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة
جليلة الآثار .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن
هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ، ولو كانت
القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك
أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمر في ممر كدر خرج بين الدكاكين ،
إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخر
منه العيون ، ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو في
موكب جليل . وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع
الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان في موضع
الطباخين ، والدخان في وجه الوزير ، وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ،
وكدت أهلك في جملتهم ، وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب
والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء
والضوء بينها ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا في ذلك . ولقد
كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتدركني وحشة عظيمة ، حتى أخرج
إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها
عطشا لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج
الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي
خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدرا مما تثيره
الأرض من التراب الأسود .

(١) نفع الطيب ٣ : ١٠٨ - ١١٤ : والنص ليس متتابعاً دائماً .

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا ، وجوا مغبرا ،
فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه .

وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها
كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر
على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب .

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من
الفسطاط ، والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها
بالقرب منها . وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ،
والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجل
مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها ، لأنها
المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمر السلطنة كلها فيها
أيسر وأكثر .

إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة (الروضة)
التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة ، عظمت عمارة الفسطاط ،
وانتقل اليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها السلطان
أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة ، فنقل اليها من القاهرة سوق
الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

وفى جوار طبابخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن
فى الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة ، ومطابخ السكر والمواضع التى
يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .. ويصنع
فيها من الانطاع المستحسنة ما يسفر الى الشام وغيرها ، وفيها صناع
للقسى كثيرون متقدمون . ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من أنواع
الكمرانات وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك . وهى الآن عظيمة
أهلة ، ويجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط
بجملته وتفسيره إلا خالق الكل جل وعلا .

والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود
السماع والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب
اليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد
أو سكر من حشيشة وما أشبه ذلك . وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم

بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفةهم بمعاناة الحرب والبحر .

وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، قرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر في الليل .

* * *

أدى رد الفعل السني الذي قام به صلاح الدين إلى إيجاد معهد ديني جديد ، وهو المدرسة . وليس هناك من نص يشعرنا بمدى هذا الإصلاح خيرا من واحد من أقدم النقوش الأيوبية في القاهرة^(١) : بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين ركن الإسلام ، قدوة الأنام ، مفتي الفرق ، أبو البركات ابن الموفق الخبوشاني ، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعي رضوان الله عليه ، الموصوفين بالأصولية الموحدة الأشعرية على الحشوية وغيرهم من المبتدعة وذلك في شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمس مائة . وقد الصقت بالعقائد الدينية للنظام السابق الفاطمي أقصى النعوت فاعتبرت بدعا ، وكل بدعة في الإسلام ضلالة ، ويظهر النقش أهمية واحد من أئمة المذاهب السنية الأربعة ، وهو الإمام الشافعي الذي لا يزال مذهبه شائعا في مصر ، ولم يدخر صلاح الدين جهدا في بناء ضريح للشافعي ؛ وما زلنا اليوم نعجب بروعة الشاهد الخشبي الذي بناه . ويرى ابن جبير^(٢) في ضريح الشافعي أنه « من المشاهد العظيمة احتفالا

(١) Chronologique d'Epiraphie Arabe. par Combe & J. Sauvaget & G. Wiet. Repertoire Tome Neuvieme N. 3339 Le Imprimerie de L'Institut Feancais Archeologue Orientale, 1937.

(٢) رحلة ابن جبير : ٢٢ (ط. بيروت) .

واتساعاً ، وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها . لا أوسع مساحة ولا أحفل ببناء ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل بذاته .
أما الأشعرى - آخر شخصية مذكورة في النقش - فهو العالم العراقي الكبير الذى أسس مذهباً عقائدياً في الاسلام ، وكانت المدرسة احدى وسائل الحركة التى ابتدأها . وقد استخدم الأشعرى المنطق الأرسطى في صياغة العقيدة في الاسلام ، ولكن يجب أن نتنبه الى أن موقفه - كما هو الحال بالنسبة لموقف السنة في الاسلام من بعده - يمكن اجماله في هذه الكلمات : « الله ينبه عقل الانسان ليدركه ، ولكن العقل أداة للادراك فقط لا للحكم على الله »^(١). واتبع أهل الورع الأشعرى ، وعجلت أعماله باضمحلال الحياة الفكرية في الاسلام . فإن تزمته الدينى لابد وأن يكبل الفكر ، كما فرضت أفكاره كتحاليم لا تقبل المناقشة .

لعل قيام المدرسة الدينية كان أمراً ضرورياً بالنسبة لمستقبل الاسلام ، في وقت تهددت عقيدته الانقسامات والهرطقة ، وتهددت ممتلكاته هجمات الصليبيين ، وقد نتج عنها على أى حال ضعف سريع في نوعية التعليم ، وصالح الدين هو الذى أخذ المدرسة الى مصر : ونظراً لسيطرة الدولة على نظام التعليم فيها ، توقفت الانقسامات الدينية والفلسفية ، كما توقف تمجيد تراث القدماء الذى شجع عليه الفاطميون ، واستطاعت البرامج الجديدة المستمدة من الفكر السننى أن تثبت السنة نهائياً . ولكن رجال هذه المدارس لم يكونوا في ورع رجال صدر الاسلام الذين علموا الدين بدافع من التقوى وشرف العمل . فنحن نجد الآن موظفين يقدمون دروساً مألوفة لتلاميذهم بدورهم حريصون على الحصول على الشهادة حتى يمكنهم أن يعملوا في خدمة الدولة .

ويبدو أن البداية كانت مثيرة - حسب قول ابن جبير - الذى كان من المتحمسين للمعاهد التى أسسها صلاح الدين^(٢) حيث انه يقول :

(١) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٠١ - ١٠٢ (ط. القاهرة ١٩٦١) : وراجع تاريخ الفلسفة في الاسلام لدى بور : ١١٨ (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريده) .

(٢) رحلة ابن جبير : ١٥ - ١٦ (ط. بيروت) .

المدارس والمحارس الموضوعات لأهل الطب والتعب ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء يقوم به فى جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان فى كل يوم بالغاما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم الى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة .

هذه هى الأوصاف الشيقة التى يوردها اثنان من الرحالة الأندلسيين وهما ابن جبير وابن سعيد : ويجب أن نضم اليهما الطبيب العراقى عبداللطيف ، وهو عالم كبير عاش سنين طويلة فى سورية ومصر ، حيث اتصل بابن ميمون . ولدينا وصفه لمصر ، الذى يظهر فيه معرفة عميقة بالتاريخ الطبيعى ، فقد أتاحت له الفرصة فى القاهرة أن يفحص بعض الموميات المحنطة ، ويذكر ملاحظاته الشخصية بكل فخر قائلا^(١) :

« فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيد من الكتب . والحس أقوى دليلا من السمع » .

لا ينبغي أن نعلق أهمية كبيرة على العلاقة بين الامبراطور فريدريك الثانى مع علماء الشرق ، ولكنها إذا لم تؤد الى تقدم المعرفة ، فإنها تقوم دليلا على توفر الرغبة على الاتصال ، واعتراف الغرب بتفوق الشرق ، فنحن نعرف أن فريدريك - مدفوعا بولعه بالفلسفة والرياضيات والفلك - كان قد سأل السلطان الملك الكامل أن يجيب على أسئلة شغلت الامبراطور ، وقد وصلت اليها عن هذا السبيل أسماء عدد من العلماء ؛ ومما يبعث على العجب أن بعضهم كان من رجال الشريعة ؛ ولكن ليس هناك ذكر

(١) الافادة والاعتبار : ٢٧٣ - ٢٧٥ : (٦٨) (ط. لندن) .

إلا لعلمهم الوفير ، ولعله يمكننا أن نستثنى منهم القرافي ، الذى حل بعض مشكلات علم البصريات .

وننوه أخيرا بذكر الطبيب ابن النفيس الذى توفى فى القاهرة واشتهر بفضل دراسات حديثة على عمل لم يكتب له النجاح قام به على دورة التنفس ، ولكن أطباء الشرق حينئذ لم تكن لديهم الكفاءة اللازمة التى تمكنهم من الاستفادة منه .

وأخيرا ، فقد حظيت القاهرة بوجود الشاعر ابن الفارض فيها ، الذى أولع بالتغنى بالفناء فى الله ، ولقد كثر الكلام على نظرية الحلول عند ابن الفارض ، ولعلها « أقرب الى أن تكون نوعا من الشعور ، منها الى منهج فى التفكير » . وهو أول شاعر غنائى متصوف ، وقد ابتدع نوعا من الشعر ما لبث أن أصبح مثالا يحتذى . وترجع أصالته الى كتابته شعرا غامضا ، فسر على انه حب الهى ، بدلا من أن ينظر اليه على انه غزل رمزى ، وقد زاد ذلك من انتشاره ، وعلى أى حال ، فإن شعره يعرض علينا أجمل ما كتب من القصائد الصوفية ، ولغته صعبة ، ولعل ذلك راجع الى كثرة تشبيهاته الرمزية ، وجنوحه الى نوع من التائق فى الأسلوب ، والى إساءته استخدام الأساليب الشعرية .

□ □ □

٤

سلاطين الممالك

الحالة العامة ..
والحياة الاجتماعية





يمكننا أن نتخيل بسهولة مدى الدهشة التي تتمك رحالة
العصور الوسطى من الأوروبيين حين يقفون على قمة جبل
المقطم ، فقد ذكروا انه كان منظرا من أجمل مناظر الدنيا ،
وقد زاد من روعته عدد لا يحصى من القباب والمآذن ، التي
أضفت نوعا من التغير الجميل على المدينة التي تتشابه
سقفها المسطحة .

وقد كتب واحد من هؤلاء الرحالة يقول :
انى لأذكر مرة من المرات العديدة التي جلست فيها أكثر من ربع ساعة
على الصخرة خارج باب الحصن ، فإن مشاهدة القاهرة من مرتفع يعتبر من
أمتع المناظر ، ومصدر الامتاع هو كثرة المآذن البيضاء ، كل منها يتكون من
ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات ، وتبدو هذه المآذن وكأنها مضفرة
بالخضرة الجميلة التي تتحلى بها أشجار النخيل الكثيرة التي تنمو في
حدائق المدينة ، وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق والتباين الخلاب يسر
الناظرين ، ثم ان عظمة النهر الذي يتحول في فصل الفيضان الى بحيرة
لا يحيط بها الطرق ، وعديد الجزر التي تبعث الحياة والحركة في هذا
السهل الفضى . وروعة الجبال الشامخة التي تحد هذا المكان البهيج ، كل
هذه تضيف على هذا المنظر جلالة وتنوعا لا مثيل لهما .

وكان هناك ما يدعو الى الإعجاب فعلا بهذه العاصمة الضخمة ، التي
انتشرت في شكل نصف قمر من ضريح الامام الشافعى الى مقابر الخلفاء ،
وكانت المدينة في العصور الوسطى تتكون من أربعة مراكز متباينة أشد
التباين : القاهرة ، ونقصد بها المدينة الفاطمية ذاتها ، تحيط ببعض
أجزائها الأسوار التي كانت تختفى يوما بعد يوم وراء المباني المتسلقة
التي كانت تقام عليها ؛ ثم مصر القديمة ، في موقع الفسطاط القديمة ؛ ثم
بولاق ، وكانت فيما سبق جزيرة ثم تحولت الى جزء من القاهرة وميناء
تجارى لها على النيل ، وهناك أخيرا مداخن القرافة ، شمال القلعة
وجنوبها ، ويمكننا أن نضيف الى هذه بعض الضواحي مثل باب اللوق ،
وباب زويلة ، ومسجد ابن طولون .

القاهرة ومصر القديمة كانتا في الواقع شيئا واحدا ، إذ لم يكن هناك
فاصل بينهما ، سوى بعض مناطق غير مزروعة ولا مسكونة ومهجورة
بصفة عامة ، وفي بعض الأماكن ، كانت المسافة بين منازل القاهرة ومنازل

مصر القديمة لا تتجاوز مرمى القوس ، وفي أماكن أخرى ، زادت المسافة على ضعف هذا القدر ، وبعض المناطق الواقعة بين منطقتي الإسكان الكبيرتين ، كانت تغطيها البساتين الفسيحة الغنية ومزارع الخضر وحدائق اللّهُو ، وبينما كان بريدنباخ في طريقه من المطرية الى القاهرة في سنة ١٤٨٣ م ، رأى عن يمينه عددا من الحدائق الجميلة جدا ، المزروعة بأشجار الفواكه ، قامت بينها قصور أشبه بالحصون ، وامتدت الحدائق والبيوت في خط متصل حتى القاهرة ، وحين دخل المدينة بدير بيلون عن طريق بولاق ، لاحظ عددا كبيرا من الأشجار لمسافة نصف فرسخ . وكانت القاهرة قد بدأت في النمو منذ نهاية عهد الفاطميين ، وما من شك انه منذ البداية بنيت منازل جديدة ، نظرا لأن المدينة كانت مزدحمة بسكانها الى درجة الاكتظاظ ، وبدأت فعلا تنفجر وراء أسوارها ، حتى ان الأبواب التي لا تزال قائمة ، وخاصة باب زويلة ، صارت داخل المدينة منذ زمن بعيد ، تماما كما حدث في باريس حيث تعين أقواس النصر فيها موقعي بابي سان دنيس وسان مارتان ، وتتحدث النصوص العربية التي ترجع الى القرن الخامس عشر عن ضاحية باب زويلة باعتبارها جزءا من القاهرة ، وهذا أيضا شبيه بما حدث في باريس فيما يتعلق بـ « ضاحيتها » بواسونير وسان دنيس .

وبعد ذلك جدت ظاهرة مختلفة حين اتصلت المدينة بالقلعة ، حتى لم تعد القلعة في نهاية الأمر معزولة ، وخاصة في نهاية القرن الرابع عشر ، حين وصلت مبان كثيرة بينها وبين المدينة .

وقد أصاب مارسيل كليرجييه حين كتب :
كان لإنشاء القلعة رد فعل قوى جدا على المناطق المجاورة لها ، فهذه الضواحي ، بعد أن زحفت على الجبانات ، انتشرت حتى وصلت الى أسفل القلعة ، فنقل الى الرملة سوق من أهم الأسواق في أى مدينة عربية ، وهى السوق التي تباع فيها الخيل والحمير والجمال . وفي الموقع الذى كانت تحتله من قبل وحدات الجيش الفاطمى ، بنيت حدائق وبحيرات فسيحة ، فأصبح هذا الحى أكثر جمالا ، وتمتع به سكان القلعة ، وظهرت في الغرب في ذلك الوقت حدائق أخرى ، وخاصة عند باب اللوق ، بحيث أصبحت هذه المناطق أشبه بالمنتزه العام ، وقد بقيت أجزاء منه حتى عصر المماليك .

وقد استمر هذا الاتساع جنوبا وشمالا وراء باب النصر وباب الفتوح ، كما قامت مبان كثيرة في حي الحسينية ، وعلى هذا النحو ذاته ، بنيت بيوت كثيرة على طول بركة الفيل وعلى جانبي الخليج ، وأقيمت على هذا الخليج جسور ذات قوس أو قوسين وممر ضيق وأسوار عالية ، وحين كان الخليج يمتلئ بالماء ، فلا بد أن ضفافه - بما يحيط بها من مبان ذات نوافذ محلاة بالمشربيات - كانت تشكل منظرا شيقا للغاية .

* * *

هذه المجموعة من المدن المختلفة ، وهي التي كونت مجتمعة ما أطلق عليه رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين اسم القاهرة الكبرى ، أفادت من الناحية الاقتصادية فائدة كبرى ، بحكم موقعها عند التقاء الطرق التجارية ، إذ استخدم الطريق بين الشرق والغرب لنقل التجارة بين أفريقيا وآسيا ، وفي حج المسلمين الأفريقيين إلى مكة ، أما الطريق الآخر ، فقد جلب إلى القاهرة مقدارا كبيرا من البضائع الغالية التي وصلت إلى مصر برا من وسط أفريقيا والحبشة ، وعن طريق البحر ، جاء أيضا إلى القاهرة من الهند والصين سيل من السلع النادرة ، التي اتخذت طريقها في النيل إلى الاسكندرية ، وهناك جاء الأوروبيون لشرائها .

وهكذا أصبحت القاهرة مركزا تجاريا عظيما ، تجلب بضائع الشرق الأقصى وترسلها في شتى طرق الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ، هذا هو العصر الذهبي لتجار التوابل ، ويظهر لنا هذه النقطة قول بيلوتى : ان من له السيادة في القاهرة يمكنه أن يسمى نفسه أيضا رب العالم المسيحي وسيده ، ورب جميع الجزر والبلاد التي تنتج التوابل ، هذا هو السبب في أنه لا يمكن إرسال منتجات التوابل إلى أى مكان أو بيعها إلى بلد سوى بلاد السلطان ، لأن القاهرة تقع بين بحرين : فهناك ، أولا ، البحر الغربى الذى تقع عليه الاسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وسورية ، وهناك بعد ذلك البحر الذى يقع في الناحية الأخرى من البلاد ، والذي تقع عليه جدة ، ميناء مكة ، من هذا البحر تسافر البضائع من مكان إلى مكان على طول الساحل وتصل آخر الأمر إلى الطور ، حيث يوجد ميناء جبل سيناء ، والجمال التي تتحرك من مكة تأتي إلى هذا الساحل وتفرغ حمولتها في هذا الميناء ، ويسيطر سلطان القاهرة على هذا الساحل من مكة إلى ميناء جبل سيناء ، وهكذا ، تقع بلاد السلطان بين بحرين مثل

جزيرة ، ففتحكم في الهند والغرب معا ، وليس هناك طريق آخر تسير فيه السفن الآتية من بلاد الهند ، ولا يستطيع تجارهم أن يبيعوا إلا في بلاد السلطان القاهرة ، وهذا القول يصدق أيضا على المسيحيين في الغرب ، وأنت تعرف ، لهذا السبب ، انه ينبغي أن نكون دائما على علاقات جيدة مع السلطان ، إذا أردنا أن نبيع ونشترى في بلاده ، أو إذا أردنا أن نذهب الى بيت المقدس للحج .

كانت الملاحة في النيل في العصور الوسطى هامة وسريعة على نحو غير عادي ، وتدل على ذلك هذه الفقرة التي يغلب عليها الطابع الشعري : لا تنس المراكب بأشرعتها المرسلّة عالية في الهواء كالرايات ، وهي تسير أسرع من خيرة السهام حين تهب ربح مواتية ، وهي زاهية كالحيّة الرقطاء ، أو كالقواكه ذات الألوان المختلفة ، أو كالطلووس ، أو مثل بعض مقابر القدماء المنحوتة في جوف الأرض . ان هذه السفن ، يدفعها تيار الماء المتدفق ، لتذكرنا بسفينة نوح في سيرها قدما ، وحين تنشر اجنحتها من الأشرعة ، تطير أسرع من الريح في اندفاعها أو السحابة في سرعة تكوينها : انها تسبح في الماء مع السمك .

كانت القاهرة تتلقى امداداتها من التموين أساسا ، عن طريق الملاحة النيلية التي كانت دائما نشطة ، وقد رأى ابن سعيد^(١) في النيل عددا كبيرا من السفن جالبة من بحر الاسكندرية وبحر الحجاز بضائع آتية من جميع أرجاء العالم . وبعده بمائة سنة ، كان منظر السفن لا يزال يثير حماس ابن بطوطة^(٢) ، حيث يقول :

وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق .. ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك .

وبعد ذلك بقليل ، كتب فريسيكوبالدي يقول : يسير النيل على طول جانب واحد من المدينة ، ولها ميناء جيد ، وحينما كنا هناك ، رأينا عددا كبيرا من القوارب ، بحيث ان كل ما رأيته في موانئ

(١) راجع رحلة ابن سعيد في الخطط ١ : ٢٦٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ ، ٣٧ (ط . بيروت)

جنوه والبندقية وأنكونا مجتمعة - دون أن أحصى السفن ذات الطابقين - لا تبلغ ثلث عدد القوارب التي كانت هناك ، وتبلغ في مجموعها أربعمائة قارب أو تزيد .

ووصف لنا بدير بيلون ما شاهده بهذه العبارة :
ترسو القوارب والسفن بأنواعها المختلفة عند قرية بولاق لتفريغ ما تجلبه الى القاهرة ، وقد شاهدنا سفنا في النيل تسمى جروما ، وهي على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة ، بعضها منخفض منبسط عريض ومستدير الشكل تقريبا ، وأكبرها شبيه بالقوارب في نهر السين ، إلا انها أقصر بكثير ، وهي تنقل حمولات أكثر من غيرها ، ولها شراع مثلث الشكل . والنوع الأصغر منها ، وهو تلك السفن ذات الشراع المربع ، لا ترحل بعيدا عن بولاق : فهي تستخدم فقط لعبور النيل ، أو لنقل المؤن من القاهرة الى القرى ، أو لنقل الدواب من ضفة الى أخرى ، ولهذه الفلك التي تبجر بعيدا الى دمياط والاسكندرية شراع مثلث ويمكنها أن تدخل البحر الهادئ في طقس معتدل .

* * *

وكتب ابن خلدون^(١) :

من لم ير القاهرة لا يعرف عز الاسلام . فهي حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين في وجوهه ، وتزهو الخوانك والمدارس بأفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ بحر النيل الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجة ، ومررت في سلك المدينة تغطي بزحام المارة ، وأسواقهم تزخر بالنعيم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه .. فقال أحدهم : إن الذي يتخيله الانسان ، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها .

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون : ٢٦٤ (ط. لبنان)

تعتبر هذه الفقرة الشاعرة مقدمة مناسبة لوصف العاصمة المصرية في زمن المماليك ، ولكن يجب علينا أن نلاحظ أنه ليست جميع المعلومات الواردة في هذه الفقرة دقيقة ، حتى يظن مؤرخنا أنه مضطر إلى إضافة هذه العبارة^(١) : « أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين » ولكن القاهرة التي لم تكن في أي وقت مضى مركزا علميا في مستوى بغداد أو قرطبة ، كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزا للسياسة والإدارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية ؛ ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع ، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية ، وما من شك أن مدارس القاهرة استمرت تخرج مدرسين أكفاء ، ولعل هذا هو ما يقصده ابن خلدون حين يقول^(٢) : « وانتقل شأن العلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد » . وما من شك أنه وجدت شخصيات كانت لها شهرتها المحلية وأدباء كانوا موضع حديث الناس ، كما وجد في المدارس والمساجد بطبيعة الحال مدرسون لتدريس الكتب السماوية ، وحتى التاريخ . وقد قام هؤلاء بتعليم تلاميذ يطمحون في أن يخلقوا أساتذتهم .

ولا ينبغي أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد في ظل حكم سلاطين المماليك ، فليس لذلك علاقة بنوع المدرسين ، إذ لم يتخلف لنا عنها اسم واحد عظيم ، لم تخرج هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية عظيمة أو كاتباً موهوباً ، فهي لم تزد على كونها مدارس لتدريب المدرسين ، وباستثناء « المقدمة » لابن خلدون ، ذلك العالم الفذ الذي تلقى تعليمه في المغرب ، لم يظهر في القاهرة أي عمل أصيل ، وقد تميز هذا القرن بكتاب الموسوعات والسير ، التي كثيرا ما كانت قليلة القيمة ، وواضعي المجاميع ؛ فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالأصالة ، كان هؤلاء الرجال يستحقون في حياتهم عبارات المديح ، وسيرا موجزة مليئة بالنعوت الرنانة ، ولكن أسماءهم تسقط سريعا في طيات النسيان . ويذكرنا هذا بقول بلزك : « أن مجد الجراحين شبيه بمجد الممثلين ، الذين يعيشون فقط أثناء حياتهم ، ولا تقدر مواهبهم بعد أن يختفوا » ويصف المقرئ في

(١) مقدمة ابن خلدون : ٧٧٨ وانظر أيضا : ٦٤٤ (ط . بيروت ، ١٩٦١) .

(٢) المصدر نفسه : ٧٥٠ .

القرن الخامس عشر معلما ناشئا بأنه كان يشبه الانسان فقط في خلقه ولا يتميز عن الحيوان إلا بقدرته على الكلام : ثم توقف التعليم في هذه المدرسة التي كان يعلم فيها تدريجا ، ولم ينضب معين العبقريّة الخلاقة للكُتّات العرب على هذا النحو فجأة ، فنجد في القرن الحادى عشر مؤلفا يفتخر بأنه في وضعه لكتابه يتميز بموهبة حسن الاختيار ، فإن فن الاختيار من ذكاء المرء ، وبعد ذلك بقرنين ، عمت هذه الفكرة . ويقول في هذا كاتب آخر : « ان التّأليف اليوم لم يعد أن يكون جمعا لما تفرق وضما لما تشتت » هذه مجرد ملاحظات وليست محاولة للنيل من مكانة القاهرة ، لأنى ممن يعتقدون مع وليام مارسليه بـ « ان الأدب ليس كل الحضارة » فإن المباني والأعمال الفنيّة كافية بأن تخلد مجد السلاطين المماليك . وهكذا نجد انه في خضم هذه الحركة الكبرى في مصر عامة والقاهرة خاصة ، كان دور السلع أكثر أهمية من دور الأفكار ، فوجدت طبقة بورجوازية من التجار الذين نعموا بملذات الطعام وبقدر من الراحة ، وبهذا المعنى ، استطاع أهل القاهرة أن يحققوا مستوى مرتفعا من المعيشة ، فأصبحت عاصمتهم سوقا ذات أهمية دولية ، وكان لتجارتهن العالمية تأثير كبير على نمو المدينة .

* * *

يقسم المقرئى^(١) المؤرخ سكان مصر الى سبع فئات ، وبالرغم من انه تقسيم اصطناعى ، فهو لا يخلو من قيمة ، وتشتمل هذه الفئات على : رجال الدولة وجندها ؛ وأثرياء التجار ممن سعد حظهم ؛ والباعة مثل تجار الأقمشة وأصحاب المطابخ والحوانيت في الأسواق ، الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم صغار الطبقة المتوسطة ؛ وأهل الفلاحة والزرع - وبعبارة أخرى أهل القرى والريف ؛ ورجال الدين والمعلمين وطلاب العلم - وفيهم القضاة ، وكتاب المملكة ورجال العسس ؛ ثم أصحاب الحرف والصناعات والعمال والحمالين والسياس والنساجين والبنائين وغيرهم من فئات العمال المختلفين ؛ ثم فقراء الشحاذين والبؤساء . وكما يستدل مما لدينا من معلومات ، لم تكن هذه الفئات طبقات مغلقة لا مخرج لأفرادها منها . وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم المماليك ، الذين كونوا طبقة

(١) الخطط ٢ : ٤٩٢ .

ممتازة فوق جميع السكان المختلطين أشد الاختلاط بحيث لم يكن بين أفرادهم رابطة عامة تجمعهم ليدافعوا عنها . ولم تعرف مصر البناء الطبقي للمجتمع ، فقد اشتملت الأسرة الواحدة على التجار ورجال الحرف والمعلمين ، ونحن نعرف ان التجارة والاشتغال بالتعليم الديني كانتا صناعتين متداخلتين ولم تتعارضاً أبدا اجتماعيا ، وهكذا لم يلتزم الناس بالبقاء في طبقتهم الاجتماعية ، ولعبت حالات الافلاس المالي دورها في انتقال الأفراد من طبقة الى أخرى ؛ وهناك حالات السجن ومصادرة الأموال أيضا . وكانت حالات الاثراء أقل حدوثا ، ولكنها كانت موجودة ، ولنضرب على ذلك مثلا حالة احد أبناء الفلاحين من الدلتا ، الذي كان يجلس فوق حمارة في الأسواق يبيع القماش الخام وغيره من المنسوجات ؛ كان مجرد بائع متجول ، وبعد موته ، بلغت تركته عشرين ألف دينار نقدا ، دون حساب عدد كبير من الدواب .

واحتفظ المماليك بروح عسكرية لا تعرف الرحمة نظرا لخمول أصلهم وبسبب تدريبهم وتعليمهم . وبالرغم من عدم تحيزهم ، فإن طبيعتهم العسكرية جعلتهم يؤثرون الحرب على السلام . ويفضح تاريخ قواد المماليك أطماعهم ، فقد اعتادوا حياة الخطر وسيطر عليهم الخوف من المستقبل . فاعمالهم التي تشف عن غرورهم وتبذلهم يمكن تفسيرها على ان الدافع الوحيد لها هو الأنانية ، وقد قال المقرئزي^(١) : « نزل بالناس من (المماليك) البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبى بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية » . وكما هو الحال بالنسبة للجنود المحترفين في كل عصر وفي كل دولة ، كان المماليك مغامرين ؛ ونقصد بذلك انهم لم يكن لديهم جنوح نحو المغامرة والخطر فحسب ، بل غلب عليهم التماذي في تهورهم ، وانه لمن المؤسف أن خلافاتهم الداخلية لم تسفر إلا عن جهد ضائع .

وهم رجال جلبوا الى مصر كأرقاء ابتيعوا بالمال مثل سائر السلع ثم حررهم سادة كانوا أنفسهم عبيدا من قبل ، واتخذوا لهم شخصية قائمة بذاتها ، تحت اسم جديد ، وحاولوا أن يضيفوا شيئا الى صرح الحضارة الإسلامية ، فأقام المماليك في البلاد إدارة صالحة رغم تعقيدها ، وكونوا

جيشا أفسدت عناصره الحياة السياسية في الداخل ، كما حدث على أيدي العصابات الكبرى أثناء حرب المائة عام ، ولكنه جيش تميز بشجاعة لا شك فيها ، وكثيرا ما انتصر في الحروب ، فكانت تسيطر على مصر حكومة أقلية من الأطفال المفقودين ، الذين شغلته امتيازاتهم وأشبعته نفوسهم بفكرة ارتفاع قدرهم ، كما هو واضح من أزيائهم الباهرة ، وكانوا يكونون مجتمعا مقفلا تماما ، لا يقوم حق السيادة فيه على امتيازات المولد أو الثقافة أو الثراء ، لأن أى شخص لم ينشأ في الرق لا يحق له أن يصبح سلطانا ، في هذا المجتمع الغريب كان باستطاعة المملوك بعد تحريره أن يصل الى أرقى مناصب الدولة ، بينما الإنسان الحر في البلاد مقيد في تبعية الأرض . وينطبق قول شاتوبريان « مملكة بلا شعب » على عهد المماليك أكثر من انطباقه على فرنسة القديمة ، كانت الدولة ملكا خاصا للسلطين ، يديرونها بقوة لا تكل ، مثل ضيعة خاصة ، ولم يحاولوا أن يخففوا من غلوائهم بفيض من الشعارات المزيفة عن الحرية ، ومع ذلك ، فقد كانت شجاعتهم بقدر كبريائهم ؛ وخير دليل على ذلك : هو دراسة نضالهم ضد الصليبيين والمغول .

وفي ظل الحكم الحديدي للمماليك ، أولئك الذين كثر بينهم القواد والسلطين ووجدوا التأييد من رجال القضاء وادارتهم التقليدية القوية ، تحكمت مصر الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط ، وقد تم ذلك بفضل مساعدة الأساطيل الأوروبية ، وخاصة في جنوة ، التي كانت حريصة على حماية رضائها التجارى ، ونمت مدينة القاهرة نموا كبيرا ، وظهرت المباني الرائعة في شوارع المدينة القديمة وفي الضواحي ، ورغم انه لا يمكننا أن نغض الطرف عن النضال الدموى الذى دارت رحاه في القاهرة تحت حكمهم ، إلا انه يجب أن نقرر انه كانت للمماليك أفكار عظيمة عملوا على تنفيذها ، ومهما يكن من أمر ، فإن عصر النهضة الإيطالية في كثير من النواحي لم يكن أقل ألما ، فمثل معاصريهم في جنوب أوروبا ، الذين شغلوا بمنازعات لانهاية لها ، خلف المماليك وراءهم شواهد ملموسة من الفخامة ، كالقصور والمساجد والأضرحة الضخمة ، ويكفى أن نذكر هنا عبارات جوينو المشهورة :

في مدينة القاهرة ، تسيطر ذكرى المماليك ، لقد قاموا بكثير من الأعمال وشيدوا كثيرا من المباني الجميلة القوية ؛ لقد استطاعوا وحدهم أن ينحتوا من الرخام والحجر تلك الكمية من محفورات الأرابسك التي تضيف

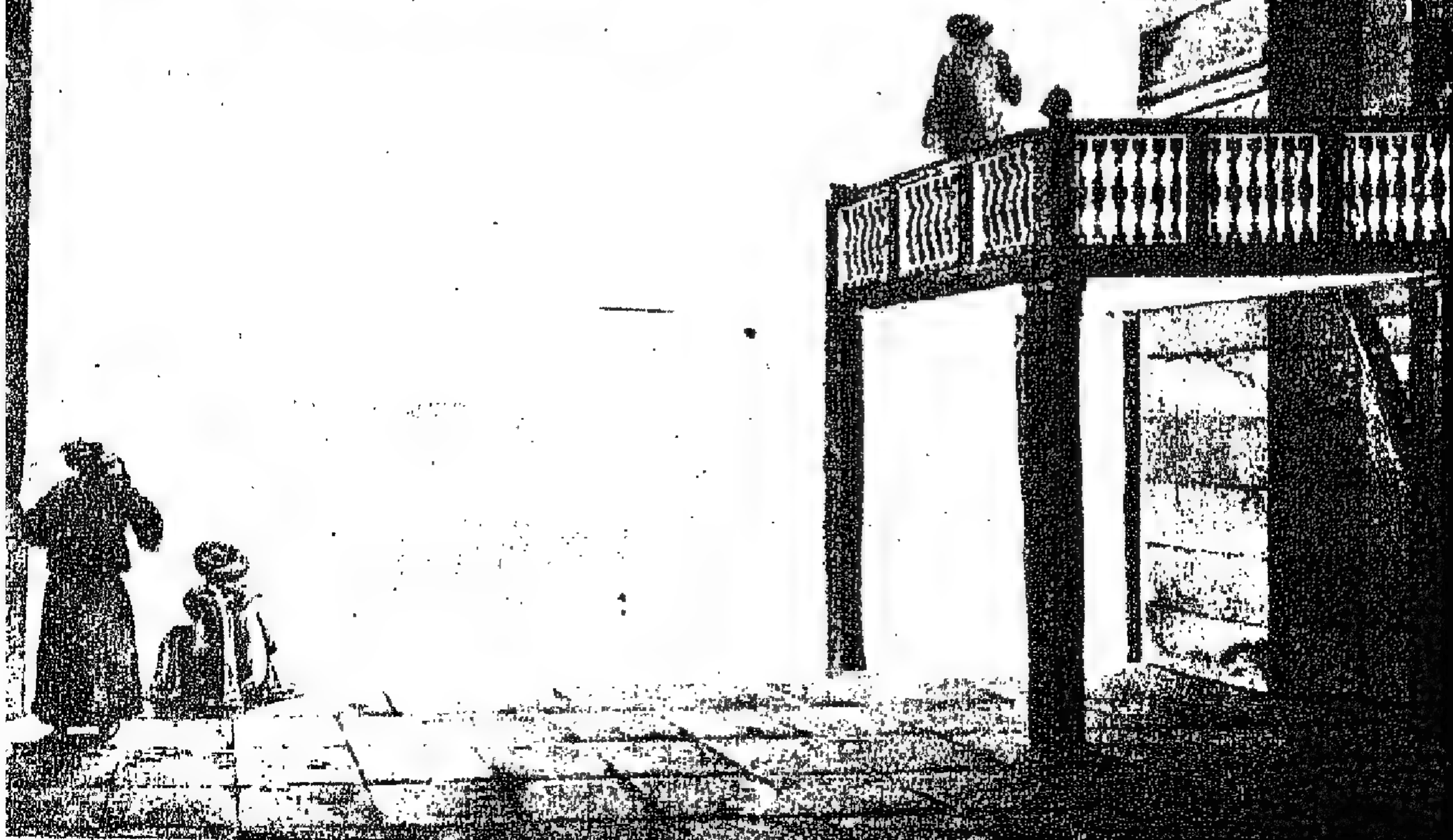
روعة على مبانى آسيا بأسرها ، ويبدو أن هؤلاء الأرقاء السابقين - المماليك - بمجرد ما حملوا سيوفهم العريضة في جنبهم وقبضوا على ناصية الحكم ، شغلت عقولهم أفكار عريضة كبرى : فكل ما شيدوه لا نجد له مثيلا في أعمال المسلمين في سائر العالم .

لقد خيمت الكآبة على القرن الخامس عشر بصفة خاصة بسبب الانقاسات العنيفة التى أدت الى كثرة الاشتباكات بين فرق المماليك بصورة متزايدة ، ولم يكتف المماليك بافناء بعضهم بعضا ، بل دمروا الأسواق حين لم تغلق الحوانيت فى الميعاد ، فبالنسبة لأهالى القاهرة المسلمين ، كان حكم المماليك كابوسا مقيما : فهم يمثلون سلطة تبطش ولا تحمى ، ولم يفكر أصحاب الحرف والحوانيت فى ايجاد تنظيم لهم يحررهم من هذا النير ، وفى حالة وقوع الخطر ، اكتفوا بأن أخفوا بضائعهم الثمينة فى أماكن آمنة .

كانت الحياة فى القاهرة قلقة بسبب سوء سلوك الطبقة العسكرية ، وهو أمر كان مألوفا أيضا منذ عصر الفاطميين ، ومع ذلك ، فلم تحدث فى العاصمة أية ثورات شعبية .

وإذا كان فى استطاعتنا أن نستخلص بعض النتائج مما سبق ، فيمكننا أن نقول أن سكان القاهرة كانوا قوما هادئين فرض عليهم ألا يشغلوا أنفسهم بشئون الحياة العامة ، وفى الواقع ، ان هذا الجمهور الذى أعوزته الوحدة بقدر ما أعوزته التصميم ، بسبب تكوينه المختلط الى أقصى حد ، لم يبد رغبته فى الاشتغال بالشئون العامة ، وكما كان الحال فى أماكن أخرى ، وجد الجنود وموظفو الحكومة ورجال الدين والتجار ورجال الحرف ، وكان رجال الجيش ، مثل الحكام ، من أصل أجنبى ، وكانوا يقومون بتنفيذ أوامر الحاكم الذى يدفع لهم رواتبهم ، كما كانوا يستغلون أو يسيئون استغلال السلطة الممنوحة لهم ، ولم يكن السلطان وجيشه السلطة الوحيدة فى البلاد ، فقد كان عليهم ارضاء جيش آخر ، هو جيش الاداريين وجامعى الضرائب ، الذين يمسون فى أيديهم بخيوط الخزائن . وعلى أى حال ، فإن هذه الفئة الأخيرة لم تسقط حكما أو تعزل سلطانا قط بسبب عدم رضائها أو عدم تعاونها ، ونظرا لعدم استطاعة السلاطين أن يستغنوا عنهم ، فقد نظروا الى مصر بمكر وذكاء على انها ملكيتهم الشخصية ويجب ادارتها بواسطة الكتبة الاداريين .

الشوارع والمنازل





أورد لنا أحد الرحالة موجزا بالعيوب التي لا يمكن
إغفالها إذا أردنا أن نقدم وصفا للقاهرة في العصور
الوسطى ، قال :

ليس للمنازل شكل الأناقة الخارجية الذي تتميز به منازلنا
أو مظهرها ، والشوارع ضيقة وغير مرصوفة ومتعرجة ،
وهناك ساحات هائلة غير منتظمة الشكل ، خالية من مبان
تزيينها أو تمثال يميز وسطها أو يجمله ، تتحول أجزاء كبرى
منها إلى برك من الماء أثناء الفيضان ، ثم تعود حقولا وحدائق
حين تنحسر مياه النهر .

وفي الشوارع يتدافع جمهور من جنسيات مختلفة ويتزاحم ، ويختصم
أفراده حول حق المرور مع حصان المملوك ، ودابة القاضى ، والجمال التي
تستخدم بدل العربات ، والحمير وهى الركوبة الأكثر شيوعا .
وإذا ماسرنا وراء باب الفتوح نصل إلى شارع بقى كما كان في العصور
الوسطى ، وهو يمتد شمالا وجنوبا لمسافة أربعة كيلومترات ونصف
تقريبا ، من هذا الباب الجنوبي إلى ضريح السيدة نفيسة . هذا الشريان
الطويل ، أو العمود الفقرى للقاهرة ، هو مظهر وحدة المدينة . وقد احتفظ
بمظهره القديم ، على الأقل في جزئه الشمالى . وتمتد على جانبيه بوابات
غريبة ، وحوانيت ذات أبعاد صغيرة بحيث أنها تبدو كخزائن قد أزيحت
واجهتها لتكشف عن مضمونها . وأمام كل حانوت مصطبة من الحجر
أو درجة صغيرة بطول مدخل الحانوت ، وعرضها يكفى ليجلس عليها
رجل . وبعد أن يفتح التاجر الحانوت ، يضع على المقعد حصيرا
أو سجادة أو وسادة ، ثم يجلس وحين يأتى إليه مشتر يجلسه إلى
جانبه . وفي المساء ، عندما يعود أصحاب الحوانيت إلى بيوتهم ، ترى
المكان مهجورا .

والشارع من حيث نظامه يسوده الاضطراب فالبيوت تبدو وكأنها
أقيمت بغير خطة أو أدنى محاولة لصفها بانتظام . ونظرا لأن المالك أخذ
من الأرض ما أراد ليبنى عليه ، فعلى المارة اليوم أن يدوروا في سيرهم حول
البيوت . ولم يترك حين فارغ فالحوانيت والبيوت قد بنيت متلاصقة على
نحو أضر بنظام الشارع ، كما هو الحال في القرى المصرية حيث تحشر
البيوت سويا حتى لا تأخذ سوى أقل قدر ممكن من الأرض التي يمكن

زراعتها . وبالرغم من أن الشارع مستقيم في اتجاهه العام ، إلا أنه ينحني بطريقة لا تكاد تلاحظ . ونتيجة لهذا فإن امتداد الطريق يبدو وكأنه مسدود . ونظرا لكثرة المساجد في هذا الطريق الهام ، فهناك دائما مئذنة على مرمى البصر .

ولقد قيل إن أحد حكام المغرب أنب أهل بلده حين وجد شارعا بلا مسجد . ومثل هذه الشكوى لا يمكن سماعها في القاهرة ، حيث تزدحم الشوارع بالمساجد . فعلى طول الشوارع المختلفة ، تجد المساجد الواحد بعد الآخر - مسجدين أو ثلاثة أو أربعة في صف واحد ، يستند بعضها إلى بعض . وتصعد إلى السماء في كل مكان مآذن تزينا محفورات الأرابيسك ، وقد نحتت بدقة بالغة بتصميمات متخلية متنوعة ، بعضها بعيد عنك ، وبعضها الآخر قريب يشير إلى السماء فوق رأسك . وحيثما تنظر على مدى البصر تجدها ، وتحس دائما كأن المئذنة التي مررت بها لازالت تراقبك لبعض الوقت . هذا هو الشعور الذي أدهش سنيور دانجلور في عام ١٣٩٥ :

يوجد في هذه المدينة - كما قد أخبرنا بحق - اثنا عشر ألف مسجد ، يؤدون فيها صلواتهم ويرتلونها . وهم يصونونها ويحفظونها نظيفة ، ويضيئونها بمصابيح زاهية جميلة ، ومع ذلك فأنت لا تجد في هذه الأماكن للعبادة أي صور أو تماثيل ، واللون الوحيد الذي يغطيها هو اللون الأبيض وقد بنيت جميعا بناء متينا بالرخام . وهناك بعض المساجد الكبيرة الجميلة التي تبدو شبيهة بالكنائس المسيحية الجميلة .

وقال أحد الرحالة الأوروبيين ، أنه لو جمعت مساجد القاهرة في مكان واحد ، لكونت مدينة في حجم مدينة أورليان .

وكتب ابن بطوطة^(١) - وهو أدق ملاحظة من ابن خلدون - ما يأتي : ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٦ .

وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج
موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها .
وقد وجد الأوروبيون ، الذين حيرتهم أيضا شدة ازدحام السكان ، أنه
من المستحيل الحصول على تفاصيل دقيقة . فكتب سيمون سيميونس في
سنة ١٣٢٢ م : « في اعتقادي - طالما ليس هناك تقدير أصح - أن القاهرة
تبلغ ضعف حجم باريس ، وأربعة أضعاف عدد سكانها وحتى إذا
اقتُرحت عددا أكبر ، فهو أقل من الحقيقة » .

وعندما اقترب القرن الرابع عشر من نهايته ، قال جوتشي دي دينو في
غير مبالغة :

بابلون هي المدينة القديمة ، والقاهرة هي المدينة الجديدة التي أسست
وبنيت فيما بعد . وفي كلا المدينتين عدد السكان بلا حصر ، إلى درجة أنه
من المعتقد أنه يمكنهم تجنيد جيش من ستمائة أو ثمانمائة ألف رجل . إن
عندهم لا يقل عن ثلاثة ملايين شخص ، ويقال إن منهم ما يزيد على
سبعمائة ألف رجل وامرأة وطفل فقراء لدرجة أنهم لا ينامون ليلا تبين
متتاليتين في مكان واحد . إنهم يستلقون فقط على الأرض أو على المقاعد
العامة حيث يكونون .

وفي رأى سيمون سيجولي :

يبلغ طول مدينة القاهرة أكثر من اثني عشر ميلا ، ومحيطها ثلاثين
ميلا . وتحتوى على أكثر من ثلاثمائة ألف من السكان ، منهم ما يزيد على
خمسین ألفا بلا مسكن أو سقف يحميه . وهناك - فوق ذلك - أكثر من
عشرة آلاف رجل بلا ثياب تستر أجسامهم ، سوى أسمال يسترون بها
عوراتهم .

وقد اعتقد فريسكوبالدي أن عدد سكان القاهرة يفوق عدد سكان
تسكانية بأسرها ، وأن أحد شوارع المدينة ضم من السكان أكثر من أهل
فلورنسة . ويقال إنه في الربع الأول من القرن الخامس عشر ، بلغ طول
القاهرة خمسة عشر ميلا وعرضها خمسة أميال كما كانت مزدحمة بالسكان
إلى درجة أن ثلاثة أو أربعة أشخاص لا يمكنهم أن يسيروا في شارع دون
أن يصطدموا ببعض .

كانت تلك هي الحال حتى في الشوارع الرئيسية . ولم يكن أحد يذهب
إليها بقصد التزهة ، وإنما يذهب إليها الناس مضطرين لقضاء حاجاتهم

أو لمساعدة غيرهم . لا يستطيع أحد أن يسير دون أن يتدافعه ذلك الجمهور المزدحم الصاخب . لقد كان هذا التدافع بين المارة وراكب الخيل ، وهذا الفيض البشرى هو السبب في نشوء الفكرة أن المدينة مزدحمة . ولكن ماذا كان حال الشوارع الضيقة ؟ لقد اشتكى منها الكتاب العرب أنفسهم ، ويؤس الرحالة من المتاهة المحيرة التي تكونها ، ومن الشبكة المعقدة التي تشكلها الممرات الضيقة المتربة . وكان أكثر الأزقة قصيرا وصغيرا جدا وأضيّق من أزقة البندقية . وفي بعض الأحيان ، بلغ طول هذه الشوارع مسافة بيتين أو أكثر قليلا بحيث أن المدينة كلها كانت مجرد خليط من البيوت . وفي أماكن معينة ، كانت هذه الأزقة تمر تحت البيوت ، ويذكرنا بهذه الحقيقة شارع لازال يحمل إلى اليوم اسم شارع تحت الربع ، هذه الممرات خلال المباني ، التي لم يكن يعرفها سوى أولئك الذين كانوا على علم تام بالمدينة ، تذكرنا - لولا اختلاف الارتفاع - « ترابول » Traboules في مدينة ليون . وبالإضافة إلى ذلك ، فكان هناك بعد كل عشرين و ثلاثين بيتا بوابة لاغلاق هذه المنطقة . ولم يكن الهدف من هذه البوابات هو الدفاع في زمن الحرب ، وإنما الغرض منها هو منع اللصوص من دخول البيوت أثناء الليل ، أو عرقلة سبيل خروج اللص الماهر الذي يتمكن من الدخول . وفي بعض الأحيان ، كانت البوابة تغلق في منتصف النهار ، وكان الانسان يضطر إلى أن يعود أدراجه ويدور في المنحنيات حتى يصل إلى غايته . وقد ساعدت هذه الشوارع الصغيرة المسدودة من هنا وهناك على تيسير مهمة رجال الشرطة ، الذين خفض عددهم إلى أقل قدر ممكن .

وكانت الأزقة من الضيق بحيث أنه يصعب على رجلين أن يسيرا جنبا إلى جنب وكان الجمل بحمولته كفيلا بعرقلة الحركة أكثر مما تفعل عربة في بعض شوارع باريس . وما من شك أن جملا عليه حمل ينوء به من قصب السكر كان يرغب أكثر المارة كبرياء أن يلصق جسمه بالحائط . ويذكر الرحالة الأوروبيون أن الشوارع كانت عادة مظلمة ، بسبب أن البيوت في بعض الأماكن كانت قريبة من بعضها البعض لدرجة أن حواف الأسطح تشابكت ، ومدت الحصر من سطح إلى سطح . وكان هناك تعويض عن المشقة التي يسببها الشارع الضيق وهي البرودة التي ينتشرها ، فسنمحت الشوارع الضيقة بمرور تيار من الهواء المنعش . كما أُلقت البيوت العالية

ظلا جميلا على المارة . فقلك إذن مقاهة من الشوارع الصغيرة الضيقة التي تدور بين جدران بلا نوافذ ، وتعرضها أحيانا ميادين غريبة الشكل . وقد أوجز لنا سيمون سيميونس وصف الحال في مطلع القرن الرابع عشر في هذه العبارة :

تجد في شوارع المدينة المظلمة الملتوية كثيرا من الأركان والمنحنيات ، وهي مليئة بالغبار وغيره من القمامة ، وغير مرصوفة على الإطلاق . وتزدحم شوارعها الهامة بجمهور صاخب ، ولا ينتقل الانسان من شارع إلى آخر إلا بمشقة كبيرة .

وظل الحال كما هو حتى نهاية القرن الخامس عشر ، حين كتب بريدنباخ :

زرنا شوارع التجار ، فذكرتنا بالزحام في ساحة القديس بطرس في رومة في أعوام الاحتفالات . فهناك عدد ضخم من الباعة والمشتريين حتى ليصعب على الانسان أن يصدق ما تراه عينه ، فهو أقرب إلى الخيال . ولا اعتقد أن هناك مدينة أخرى في العالم اليوم تبلغ مبلغ القاهرة في ازدحامها وحجمها وثرائها وسلطانها . دخلنا مرة في شارع ثم في آخر ، وبعد أن مررنا خلال بوابة حديدية ، وصلنا إلى أكثر المناطق ازدحاما ، وبعد أن تدافعنا بالمناكب خلال كل من البشر ، رأينا بقعة لا تستطيع الكلمات أن تصف ازدحام الناس فيها .

ويمكننا أن نتصور بسهولة الجماهير المتدفقة من الشوارع الصغيرة الجانبية ، حتى تختفى في زحام كبير . وقد رأى رحالة ساخط خصب الخيال « قوما يسировون في الطرقات وأذرعهم مدلاة دون اهتمام بأي شيء ، كأنهم ينتظرون لمسة من عصا سحرية تعيدهم إلى أنفسهم وتبضيء وجوههم المجهدة بالرغبة والأمل » . ولا ينبغي أن ننسى أن الشعب المصري ، وخاصة في القاهرة ، كان لين العريكة ، رفيقا ، كثير الضوضاء في صخبه ، ومليئا بالحياة . واستمر هذا البحر من البشر في سيره بروحه المرحه نحو دوامة الحياة اليومية دون أن تشغله قضايا الحكم أو فلسفة الوجود .

وأخيرا يقدم لنا هذا الوصف صورة حية عن الحياة في المدينة : يخترق المدينة ثلاثة شوارع وهي جميلة بالمقارنة مع غيرها من الشوارع الضيقة الملتوية ، بسبب أن كل شخص من الأهالي يبني منزله

حسب هواه ، فيسد الطريق ، ويحيل الشوارع إلى أزقة ضيقة قصيرة يصعب المرور فيها ، وخاصة في أيام السوق . وكثيرا ما اضطروا إلى أن يفتحوا ممرات عبر البيوت ليستمر المرور خلالها ، ولكنها كانت شديدة الظلمة وتسمح بارتكاب الجرائم . وأهم شارع من الشوارع الثلاثة الطويلة يخترق المدينة طولا . ويعقد فيه السوق في أيام الاثنين والخميس . وبالرغم من اتساع الطريق ، يصعب السير في أيام السوق بسبب الازدحام الشديد فهنا تأتي المأكولات بشتى أصنافها من خارج المدينة أو داخلها لتباع . وفي شارع آخر ينتهى إليه ، توجد الحوانيت التى تباع فيها خيرة بضائع الجملة .

وقد عاقت الحركة في الشوارع تلك المصاطب التى وضعت أمام الحوانيت ، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك فالباعة المتجولون يرصون سلعهم من الخبز وغيره من المأكول على هيئة أكوام على الأرض بالرغم من أن الشرطة كانت دائما تلاحقهم . وقد زاد من عرقلة الحركة في الشوارع جماعات السقائين والباعة المتجولون الذين يعرضون على المارة ما يحملون من سلع رخيصة ومأكولات ، وكانوا يلفتون النظر بنداواتهم المتميزة كما هو مألوف في جميع مدن العالم ، « فكل ينادى على بضاعته بطريقته الخاصة » ، كما قال سنيكا في وصف رومة القديمة . ولم يكن هؤلاء الباعة يدخلون البيوت وإنما كانت تفتح المشربيات وتدلى منها لهم سلال بحبال طويلة ، فتوضع فيها البضائع وترفع على هذا النحو إلى البيوت . وكذلك الحلاقون اتخذوا لهم مواقع يحلقون رؤوس زبائنهم وذقونهم في الهواء الطلق . « وهناك رجال يسيرون في الشوارع ومعهم ما يشبه المرأة معلقة في صدورهم ويصيحون : الى عايز يحلق ؟ » ولا ينبغي أن ننسى أصحاب الحرف الذين يعملون أمام دكاكينهم . فترى عددا من الحمالين يلبون أى طلب للمشتريين : « فهؤلاء الأفراد على استعداد للقيام بأية خدمة لقاء أجر زهيد » . وعلى مسافات متباعدة ، يوجد مجبرون لاسعاف من أغمى عليهم أو من أصابهم أذى ، ولتضميد الرضوض . وتتخذ « ألف ليلة وليلة » من باب زويلة موقعا لحادثة نشل . وكانت دوريات العسس تمنع الاضطرابات وتترصد باللصوص ، وكان قائد الدورية يتخذ لتفتيشه طريقا مختلفا كل ليلة ، وكان يسير أمامه حامل مشعل ويحيط به ضباط الشرطة والسقاؤون وحاملو الفؤوس ، وكانوا جميعا مسئولين عن مقاومة الحرائق التى قد

تشب اثناء الليل ، وكل شخص يضبط في حالة تشاجر أو سرقة أن يعتقل . ويبدو أن قوانين المرور في الشوارع لم تكن مطبقة بدقة ، نظرا لتكرار صدورها من حين إلى آخر ، ولكنها مع ذلك تثبت أن السلطات المسئولة لم تهمل هذا الموضوع . فلم يسمح مثلا بمرور حمولة من القش أو أخشاب الوقود في الطريق الرئيسية ولم يسمح أيضا للسائس أن يقود فرسا في هذا الشارع وكان لزاما على السقائين أن يغطوا قربهم الجلدية حتى لا تبلل مياههم المارة وإلزم أصحاب الحوانيت بأن يقيموا قدرا كبيرا مملوءا بالماء يسهل استخدامه لمقاومة الحرائق . هذه الاحتياطات كانت في واقع الأمر بدائية ، كما أن إزالة مظلات الحوانيت والمصاطب من أجل القضاء على العوامل المساعدة على الحرائق ومن أجل إزالة العوائق أمام رجال الحريق لم تكن ذات قيمة فعالة في عام ١٠١٤ م ، وكانت الصدقة وحدها هي السبب في قلة الكوارث . ومع ذلك ، فقد حدثت حرائق خطيرة في عام ١٣٢١ ، وبصورة أشد في عام ١٣٥٠ . فجدد جميع السقائين واستدعى جميع النجارين للقضاء على كل شيء قابل للاحتراق في طريق النار ، ولكن دون جدوى . وقد استمرت الحرائق في سنة ١٣٥٠ لمدة شهر كامل .

وفي اثناء الليل ، كان النظام يقضى بأن يعلق التجار أمام مخازنهم مصابيح . ومع ذلك ، فحين دخل بريدنباخ المدينة بعد أن مر بالمطرية سنة ١٤٨٣ ، أشار إلى أنه « سار طويلا في الظلام » . ولكن حسب رواية الحاخام الايطالي دابرتينورو ، « يستطيع المرء أن يسير في القاهرة بالليل واثناء النهار ، لأن جميع الشوارع مضاءة بمصابيح » . ويذكر تريفيزانو على وجه التحديد أنه كان « من المألوف في القاهرة - ضمنا للأمن - أن يعلق مصباح مضى على باب أحد البيوت كل أربعة بيوت أو خمسة » . ولكن هذا الاجراء لم ينفذ بدقة ، لأنه اثناء حكم ابن قايتباي المخبول^(١) ، كان هذا الحاكم « يخرج بنفسه كل ليلة بعد صلاة العشاء ويجول في الشوارع ، يتقدمه مصباحان مستديران وأربعة مشاعل ، ويسير أمامه عدد من العبيد السود . وإذا مر أمام دكان ليس له مصباح ، كان يأمر بغلق المحل بالمسامير ، وكان يبقى ليشرف على العملية بنفسه » . وفي شهر رمضان ، كانت مآذن المساجد تضاء بمصابيح كثيرة ، وكان منظر آلاف المآذن الوضاءة تترك في النفس انطباعا قويا ، كل واحدة منها مضاءة

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إيس ١ : ٣٤٦ (ط . القاهرة ، ١٩٦٠)

بثلاثة صفوف من عدد لا يحصى من المصابيح . « وبسبب هذه المصابيح ، كانت المدينة تبدو وضاعة كأنها في وسط النهار » .

وكانت الحكومة بين حين وآخر تبدى اهتمامها بأمر نظافة العاصمة ، ولعل ذلك كان يحدث أكثر مما يشير إليه المؤرخون . فنحن نعلم أنه عند نهاية القرن الرابع عشر ، كان التجار يلزمون بدهان واجهات حوانيتهم . وفي شهر أيار (مايو) سنة ١٤٧٧ صدر أمر بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة^(١) ، وصدر أمر بهدم جميع المباني التي أقيمت بغير طريق شرعى في الشوارع والأسواق ، مثل كثير من المباني التي كانت تدر دخلا ، والسقائف ، والرواشن ، والمصاطب . وكانت عملية توسيع الشوارع ذات فائدة للمدينة ، ولكن كثيرين من الأفراد تحملوا خسائر جسيمة بسبب إزالة ممتلكاتهم وحوانيتهم . واضطربت مدينة القاهرة حيال تدمير هذه المباني ، وخاصة تلك التي كانت تقع على الشوارع الرئيسية . لذلك كان هذا القانون موضع كراهية الجمهور .

ومع ذلك ، فإن الحكومة لم تحجم عن غايتها وإنما سارت قدما وقامت بإصلاح الواجهات التي شوهت ، كما أصلحت أبواب المساجد وقامت بتنظيف رخامها وتبييض جدرانها ، وصدر أمر بتبييض الحوانيت وإعادة تجميل وجوه الرباع المطلة على الشوارع . وعين مفتش للطرقات الذى كانت مهمته حث الملاك على الاسراع بعملية التعمير والدهان . ويضيف مؤرخ عربى أنه ، نتيجة لذلك ، استعادت المدينة جمالها الأول كما كانت عند زمن تأسيسها ، وغدت رائعة كالعروس عندما تسفر عن وجهها أمام زوجها . وفي الوقت نفسه ، بدأ العمل عند باب زويلة لرفع مستوى الطريق إلى مستوى الشوارع المجاورة .

وبالرغم من غلبة الأسلوب الشاعرى على كتابة مؤرخنا الذى يمدنا بهذه التفاصيل ، فإنه لا يخفى دائما استياءه . فهو يخبرنا بأنه في سنة ١٤٩٨ ، صدر أمر من السلطان يقضى بأن يقوم جميع أصحاب الحوانيت التى بالأسواق والشوارع بتبييض واجهات حوانيتهم وأن يزخرفوها بالدهان ، وتحمل التجار بسبب هذا الأمر نفقات باهظة . ويرجع

(١) انظر بدائع الزهور ٢ : ١٧١ - ١٧٧

كاتبنا هذه الحالة إلى تحريض أفراد من أخط الفئات وتحريض البطانة
التي تحيط بالسلطان .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٥٠٣ ، صدر أمر من السلطان بأن
يقوم أصحاب الحوانيت بحفر الشوارع بغرض تخفيض مستواها بمقدار
قدم تقريبا نظرا لأن مستواها كان قد ارتفع بقدر ملحوظ . وكان المفروض
من صدر إليهم الأمر أن يتموا العمل دون تأخير كبير وكان هذا سببا في
ضجر كثير من الناس نظرا لعدم توفر العدد الكافي من العمال لحمل التراب
بسبب كثرة الطلب .

وقلما ساءت الأحوال الجوية في القاهرة وأن وجود ميزاب لتصريف
المطر فوق بعض الأبواب الفاطمية ليدل على أن المهندسين كانوا من أصل
اجنبي . ومع ذلك ، فقد حدث أحيانا أن انهمرت أمطار غزيرة أدت إلى غمر
الشوارع والأسواق بالمياه ، وكما قال فلوبيير :

استمر المطر أسبوعا ، وقد حاولنا مرتين اقتحام شوارع القاهرة
باحذيتنا الضخمة فوجدناها مليئة ببرك من الطمي ، بينما كان الأهالي في
حالة تبعث على الأسى ، يغوصون فيها إلى ركبهم وهم يرتعدون من البرد .
وتوقف العمل ، وأقفلت الأسواق ، وخيم عليها الحزن والبرد ، وانهارت
بعض المنازل بسبب المطر ، وألقيت الأتربة والقمامة على الوحل ليحف
هكذا كان مستوى الشارع يرتفع بصورة مطردة .

وكان هناك عدد كبير من الرجال يستأجرون للعناية بأمر نظافة المدينة ،
وكان لهؤلاء أيضا مساعدون مهرة آخرون . وقد كتب أحد الرحالة في ذلك :
تري في شوارع القاهرة عددا كبيرا من الحدان لا تكاد تصدقه العين ،
يحوم فوق المدينة في حرية تامة ، وكثيرا ما رأيت هذه الحدان بعيني رأسي
وهي تأكل اللحم من فوق رؤوس أولئك الذين يحملونه خلال شوارع
المدينة ، وأحيانا تطير وتخطف اللحم من أيديهم ، ولا يستطيع إنسان أن
يتعرض لها بأذى لأنها تأكل الرمم العفنة وغيرها من الفضلات . وبعد أن
ينتهي فيضان النيل ويعود إلى مجراه الطبيعي ، فإنه يخلف قدرا كبيرا من
القاذورات وحينما يصل الفيضان إلى ذروته ، يجرف في الشوارع الرئيسية
الحيوانات الميتة وغيرها من الأسماك والثعابين ، ولكن هناك عدد كبير من
هذه الطيور الفظيعة يكفي لالتهام كل شيء في الحال .

ويخبرنا رحالة من القرن السادس عشر بأنه « غير مسموح قانونيا صيد هذه الطيور أو قتلها لأنها تنظف النيل من قاذوراته ، وكذلك المدينة التي لا يمكن المحافظة على نظافتها بسبب كبر حجمها » .

* * *

لقد رأينا كيف كان سكان القاهرة يسرون جماعات غفيرة . وكما يحدث اليوم لابد أن جماعات من الناس تجمهرت أمام مداخل المستشفيات والسجون . ويمكننا أن نضيف إليهم أولئك الذين تجمعوا حول الكتاب العموميين ، وهم فئة وجدت أيضا في الأزمنة الحديثة . وإذا كان الكتاب العرب قد أهملوا ذكرهم ، فلعل ذلك راجع إلى شدة اعتيادهم عليهم . هؤلاء الكتاب العموميون ، الذين كانوا كثيرين جدا من غير شك ، أقاموا مكاتبهم في الهواء الطلق وسدوا مداخل مباني الحكومة والادارة .

هذا مكتب ذو مظهر جاد يتميز عما جاوره من الدكاكين . فعلى عدد من المناضد الصغيرة تجد عددا من الكتب وبعض الورق وهناك تجد رجلا لبيبا ، أمامه محبرة ، يكتب وهو مرتكز على ركبتيه ، وقد انحنى نحو رجل آخر يجيب على أسئلته . فالكاتب رجل أهل للمشورة ، ويطلب رأيه فيما يشكل من الأمور في هذه الحياة .

وقد قيل :

إنه في الأحياء القديمة تجد الناس على سجيتهم ، يعاملون بعضهم بعضا في يسر . فهو يحبون الحيوية والبهجة التي تتميز بها الشوارع الضيقة ، ويؤثرون الدكاكين الصغيرة وتلك الحياة التي هي أشبه بخلية النحل . ويكاد المرء يقطع بأن ذلك ضروري لسعادتهم . ومما يثير العجب في هذه الأحياء هو ميل الناس إلى الحياة خارج البيوت ، وإقبالهم المشرق على الحديث ، والألفة الطيبة التي تجمعهم ، ورغبة التمتع بالحياة تشيع في وجوههم البشر .

والظاهرة العامة بين النبلاء وذوى المكانة الاجتماعية - فيما عدا حالات نادرة - أنهم يمتطون الخيل في الطرقات ، بينما يركب النساء الحمير . وليس هناك أطرف من رؤية هاتيك النساء وقد حططن على هذه الحيوانات الصغيرة التي تسير بهن . ويركب الحمير أيضا التجار الذين يرغبون في إنجاز أعمالهم بسرعة .

وقد أوشك الحمار أن يختفى اليوم ، كأحد الحيوانات التي ترجع إلى عصر ما قبل الطوفان ، أما في العصور الوسطى ، فكان هناك عشرون ألف حمار للايجار في المدينة . وكانت تقف عند تقاطع الطرق ، تنتظر في صبر الزبائن الذين يرغبون في ركوبها سواء داخل المدينة أو خارجها . وذكر أحد الرحالة أنه وجد من الحمير بقدر ما هناك من كراسي السندان (يحمل عليها الأشخاص) في نابولي ، أو من قوارب الجندول في البندقية ، أو العربات في رومة . ومن أعجب الأشياء أن لكل دابة سائقها ، رجلا كان أم طفلا ، يهزم الحمار من الخلف ليدفعه على الاستمرار في السير ، بحيث كنت ترى دائما طابورا من الرجال والدواب على طول الطريق . ويقال إنه من أطرف المناظر رؤية هذا العدد الضخم من الحمير ، ذلك الحيوان الوديع الطيب الذي يزين ببرازع كاملة من الحرير ، وقد طليت أذناه وعرفه وذيله باللون الأصفر .

ويقابل الخطو المتدافع للحمار المظهر الشامخ المتعالى للجمال « ذلك الحيوان الغريب الذي يتهدى في خطواته كالديك ويحرك رقبتة كالبعجة » . فهناك مواكب مهيبة لا تنتهى من الجمال المتهداية ، التي تآبى إلا أن تسير في خط مستقيم ، كأن استقامة الطرقات تتوقف عليها . وفي الواقع كان متوسط عرض الشوارع الرئيسية مثل عرض جملين محملين بالقش يسيران جنباً إلى جنب . ونعرف من مصادر أخرى أن جملاً واحداً محملاً بأخشاب الوقود - أى عرض تسعة أقدام - يستطيع أن يسير في هذه الشوارع . وهناك حادثة غريبة وقعت في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٥٠٨ تدل على مدى خطورة هذه الأوضاع . فقد حدث بعد أن خيم الظلام أن قلد فلاح خلال الشوارع جملين محملين كتانا ، فأمسك هذا الكتان النار من مسارج أحد الباعة ، فلما أحس الجملان بالنار اندفعا مذعورين نحو الجمهور ووطأ بأقدامهما المارة وقتلا عدداً كبيراً منهم ، إلى أن سقطت الجمال على الأرض في آخر الأمر^(١) .

وقد لاحظ أكثر الرحالة أنه لم تكن هناك حاجة إلى شوارع تسمح بمرور عربات تجرها الدواب . ويذكر لنا واحد منهم : « يجب أن تعلم أنه لا يوجد في مصر - إلا في حالات نادرة - أماكن تستخدم فيها عربات سواء

(١) بدائع الزهور ٤ : ١٣٥ .

للمركوب أو النقل ، كما هو الحال في البلاد الغربية . فكل ما لا ينقل بالسفن أو الجمال يتم نقله على ظهور الحمير والثيران .
وما من شك أنه وجدت أحيانا في القاهرة وائل أخرى للمواصلات ، ولكن هذه الحالات كانت من الندرة بحيث أن المؤرخين اهتموا بذكرها . ومثال ذلك أنه في سنة ١٣٦٩ ، نقل عمودان من الرخام بواسطة الزحافات والروافع ، وقد اتخذ الزجالون الشعبليون من ذلك موضوعا لقرائحهم . ورسمت على المناديل صور تمثل المنظر . وبعد ذلك بعدة سنوات ، قطعت حجارة من مقالع جبل المقطم ووضعت على عربات تجرها الثيران ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الحجارة تسمى « حجارة العربات » . وفي سنة ١٥١٢ ، أمر السلطان بأن تنقل المخاحل (المدافع) التي تم صنعها إلى الصحراء شمالى القاهرة حيث يمكن تجربتها ، فوضعت على عربات سحبتها الأبقار . وعند مرور العربات بين الدكاكين في الشارع الممتد من القلعة إلى مسجد ابن طولون ، تبين أن عملية النقل فيه شاقة ، وقد تمت بعناء شديد . ثم حدث بعد ذلك أن انهارت أرض الطريق وسقط مدفع كبير في ممر تحت الأرض وتم إخراجة بعد جهد كبير^(١) .
ومن الأشياء التي وجبت مقاومتها في هذه الشوارع الحرارة والغبار ، بحيث لزم رش كثير من الطرقات غير المرصوفة مرتين كل يوم . وقيل إنه في بعض الأماكن التي لم تكن ترش ، كان الغبار يرتفع كثيفا كالدخان ، وكان من العسير القول ما إذا كان هذا مجرد غبار أو أنه حريق .
كانت مدينة القاهرة ذاتها بعيدة عن النيل ، واستنفدت مشكلة نقل الماء جهود عدد كبير من الرجال والدواب . ويؤكد ابن بطوطة بأنه وجد في القاهرة ١٢,٠٠٠ سقاء يستخدمون الجمال و ٣٠,٠٠٠ مكار يستخدمون البغال^(٢) . ويقدر فريسيكوبالدى عدد الجمال وغيرها من الحيوانات التي استخدمت لتوزيع الماء في أرجاء المدينة بـ ١٣٠,٠٠٠ دابة . وفي بداية القرن السادس عشر ، لاحظ تريفيزانو أن ١٥,٠٠٠ جمل كانت تمضى إلى

(١) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٠ - ٢٦٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة : ٣٧ .

النيل مرتين يوميا لتحمل الماء اللازم لحاجات المدينة . ويبدو أنه لم تعامل دائما هذه الحيوانات برفق . ومن دلائل ذلك أن « ألف ليلة وليلة » تحاول أن تثير فينا الشفقة بقصة نحيب استرحام الحمار الذي حاول الفرار من المجتمع البشرى حتى لا يسخر في نقل الماء .

وكان من الضروري أن يزود كل مسكن بالماء وكذلك الحمامات العامة ، وإن تملأ المساقى التى أقيمت لشرب الحيوانات والأزيار الفخارية التى كانت توضع على قاعدة وتغطى بلوح من الخشب وعليه كوب للشرب . وكان يوجد في الشوارع رجال يحملون قربا من جلد الماعز مدلاة من اكتافهم ، ولها فوهات من القماش . وكانوا يبيعون للمارة ما يحتاجون إليه من ماء . يطفىء ظمأهم ، وكانوا يقدمونه في كؤوس من الفضة أو النحاس . وكان بعض الأغنياء يؤجرون سقائين رغبة منهم في تقديم هذه السلعة الأساسية صدقة للفقراء .

وكان السقاؤون المتجولون يحملون قربا من الجلد المصبوغ بالعصف . فقد ثبت أن ذلك يزيد في متانة الجلد . ولا يمكن استخدام جلد البغل أو أى جلد قدر مآكل . وكان على السقائين أن يأخذوا الماء من مناطق في النيل بعيدة عن كل تلوث . فكانوا يصعدون في النهر بصفة خاصة بعيدا عن مصارف الحمامات العامة ، أو ينزلون مسافة طويلة أسفل النهر . وكان السقاء ، إذا استعمل قرية جديدة ، فإنه لا يستخدمها لنقل الماء للاستعمال في البيوت ، بل كان يبيع الماء منها للطواحين وعصارات النبيذ ومضارب الأجر . وكان يعلق حول أعناق الحيوانات الحاملة لقرب الماء أجراس أو أطواق مصنوعة من الحديد أو صفائح نحاسية بحيث تنبه إلى اقترابها الضرير والسرحان والصغار في الأسواق العامة .

ويقال إنه كان هناك عدد كبير من الباعة المتجولين الذين يبيعون الأفراخ الصغيرة بالوزن وليس بالعدد كما هي العادة في البلاد . ومما أثار عجب الرحالين جميعا أنهم وجدوا في مصر البيض يفس « دون أية مساعدة من الدجاج »^(١) . ويقولون إن هؤلاء القوم كانوا يستخدمون طريقة معينة

(١) الخطط ١ : ٢٦ .

لفقس الفراخ ، فكانوا يضعون ألف بيضة أو أكثر في أفران تحتوى على عدد من الرفوف ، ويوجد في الرف العلوى فتحة ، ثم توقد نار هادئة تحت هذا الفرن وتستمر على هذا النحو سبعة أيام ، تخرج بعدها أعداد كثيرة من الفراخ وتجمع بعد ذلك في صناديق ، وعند بيعها ، تكال بصاع بلا قاع يوضع في سلة المشتري ثم يملأ بالفراخ حتى يمتلئ ، وعند ذلك يرفع الصاع . ولقد أثارت هذه العملية نوعا من التأمل الفلسفى عند الرحالة بريدنباخ وهو في طريقه إلى بيت المقدس فقال :

بعد أن تفقس الفراخ بغير مساعدة الأم ، كانت ترسل كالأغنام إلى الحقول مع راع أو تباع في السوق . والشئ الذى لا يقبله العقل ، رغم أنه صحيح ، هو أن هذه الطيور التى ولدت بواسطة فن الانسان وصنعتة كانت أكثر استئناسا من الطيور التى ولدت بالطريقة الطبيعية ، وهى تتبع الانسان تماما كما تتبع الفراخ العادية أمها .

* * *

لقد حفظ لنا الرحالة الأوروبيون أوصافا متناقضة عن منازل المدينة ، ويفسر ذلك أن بعضهم تناول وصف القصور الغنية بينما وصف آخرون المساكن المتواضعة الفقيرة ذات الأسقف المسطحة المغطاة بالجريد . ولاشك أن المنازل الأكثر ثراء كانت أقل جودة من حيث البناء عن مثيلاتها في أوروبا . وقد بلغت في بعض الأحيان أربعة أو خمسة طوابق ، الجزء الأسفل منها مبنى من الحجر أو الآجر ، والجزء العلوى من الخشب الخفيف جدا وألياف النخيل والجريد والطين . وأسقف المنازل مسطحة بحيث يستطيع السكان أن يستريحوا فيها نسيم المساء البارد ، وكان بعض الناس ينامون فيها في الصيف .

كانت واجهات المنازل بسيطة للغاية وجدرانها خالية من أى زخرفة . والحلية الأساسية في الواجهة المطلة على الشارع هى المشربيات التى كانت تشكل بروزا في الجدار الخارجى للبيت . وهى مصنوعة من عدد لا يحصى من قطع الخشب الصغيرة المنحوتة ، ومرتبعة ومركبة على نحو يكون أشكالا مختلفة . ومن ناحية عملية ، كانت هذه المشربيات « ترضى حب استطلاع من كانوا داخل البيت ، دون أن تكشف أمرهم من الخارج نظرات الفضوليين » . ولهذا ، خيم على منازل العصور الوسطى جو من السرية والغموض . ولقد قيل إن هذه البيوت حاولت بهذه الطريقة أن تخفى

ثراءها الداخلي ، ولكن لعل هناك سببا طبيعيا آخر يفسر بساطة المظهر الخارجي ، وهو ضيق الشوارع ، إذ يستحيل على المرء أن يذهب بعيدا ليتمتع بالنظر إلى واجهاتها الغنية .

كانت بيوت كبار القوم تبدو من الخارج متواضعة ، عادية ، عليها مسحة من الكآبة أما من الداخل ، فلا مثيل لها في فخامتها واثرائها . وكأنها كما يقول أحد الرحالة : « بيت الرحمن وأبواب السماء » . وكان يزين هذه المنازل زخارف غنية رائعة قد رسمت بألوان مختلفة دقيقة ، هذا ، إلى جانب استخدام الرخام وغيره من الحجارة الملونة . ويبدو أنه ساد في الشرق اعتقاد بوجوب إخفاء الجمال ، كما كانت تحجب النساء في الماضي ، وتلف المومياء من قبل بأشرطة من النسيج .

أما غرفة الاستقبال ، فكانت مرصوفة بالرخام المتعدد الألوان ليكون أشكالا من الأزهار وغيرها من الزخارف . وكان يقوم في وسطها نافورة أو نافورتان من الماء تبقيان مفتوحتين بالليل والنهار طوال فصل الصيف . ووضعت حول هذا الحوض الكبير في أماكن متفرقة أوان مليئة بأزهار الموسم . وكانت هذه النافورة ذات الماء الجارى تعتبر جزءا أساسيا في بيوت الأثرياء ، وتكاد تقابل المدفأة في الغرب . وتغطي الأرض بسط ، على الأقل عند الطرفين حيث يوجد الديوان . وهو عبارة عن مصطبة ترتفع عن الأرض بمقدار قدمين ونصف ، مغطاة بالسجاجيد الفارسية الثمينة والطنافس الحريرية المذهبة ، أو بنسيج رفيع ينتهى بذوائب ذهبية . في هذا المكان ، يجلس الناس القرفصاء على نحو ما هو مألوف في الشرق . واشتمل المنزل الذى عاش فيه جان تينو في مطلع القرن السادس عشر على :

ست غرف أو سبع مرصوفة بالرخام والمرمر وغيره من الحجارة القيمة ، قد رصت بمهارة فائقة ، كما غطيت الجدران بنفس الخامات ، بعد أن طليت بألوان ناصعة مثل الذهبى والأزرق وغيرهما . وقد فاقت مهارة الصانع روعة الخامات . ووجدت في هذه الغرف نافورات ينبثق منها ماء بارد أو ساخن يجرى في أنابيب مختفية . وعلى مقربة من هذا المكان تنمو أشجار ونباتات كثيرة للفواكه مثل الليمون بأنواعه والقرع العسلى والبرتقال والمشمش والكاسيا والتفاح . وكانت هذه الحدائق ترش كل صباح ومساء بماء أحضر من النيل بواسطة الثيران والخيول .

وغالبا ما كانت الجدران تغطي بالرخام إلى ارتفاع عشرة أقدام أو اثني عشر قدما يعلوه افريز بديع صنع أحيانا من البرونز المذهب المرصع بالقيشاني الرائع الجمال . ويتكون السقف من دعائم خشبية تترك بينها مجار عائرة .

ومما أعجب به الرحالة الغربيون الأساليب التي استخدمت للتغلب على حر الصيف . فبالإضافة إلى أحواض الماء ، فتحت في السقف فجوات للتهوية تتجه نحو الشمال وتتصل بسرداب ضيق جدا يندفع الهواء عن طريقه بسرعة ليمتزج بالبرودة التي يخلفها الرخام والماء .

ويتلقى البيت القاهري ضوءه من الفناء الداخلي وليس من الطريق . ونكاد نقطع بأن البيت بنى من الداخل إلى الخارج وأغلق أصحابه بعد ذلك المنافذ على الشارع . وكانت هذه المنازل من الراحة والبعد عن ضوضاء المدينة بحيث تسمح لسكانها بأن يناووا بأنفسهم عن مشاغل أعمالهم وعن صخب المدينة ، وأن ينعموا بسويغات قليلة من الهدوء والراحة . وهناك ، خلف جدران هذه البيوت المغلقة ، يشعر المرء بالسكينة في عزلة عن مشاغل الحياة اليومية . وبالقرب من النافورة في صحن الدار ، يطيب للمرء أن ينعم بالتأمل الهادئ على صوت خرير الماء وشدو الطيور . ولم تؤثت هذه البيوت بالطريقة التي ننظم بها بيوتنا الآن ، فلم تشتمل مثلا على مطبخ ويذكر جميع الرحالة أن الأكل كان يجلب من الخارج ، ويؤتى به معدا ومطهوا من المطاعم التي كانت تنتشر في المدينة . كما لم توجد كراس يمكن نقلها ، إذ يجلس الناس على أرائك مغطاة بالبسط والطنافس . ولم توجد أيضا حشيات بالمعنى المعروف الآن ، وكان البساط كافيا . وهذا هو ما يعنيه جوبينو بقوله : « إن ما يسميه بعض الناس تقشفا كان يعتبر هنا غاية في البذخ » . وكانت أباريق الماء تحفظ في كوة صغيرة ، كما أن عدد الأواني النحاسية من أباريق وصوان وأكواب كان يتوقف على ثراء صاحب البيت . كما وجدت صناديق كثيرة مليئة بالحلى والخزف والسجاجيد النفيسة والوسائد ذات الأغشية المصنوعة بخيوط من الذهب والفضة . ومن أقيم ما اشتملت عليه ثروات هذه البيوت المنسوجات الثمينة ، ويدل على ذلك أنه في فترات المحن كانت المنسوجات أول شيء يخبأ في أماكن آمنة .

يهدف التصميم العام للبيت إلى ستر الحياة الداخلية للنساء ، وأن

يصون الحياة المنزلية من آعين الغرباء . وبسبب التعاريج في مدخل البيت ، أمكن ترك الباب مفتوحا ، رمزا للكرم ، ولا يستطيع أحد من المارة أن يقتحم المنزل . ويؤدي هذا الدهليز الملتوى إلى صحن الدار . وأهم مكان في البيت هو غرفة الاستقبال التي كانت خاصة بالرجال .

* * *

ومن الواضح أن المنازل بنيت بحيث تسمح بالمحافظة على بقاء النساء محجوبات . ومع ذلك ، فليس صحيحا أن نظن أن النساء كن محرومات من كل حرية ، فلعل القصص التي جاءتنا عن العالم الشرقي بالغت في وصف أمور أخرى كثيرة . ولكنها صريحة تماما في روايتها لأعيب النساء . فكان النساء يخرجن ويقصدن الحمامات العامة - على سبيل المثال - وهي مسألة لا يستهان بها . وكن يحضرن الأعياد والاحتفالات العائلية وحفلات الزواج والميلاد ، كما يذهبن إلى الحج ويحتشدن عند الأضرحة . ونستنتج من الطريقة التي نظمت بها منازل القاهرة وأثنت ، أن رب الأسرة كان يراعى رأى زوجته . فالنساء هن اللائي كن يتمتعن بفخامة البيت وبذخه ورونقه ، وكن ينعمن بجمال حدائق الزهور الداخلية .

ولابد أن النساء تمتعن بقدر كبير من الحرية إذا كان لنا أن نحكم من القيود التي فرضها دعاء الفضيلة من المتزمتين . فقد اعتقدوا أنه لا يليق بالنساء أن يزرن المقابر ، ولا أن يقمن في بيوت تطل على الخليج أو البرك ، بسبب المناظر التي يمكن أن يشاهدنها . وللسبب نفسه ، لا ينبغي للنساء أن يسافرن في القوارب ، ولا أن يحضرن الاحتفال بالمحمل .

وحسب هذه المبادئ الصارمة ، لا ينبغي أن تخرج النساء إلا عند الضرورة ، ويجب عليهن أن يرتدين أقدم ملابسهن . وكانت تغطيهن تماما عباءة تصل إلى الأرض . ولا ينبغي أن يلبسن أجمل ملابسهن ويسرن في خيلاء في الشوارع . ويعتبر وجود النساء عند تجار المنسوجات والحلى أو ابتسامهن عند الكلام معهم عملا شائنا . وكانت رؤية النساء في الأسواق في القاهرة أمرا مألوفا ، لدرجة أن أحد القضاة استنكر أن التجار حيوا بعض النساء من غير المسلمات . في ملابس غاية في البذخ ، ظنا منهم أنهم مسلمات . وفي « ألف ليلة وليلة » تقع معظم المغازلات في سوق الأقمشة . من الناحية النظرية المحضة ، كانت هناك ثلاثة أسباب فقط لمغادرة المرأة المنزل : ذهابها إلى بيت زوجها ، وحضورها جنازة والديها ، ودفنها

عند موتها . ولكن في الواقع ، كان هؤلاء النظريون المتزمتون يعرفون جيدا أن كلامهم كان مجرد صيحة في واد ، وأن النساء كن يذهبن كل أسبوع لزيارة ضريح سيدنا الحسين وضريح السيدة نفيسة .

وقد رأى فريسكوبالدى نساء القاهرة على هذا النحو :

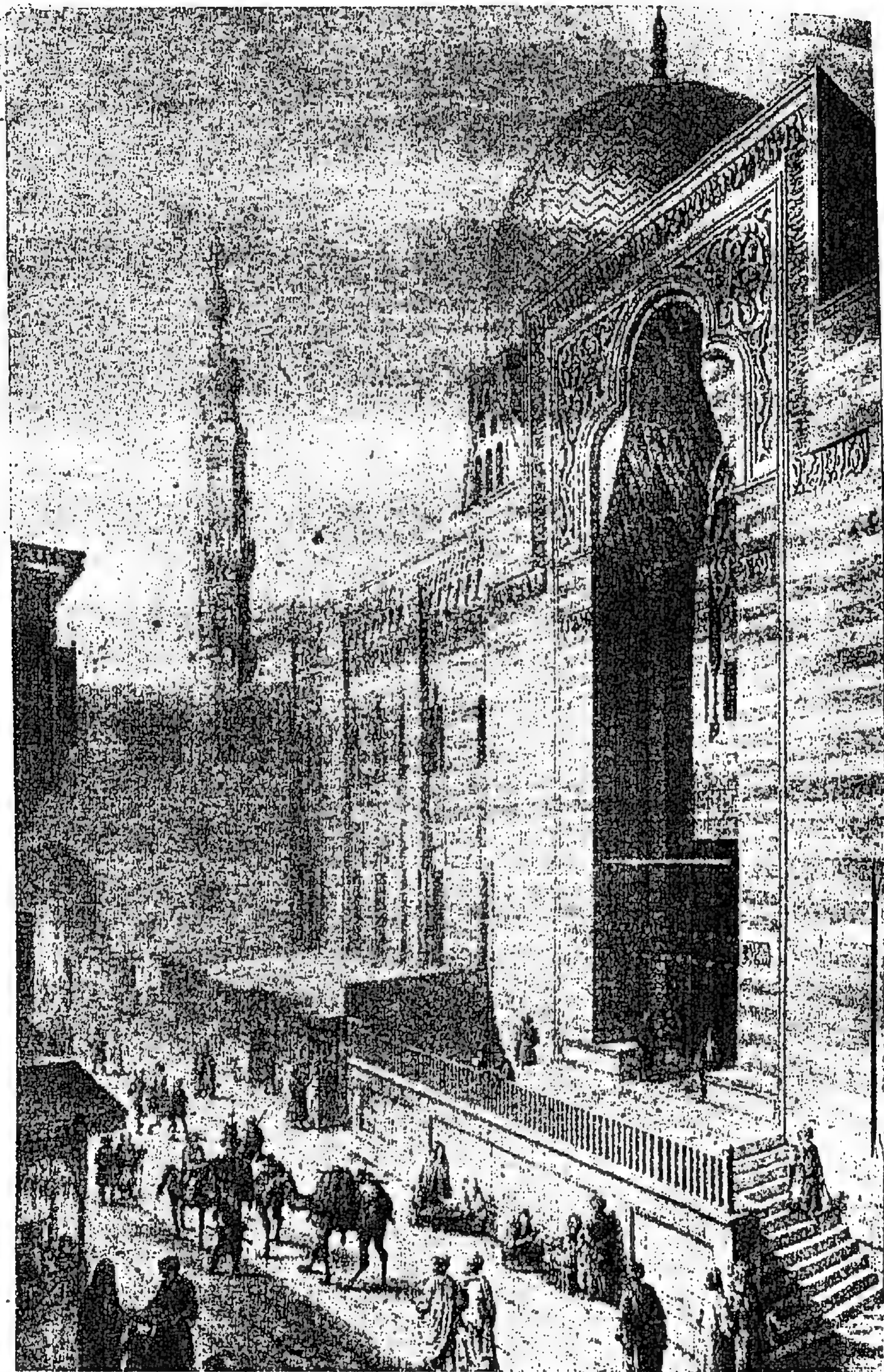
ملابس النساء بصورة عامة مصنوعة من أقمشة جيدة النسيج ، وملابسهن الداخلية مصنوعة من الخام ، أو من أرقى أنواع الكتان الاسكندري بالنسبة لأثرياء النساء . وتلبس بعض النساء ثوبا قصيرا من القطن يصل إلى الركبة ، وفي هذه الحالة كن يلبسن فوقه نوعا من الرداء الرومانى . وهن متحجبات تغطيهن الملابس ، ولا يرى منهن غير الأعين . وتضع نساء الأسر الكبيرة أمام أعينهن نقابا أسود من الموشلين السميك يحجب وجوههن عن الأعين بينما يسمح لهن بالرؤية الواضحة . ويلبسن في أقدامهن أحذية بيضاء ذات رقبة قصيرة ، بينما تغطي أرجلهن جوارب طويلة وسراويل تصل إلى الكعب . وتطرز نهاية هذه السراويل بخيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة ، أو تحلى بالأحجار الكريمة أو اللآلىء ، حسب وضع السيدة في المجتمع .

ويضيف تريفيزانو إلى ذلك قوله :

لا يظهر من جسم المرأة سوى الأيدي ، وهذا من النادر أيضا . وعند ذهابهن إلى المدينة ، كن يلبسن ثيابا بيضاء ويمتطين الحمير . وتشاهد أيدى بعض النساء وأظافرهن مطلية بالحناء . وهن ينفقن المال الكثير في شراء الحرير والروائح العطرية من الأسواق .







كانت الأسواق في القاهرة ، كما كانت في سائر المدن الشرقية ، تمتد الى ما لا نهاية . وفي ذلك يقول المقرئ (١) :

والقصبة هي أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثني عشر ألف حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلي الرمل الى المشهد النفيسى ..

ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد ان ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع الماكل والمشارب ، والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون : يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التي يوضع فيها اللبن ، والتي يوضع فيها الجبن ، والتي تاكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التي تعمل تحت الجبن في الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى والخيوط التي تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والافاوية وغيرها . فان هذه الأصناف المذكورة ، اذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت الى المزابل .. ويصف التجار أكوام الخبز وغيره من الأطعمة على الأرض ، وكثيرا ما وجهت الالتماسات الى المسئولين ليمنعوا أولئك القوم من عرض بضائعهم في الأسواق العامة نظرا لأنهم يسدون الشوارع الضيقة ويتسببون في الاضرار بمصالح أصحاب الحوانيت ..

ويوجد وراء باب الفتوح سور مسجد الحاكم بمأذنه المربعة التي تتفق هندسيا والأسوار المحيطة بها ، ويذكرنا هذا المسجد بأعمدته القصيرة الغليظة بتصميم مسجد ابن طولون ، ويصف ماريلا مسجد الحاكم بقوله : « لم يبق منه سوى بقايا مذهب تبعت على الحسرة ، وعقود ترتفع في أنف نحو السماء الصاقية ، وأعمدته قائمة مشوهة . وفي وسط هذا

(١) الخطوط ٢ : ٩٤ - ٩٥ .

الدمار تجد قافلة قد حطت رحالها بعد أن هدها العناء الذى يحدثه الصراع بين الظل وحر الشمس اللافح »

وفى داخل باب الفتوح ، توجد حوانيت القصابين وتجار الحبوب والخضر وغيرهم من الباعة، وهو أشهر أسواق القاهرة وأكثرها ازدحاما . ويقصدها الناس من كل مكان فى البلاد ليشتروا جميع أنواع الخضر وشتى أصناف اللحوم من ضأن وبقر وماعز . وكان القصابون يلفون اللحم فى أوراق شجر الموز ..

... وغير بعيد من هذا المكان ، يقع سوق المرحطين ، وهى سوق اختصت ببيع ما يحتاج اليه فى ترحيل الجمال وكل شىء آخر يتعلق بأردية الابل . ويؤمها الناس من كل أرجاء مصر ، وخاصة قبل موسم الحج ، فكل من أراد أن يعد مائة جمل أو أكثر فى يوم واحد ووجد مشقة فى تحقيق ذلك يمكنه أن يحقق غايته هنا نظرا لوفرة كمية المعدات اللازمة فى المتاجر ومخازن التجار ..

وعلى طول الطريق من باب الفتوح الى المسجد الأقمر . يباع الطعام ، من لحوم نيئة ومطهوه وخبز وزيت وجبن ولبن وخضروات وأنواع التوابل المختلفة ، كما وجد عدد كبير من المحلات حيث تباع الأطعمة المشوية والمحمرة ليلا ونهارا . وهناك ، الى جانب ذلك ، الطهاة المتجولون ، ليس فى هذا المكان فحسب وإنما فى شتى أرجاء المدينة ، اذ يبدو أن سكان القاهرة قلما كانوا يعدون طعامهم فى البيوت ، وكانوا يشترونه مطهوا معدا من المتعهدين وكبار الطهاة الذين انتشروا فى أنحاء المدينة وتخصصوا فى هذا النوع من العمل . فيقال أنه وجد عدد يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف طاه يتجولون فى شوارع المدينة ويحملون على رؤوسهم أفرانا موقدة عليها أوعية ساخنة أو لحم يشوى على السفود ، يقدمونها ساخنة لمن يطلبها . ويضيف فريسكوبالدى ان الطهاة كانوا يجهزون الطعام فى أوعية نحاسية جميلة . ويقال إنه من المألوف أن يجلس أهل المدينة ويأكلوا فى الشوارع ، مادين على الأرض رقعة من الجلد يضعون عليها وعاء يحتوى على طعامهم ويجتمعون حوله جالسين القرفصاء . وهكذا ، كان القوم يأكلون ما يشترونه من تلك المطابخ التى كانت مزودة بكميات وافرة من اللحم وخاصة الضأن والدجاج والأوز ، وبكمية أكبر من الأرز والمقليات بالزيت . وبعض التفصيلات الأخرى تخبرنا :

ان الطهارة كانوا يقطعون اللحم الى قطع صغيرة يضعونها في السفود ، كما تفعل نحن بصغار الطيور ، ثم يصفونها على افران لا غطاء لها ، تنضج اللحم في لحظات . وأحيانا يشوون حملا كاملا وبعد نضجه يحمله رجل على كتفيه ويضع على رأسه منضدة متنقلا بها في الشوارع مناديا : الى عايز ياكل لحمه ؟ ، ونظرا لعدم وجود فنادق تقدم الطعام ، كان الغرباء مضطرين الى الأكل حيث يكونون .

وإذا تابعنا السير في الطريق ، نرى ناحية اليسار الواجهة الضيقة للمسجد الأحمر بطابعها الحزين الخلاب . ولنقف قليلا نتأمل روعة ذلك البناء . قد لا يروعك مظهره عند مقارنته بالأبواب الضخمة عند مدخل المدينة او بالأبنية الجلييلة التي اقامها المماليك والتي سترها بعد قليل ، ولكن هناك أكثر من سبب يدعونا للاعجاب به . فهنا تمكن العالم الأثري من ان يحل مشكلات عدة تتعلق بتطور فن الزخرفة الاسلامية . اما بالنسبة للفنان ، فهو مثال للتعبير الهادئ والبساطة الأخاذة . وتعتبر هذه الجوهرة من أكثر اعمال الفاطميين جمالا ..

وعلى مقربة من هذا المسجد ، كانت تقوم سوق الشماعين ، ترى بها اشربة الاضاءة للمصابيح والمشاعل التي يحملها رؤساء دوريات الحراسة ، والشموع الضخمة التي كانت تستخدم في المواكب . وبطبيعة الحال ، لم تعد تصنع في ذلك الوقت الشموع التي كانت تثبت على مؤخر الدواب زمن الاخشيديين (كان راكبو الدواب مضطرين للتلفت خلفهم بصورة مستمرة للتأكد من موضع الشموع) . وكانت الحوانيت تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل ، واصبحت ملتقى المومسات اللائى أطلق عليهن نتيجة لذلك اسم نساء الشماعين الفاجرات ، وكن يرتدين ملابس زاهية الألوان ليسهل التعرف عليهن ..

ويلي هذه المنطقة مباشرة ، من ناحية الشمال ، تجاه باب النصر ، سوق البرازين ، مكتظة بتجار الأقمشة ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف ، مثل النساجين والحلاجين والصباغين والرقائين والخياطين والغسالين والكوائين والرسامين - وبعبارة أخرى ، كل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات . وعلى مقربة منهم ، كان هناك آخرون من أصحاب الحرف المتخصصة ، مثل أولئك الذين كانوا يصنعون الضبيب التي يرسم الابواب ، وهى أقفال عجيبة بهرت الرحالة الأوربيين . ويقول أحد أولئك الرحالة :

تصنع الأقفال والمفاتيح من الخشب فقط ، بما في ذلك أقفال أبواب المدينة . والمفتاح يتكون من قطعة من الخشب يبلغ طولها نصف قدم وعرضها بوصة وهي في سمك الأصبع الخنصر ، ومثبتة في طرفها ستة أو ثمانية مسامير من النحاس أو حتى من الخشب طولها حوالى بوصة واحدة . وعندما تقابل تلك المسامير مثيلاتها داخل القفل ، ترفعها وينفتح القفل ..

وكان يوجد بالقرب من هذا المكان ، في القرن الرابع عشر ، سوق العبيد ، الذى نقل فيما بعد الى خان الخليلى الذى ذاع صيته وأصبح الرحالة يهتمون بوصفه ابتداء من القرن السادس عشر . هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع وأكثرهم كانوا عراة سوى قطعة من القماش تستر عوراتهم . ويقوم المشترون بفحص جميع أجزاء الجسم ليتأكدوا من سلامة أبدانهم ، كما يفعل المرء الآن عند شراء الخيول . « وكانوا يتحسسون العبيد بأيديهم بكثرة ، فالأيدى تختبر سلامة عضلات الساق ، ورقة الجلد ، وصلابة الصدر ، وحجم قبضة اليد القوية » . وكان يعرض خليط من النساء : التركيات واليونانيات والجركسيات والجورجيات والحبشيّات . ونكاد نسمع بأذاننا نداءات النحاس وهو يردد بصوت مازح تلك العبارات الواردة في كتاب « ألف ليلة وليلة » : « أيها التجار الأثرياء ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل من استطال موزة ، ولا كل ما احمر لحما ، ولا كل سمراء ثمرة .. أيها التاجر كم تدفع لهذه الجوهرة الفريدة التى تفوق قيمتها جميع أموالك ؟ من يقترح العرض الأول ؟ » .

وخلف المسجد الأقمر من ناحية الجنوب ، كان هناك ذلك السوق الفسيح للدجاجين ، وكان يباع فيه من الدجاج والأوز شئ كثير جليل الى الغاية . وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها . كما كانت تباع بها بكرة طيور المسموع من أصناف القمارى والهزارات والشحارير والبيغا والسمان فى أقفاصها ^(١) .

نصل بعد ذلك الى حى من أمتع احياء القاهرة وأكثرها ازدحاما ، وهو شارع بين القصرين ، الذى ترجع تسميته الى العصر الفاطمى ، وكان فى ذلك العصر منطقة كبيرة خالية من المباني والمنشآت ، تسع نحواً من عشرة آلاف جندى سواء من الخيالة أو المشاة . فكانت تقام فى هذا المكان المواكب

والاستعراضات العسكرية . وبعد زوال الفاطميين ، حين سكن أمراء الأيوبيين وضباطهم القصور الخالية ، تحول المكان الى سوق للأطعمة ، بأنواعها المختلفة ، من لحوم وفطائر وفواكه وغير ذلك من ألوان الطعام . ومع ذلك ، فقد ظل مكانا ممتعا يحلو للنبلاء وعلية القوم أن يسيروا فيه في المساء للترويح عن النفس ومشاهدة الأضواء المنتشرة المنبعثة من المصابيح والثريات . وكثيرا ما أحتشد الناس لسماع ملاحم السير والقصص التاريخية أو لمشاهدة الألعاب المختلفة ..

بعد ذلك ، أنشئ في هذا المكان مجموعة من المباني الرائعة ، مما جعله يتحول الى ما يمكن ان يسمى بمتحف حقيقي للعمارة . فهناك ، أولا ، مدرسة السلطان برقوق ، التي تلفت النظر بجدرانها العالية ومئذنتها القصيرة الغليظة . وبعد ذلك بمائة سنة ، قامت المباني التي أنشأها السلطان قلاوون وابنه محمد . ومما يثير الاهتمام ، بوابة غربية نعرف انها كانت بابا لكنيسة للفرنجية أحضر من فلسطين ولم يؤخذ كغنيمة حرب ، على انه يدل على اختيار رجل ذى ذوق رفيع . واذا ما يممنا شطر الشرق وعرجنا قليلا ، نصل الى ضريح الملك الصالح أيوب ، خصم القديس لويس ..

هذه المباني التي ترجع الى عصور مختلفة وتتميز بأساليب معمارية متباينة وتخدم غايات متفرقة ، تقف جميعها جنبا الى جنب دون أن يشعر الانسان بأى تناقض بينها ، بل انها لتكون معا نسقا واحدا . ولعل ذلك راجع الى شدة الضوء واستقلال المباني مما يسمح بتميز الأشياء عند النظرة الاولى . نحن هنا أمام مجموعة فريدة ومثيرة من المباني التاريخية . ويزين المباني الأربعة التي تكون الواجهة الغربية صفوف من النقوش التي تبعث في نفس الزائر شعورا بسحر فن الكتابة العربية .. ووجد في هذا المكان أيضا ، عند بداية العصر المملوكي ، سوق السلاح ، حيث تباع القسي والسهام والدروع ، ولكنه نقل فيما بعد الى مكان قريب من القلعة ..

ونظرا لتوسط هذا الموقع بين الأسواق على طول المحور الممتد من الشمال الى الجنوب ، فقد وجد به عدد كبير من الصيارفة الذين اتخذوا مواقعهم في هذه المنطقة . وتجد على مسافة غير بعيدة ، مصاطب سوق الصناديقين حيث كانت تعرض الحلى . وهذه الصناديق الصغيرة

مصنوعة من الحديد المتشابك وتحتوى على خواتم وأختام وأساور وخلاخيل ..

وإذا استأنفت السير ، وجدت باعة الأمشاط والوراقين وصانعى الحلوى (الكعكيين) المزودين بكميات كبيرة من الفستق واللوز والزبيب . وإلى جوارهم ، يعرض المهاميزيون أنواعا شتى ، من أبسطها المصنوع من الحديد إلى أفخمها المصنوع من الفضة أو الذهب الخالص . وكانوا يصنعون أيضا سائر أطقم الخيل . وعلى مقربة من هذه السوق ، كان يقوم سوق السروجيين ، حيث تشاهد اللجم والسيور ، وبصفة خاصة اللجم المصنوعة من الجلد المصبوغ بألوان مختلفة ، منها البسيط ومنها المطلى بالذهب والفضة . وبعد ذلك تأتي متاجر باعة المنسوجات المستوردة التى كانت تستخدم فى أغراض الرياش والوسائد وبطانة السروج ، وقد زاد الإقبال على تلك الأقمشة عن طريق الطبقة المتوسطة فى القرن الخامس عشر .

نأتى بعد ذلك إلى مبانى السلطان الغورى التى تكشف عن ذوق رجل محدث الثراء ، أن جاز لنا أن نطلق على مملوك مثل هذا الوصف . فاعماله تمثل أسلوبا ينتمى إلى طبقة نبيلة منحلة . فهناك تقليد ضعيف لأعمال فنية ترجع إلى عصور الأصالة السابقة . فهذا الفن الذى يمكن أن يوصف بالحدقة الشديدة والمظهرية انتشر وأوشك أن يتخذ له قواعد مدرسة محددة . ويمكن أن نقول ، بعد مقارنة هذه الأعمال بسابقاتها . أن صناع السلطان الغورى بالغوا فى أعمالهم محاولة منهم فى أن يخلقوا لنا نماذج من أسلوب وشيك الزوال . فرغم اتقان الزخرفة من ناحية الصنعة ، فهى مجرد استمرار لما سبقها دون أن يكون لها أية شخصية قائمة بذاتها . وإن مقدرة الفنانين التى لا يمكن إنكارها لتكشف عن دراية بفنون الصنعة أكثر مما تدل على عبقرية خلاقية . فقد يسرنا ، مثلا ، دون أن يحركنا ، مظهر الكتابة الهزيلة التى تبعث على السخرية ، خالية من مظاهر الجدية والقوة . ويمكن تعريف عمل هؤلاء الفنانين الصغار بأنه مجهود محمود قام به تلميذ مجد ، ففنانو هذه الفترة يميلون إلى المبالغة فى التجميل بالنسبة إلى زخرفة قد استكملت تنميقها ، دون أن يدركوا أن البساطة جمالا أكثر .

وكان يقوم فى جوار الجامع الأزهر ، غير بعيد من هذا المكان ، سوق

الفرائين ، وتباع فيه انواع الفراء كالسمور والوشق والعمائم والسنباب .
فكان يستخدمها . فى أول الأمر ، قواد السلطان وكبار الموظفين ، ثم
استخدمها بعد ذلك ، فى نهاية القرن الرابع عشر ، نساء الطبقة الثرية ..
وكان هناك فى هذه المنطقة أيضا سوق النجارين حيث تباع المحفورات
الخشبية ومن أشهرها ، بطبيعة الحال ، المشربيات . ولم يكن بمقدور
هؤلاء الصناع الذين استخدموا أصابع أقدامهم فى العمل أن يصلوا
بصنعتهم الى تلك الدرجة من المهارة والدقة والسرعة لو أنهم استخدموا
أيديهم ..

وخلف الموقع الذى شيدت عليه مباني السلطان الغورى ، فى أوائل
القرن السادس عشر ، وجدت فى القرن الرابع عشر سوق مزدهر للكفتين ،
لصناعة النحاس المكفت . فهذه الأوعية الجميلة المطعمة بالذهب والفضة
واشتملت على الصوانى والطاسات والأباريق والعلب الصغيرة والمباخر .
ولا يكاد يوجد بيت بالقاهرة أو مصر يخلو من عدة قطع نحاس مكفت .
ولكن هذه الطبقة من الصناع كادت تنقرض تماما خلال القرن الخامس
عشر .

وفى هذا الوقت ، كانت المئذنتان قد تم تشييدهما بمهارة فائقة فوق باب
زويلة ، وهو الحد الجنوبى للمدينة الفاطمية . وهما تكونان جزءا من
المسجد الذى أقامه الملك المؤيد والذى سنعرض لمشرفاته الغربية بعد
قليل ..

وكان باب زويلة أيام المماليك يكون مدخل السلاطين الى المدينة من جهة
القلعة ، وعليه كانت تعلق جثث المجرمين الخطرين ، وخاصة اسرى
الحرب ، لتكون عبرة للناس . وهو فى ذلك يشبه شارع الاستراياد فى
باريس الذى اقيمت عنده المقاصل .

على مقربة منه كان يقوم سوق الحلاويين ، وهم الذين تخصصوا فى عمل
الحلوى الملونة والدمى المصنوعة من السكر ، ولقد استاء المسلمون
المتعصبون لمنظر بيع الحلوى على صورة الانسان أو الحيوان أو الحصان
أو الأسد أو القط . وروى المقرئزى (١) :

ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل وعدة شقاف من خرف أحمر ، فى بعضها
لنز . وفى بعضها انواع الأحيان ، وفيما بين الشقاف الخيار والموز .

وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضا لهم عدة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسننها ..

وفي سوق آخر مجاور كانت تباع الآلات الموسيقية مثل القيثارة والعود ، وكان هذا المكان ملتقى أصحاب المجون والشخصيات الخليعة . وكثيرا ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة ، فذكر أحدهم في أسلوب شاعري : « اذا كان لى أن أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفينى هذا الكتاب . إذ لو أمكن ضم مدن رومة وميلانو وبادوه وفلورنسة وأربعة أخرى من المدن بعضها الى بعض ، أقسم انها جميعا لاتحتوى على نصف ثروة القاهرة ، فقد تمتعت القاهرة بحركة تجارية ضخمة نظرا لأن البضائع تدفقت عليها من الهند والحبشة وشمال افريقية وآسيا الصغرى وأوربية . فكانت ترى بها كميات كبيرة من الحرير ، والأصبغ القرمزية ، والماس المتألئ ، والأحجار الكريمة ، والزجاج الملون ذى النماذج الجميلة الذى كان يصنع فى دمشق فى ذلك الوقت ، ثم هناك الأوانى الذهبية والفضية والنحاسية قد نقشت فى أسلوب شرقى بفن رفيع . ويمكننا أن نضيف أيضا انه وجد فى هذه المدينة ، كما هو الحال فى مصر بأسرها ، انواع الورد والأزهار والفواكه المختلفة فى جميع الفصول وبأسعار معتدلة .

ويوجد فى انحاء المدينة المختلفة أسواق متعددة وساحات عامة شيدت لأغراض التجارة ، وهى التى تسمى « قيسارية » ، وقد خصصت كل واحدة منها لبيع سلعة معينة . وبعضها يبيع الأشياء التى تجلبها القوافل من الحبشة مثل العقاقير واللبغاوات والتبر . وقد كان هناك سوق خاصة لكل من الأحجار الكريمة والمنسوجات والأقمشة الثمينة وغيرها من المصنوعات ، وعلى المرء اذا أراد شراء شئ أن يعرف السوق المختصة به ومحتوياتها من البضائع . وبعض الأسواق مكشوف وبعضها مسقوف ، وكانت هناك قوانين مرعية تحكم هذه الأسواق وقد اعتقد الجميع أنها بلغت مستوى عاليا فى القاهرة ، وكنت تجد فى كل واحدة من هذه الأسواق جمعا غفيرا من الناس لأنهم اعتقدوا انها المكان الأصلى لهم فى المزايدة الجماعية ، كما هى الحال فى بورصات باريس وانتويرب وليون . ويقول سيمون سيجولى :

تزخر المدينة بكميات كبيرة من البضائع من شتى الأنواع ، وخاصة

التوابل بأنواعها ، التى تجلب من بلاد الهند عبر المحيط والبحر الأحمر ، ثم تفرغ عند ميناء الطور الذى يقع على مسافة خمسة عشر ميلا أسفل جبل سيناء . وهناك وقرة من السكر الأبيض كالثلج . والصلب كالحجر ، وهو خير سكر فى العالم . وتنقل البضائع ، بعد تفريغها فى هذا الميناء ، على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة . وتستغرق هذه الرحلة ثلاثة عشر يوما لا يرى أثناءها بيت أو جدار ، وكل ما يرى هو الجبل والسهل الرملى تغطيه الحجارة والحصى ..

ويحلو للمقريزى أن يطيل الحديث فى وصف رخاء أسواق القاهرة ، ولكن كل جملة من كلامه تنتهى بعبارة من الأسى تذكر بزوال معظم الدكاكين . وكم تألم مؤرخنا للمنظر الحزين الذى كانت عليه الأسواق فى أيامه - فى منتصف القرن الخامس عشر - حين أصبحت « أوحش من وتد فى قاع (١) » . وهو تصوير صحيح . فنحن نلاحظ ، فى القرن الخامس عشر ، انحطاط جميع الصناعات الفنية واختفاء بعضها تماما مثل صناعة الزجاج المطلى بالميناء والنحاس المطعم . ومع ذلك فمن المفيد أن نورد وصف ليو الأفريقى (وهو أبو الحسن الوزان الفاسى) الذى لا يخلو من حماسة فى الربع الأول من القرن السادس عشر :

تمتلئ المدينة بالصناع والتجار ، ويكثر بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر وباب زويلة : فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة . ويوجد فى هذه الطريق عدد من المدارس التى تثير الإعجاب بسبب حجمها وارتفاعاتها الرائعة الجمال . وهناك أيضا عدد من الحمامات العامة التى بنيت بفن معمارى رفيع .

ويضم أحد الأحياء ، وهو الذى يسمى بين القصرين ، محلات تباع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستين محلا تقريبا ، مزودة بأطباق من الصفيح . وفى محلات أخرى ، يباع ماء الزهر وماء الورد المعروف بطيب مذاقه ، ولهذا تقبل عليه الأسر الكبيرة . وهو يحفظ فى قنار من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية . وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبا . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر . ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى

لاتنمو في مصر مثل الكمثرى (الأجاص) والسفرجل والرمان . ويتخلل هذه الحوانيت محال اخرى تباع المقلبات من البيض والجبن . وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرفيعة .. وبعد ذلك توجد المدرسة الجديدة التي بناها السلطان الغورى ، وبعد المدرسة توجد « فنادق » المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت . ففي الفندق الأول ، تباع الأقمشة الأجنبية من أحسن الأنواع ، مثل تلك التي تأتي من بعلبك ، وهى نسيج قطنى رفيع ، والمنسوجات التي تأتي من الموصل ، وهى التي حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها على القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وعمائمهم . وبعد ذلك تأتي الفنادق التي تباع فيها أجمل الأقمشة الإيطالية . مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأؤكد لك بأننى لم أر مثيلا لها في ايطالية حيث صنعت . وبعد ذلك تأتي فنادق المنسوجات الصوفية التي تأتي من جميع الدول الأوروبية ، فأقمشة من البندقية وميورقة وهولندية . وهناك مكان لبيع الأقمشة المصنوعة من وبر الجمال . وشيئا فشيئا نصل الى باب زويله ، حيث يوجد عدد كبير أيضا من الصناع . وبجانب هذا الطريق ، نرى فندقا يدعى خان الخليلي حيث التجار الفرس ، ويبدو هذا الفندق كقصر عظيم ، فهو مرتفع البناء متينه ويتكون من ثلاثة طوابق . وفي الطابق السفلى يستقبل التجار زبائنهم ويبيعون البضائع الثمينة ، ولاتجد في هذا الفندق إلا اثرياء التجار الذين يبيعون التوابل والأحجار الكريمة والأقمشة الهندية الثمينة .

وعلى الجانب الآخر من الشارع الرئيسى ، يوجد جزء خاص بتجار الروائح العطرية الذين يبيعون الزبد والمسك والعنبر واللبان الجاوى . وتوجد هذه المنتجات بوفرة بحيث انك اذا أردت أن تشتري درهم مسك من تاجر أراك مائة رطل منه . وهذا أمر عجيب . والمنطقة التي يباع فيها الورق المصقول الجميل تتاخم هذا الشارع الرئيسى ، ويبيع تجار هذا الورق أيضا الأحجار الكريمة . وبعض الأشخاص يحملونها من محل الى محل لعرضها للبيع لأكثر من مزاييد ..

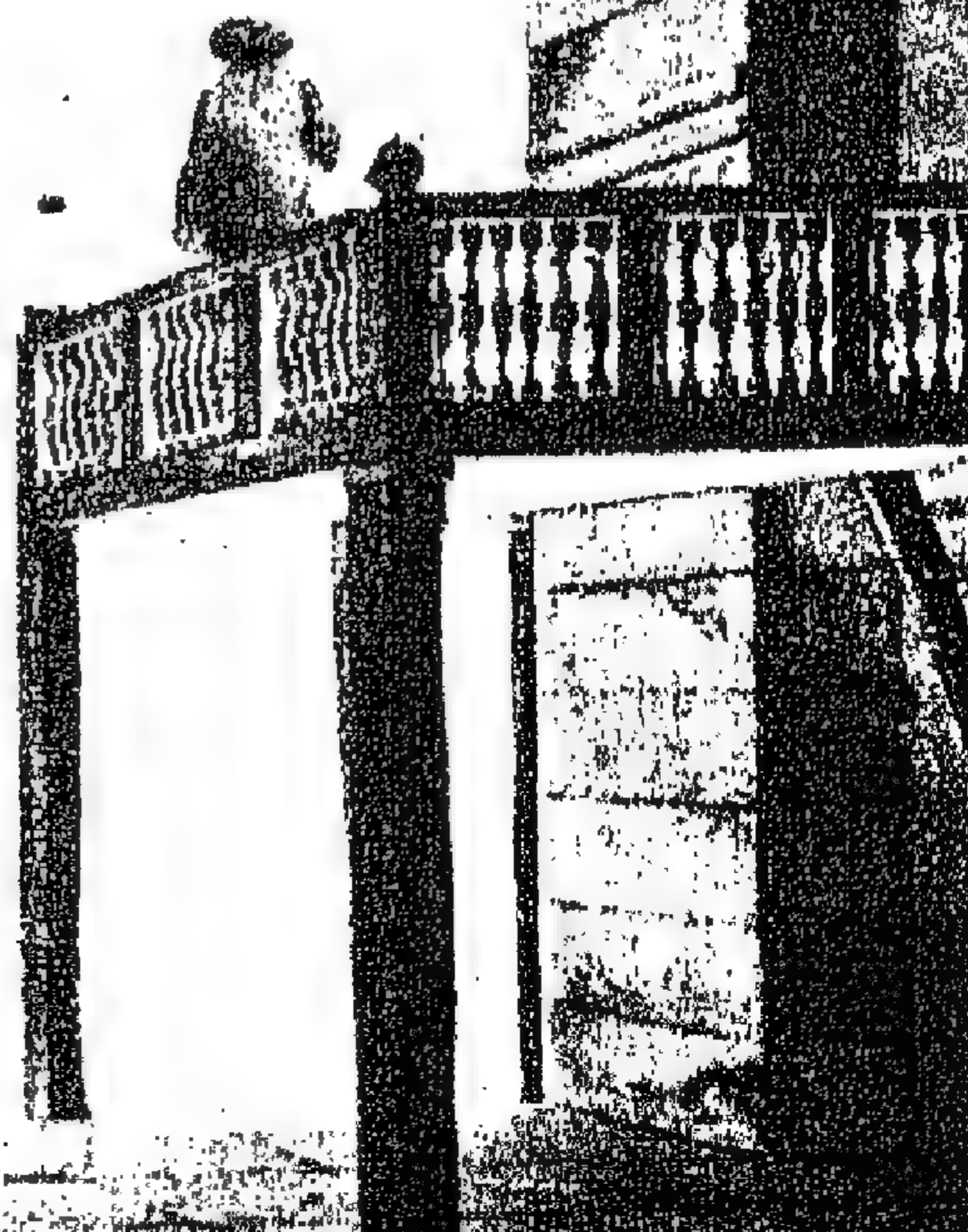
ويقع أيضا على هذا الطريق الرئيسى منطقة صائغى الذهب ، وهم جماعة من اليهود الذين تتركز . في أيديهم ثروة كبيرة . وفي منطقة اخرى ، اتخذ تجار الأشياء المستعملة سوقا لهم . وهم يبيعون أقمشة من أنواع

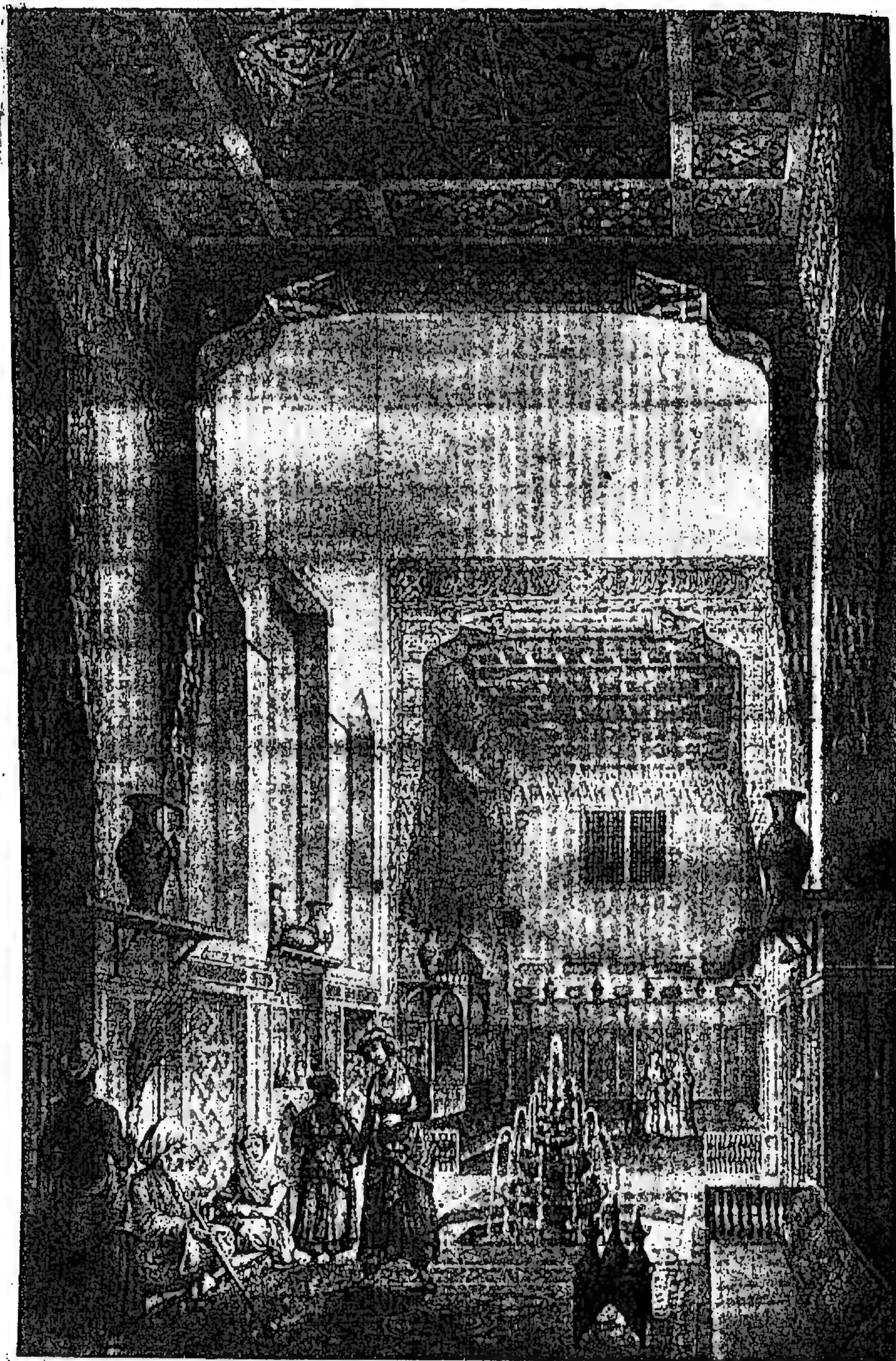
ممتازة باعها لهم اهل المدينة وعلية القوم فيها . ولن تجد هنا ملابس
وأردية مستعملة وانما قطعاً من أفخر المنسوجات وأقيمها ..
ويضيف ليو الأفريقى بعض التفاصيل التى تصور لنا مجتمعاً
متماسكاً كأعضاء الجسم الواحد :

وإذا ما حدث أن انتج أحد الصناع عملاً جميلاً ماهراً لم ير مثيل له من
قبل ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت ، يصبحه
الموسيقيون فيما هو أشبه بموكب النصر ، ويعطيه كل شخص بعض
المال . ولقد رأيت فى القاهرة أحد هذه الموكب التشريفية لرجل صنع
سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيداً على قطعة من الورق . كما رأيت أحد أعمال
القوة العظيمة قام بها أحد السقائين الذين يسرون فى الشوارع حاملين
قرباً من الجلد تتدلى من أعناقهم . فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة
عجل مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد . وفعلاً استمر هذا الرجل
طيلة سبعة أيام متتابة من الصباح الى المساء يحمل هذه القربة التى
علقت بسلسلة على كتفه العارى ، ففاز بالرهان ، وحاز شرف موكب نصر
عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين فى القاهرة الذين بلغ عددهم
ثلاثة آلاف سقاء ..



— ٧ —
الأعياد والأفراح





في المناسبات السعيدة ، تدق الطبول من القلعة . فتتزين
المدينة بالرايات والبنود لمدة سبعة أيام ، ويسمح للأهالي
بالانطلاق التام في مرح جنونى ..

وتعلق في هذه المناسبات الرايات والحلل والمناديل والاقمشة الثمينة
الملونة والبيضاء ، وكذلك الستور من المخمل والحرير من النوافذ في عرض
لا مثيل له من الروعة والجمال . وبعض الناس يعرضون الدروع والقسي
والخوذ والزرديات وحتى الحل . وهذا يذكرنا بعبارة فرواسار : « واعلم
ان شارع سان دنيس بطوله كانت تزيينه اعداد لا حصر لها من الرايات من
الاقمشة الحريرية الثمينة حتى ليحسب الانسان انها لا تكلف صاحبها
شيئا أو انه في الاسكندرية أو في دمشق » . ويمكننا ان نضيف الى هذا
القول عبارة الرحلة ابن بطوطة : « شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك
الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم
الحلل والحلى وثياب الحرير . وبقوا على ذلك أياما » . كما يزينون داخل
متاجرهم بالاقمشة . وينشرون الحرائر على الارض في الطرقات . وفي أماكن
متفرقة من المدينة ، تقام أحواض مليئة بالشراب الذى يقدم للمارة . وعلى
طول طريق الموكب ، تقام المنصات التى تعزف عليها فرق موسيقية من
طبالين وزمارين ومغنين . ومن اسطح البيوت والشرفات تنطلق زغاريد
النساء المرحّة التى يصفها لنا ببير بيلون على النوح التالى : « يفتح الفم
الى اقصى اتساعه فينبعث منه صوت نشار ؛ ويحرك اللسان بين الاسنان ثم
يسحب الى الخلف نحو سقف الحلق فتنتطلق صرخة حادة تشبه صيحات
القرويات اللاتى يبعن اللبن فى باريس » .

وفي مناسبات معينة مثل الانتصارات الحربية أو قران بعض الاميرات
أو كبار رجال الحاشية ، تشارك الاسواق فى المهرجانات ، فتزين الدكاكين
بالرايات وتضاء طوال الليل . وتبدو المدينة متوهجة بسبب العدد الذى
لا حصر له من المصابيح التى تضاء فى كل مكان . فهناك الثريات الزجاجية
الكبيرة ، وآلاف القناديل والمصابيح ذات الضوء الخافت . والصواريخ .
ولعل المسؤولية الكبرى فى هذه الاحتفالات تقع على عاتق أغنياء طوائف
الحرف . فنحن نعرف انه فى زمن الخلفاء الفاطميين ، كان تجار الجواهر
ورجال المصارف وصائغو الذهب وتجار المنسوجات مسؤولين عن تعليق
الرايات والبنود على طول طريق موكب الاحتفال .

ولنعرض الآن لوصف احد هذه الاحتفالات . يسير على رأس الموكب ثلة
من الجنود وتتبعهم جوقة من الموسيقيين ، بعضهم ينفخ فى الابواق

النحاسية التي يقابل اصواتها القوية صوت الناي الخافت الحزين المنبعث من جوقة اخرى ، وعلى مسافة منهم يسير المنشدون ، يرددون الاشعار على ضربات الدفوف الخفيفة .

وكان هناك تنظيم رسمي دقيق في تحديد اماكن الضباط الذين يسرون امام السلطان ، فكان النظارة يرونهم يتتابعون على هذا النحو : عشرة من الجنود المنشأة شاهرين البلط . يتبعهم على صهوتى جوادين اشهبين اثنان من الغلمان ، يلبسان طاقيتين صفراوين وثوبين من الحرير الاصفر المطرز بالذهب ، وتخفق فوقهما رايتان مشغولتان بالذهب مثبتتان خلفهما عند نهاية سرج من الجلد المغطى بالذهب ايضا ، حتى ليحسب الانسان انه من صنع صائغ . كانت هذه بعض شارات السلطنة ، ولذلك يحملها اثنان من أهم رجال الدولة . وبعد ذلك يظهر السلطان ممتطيا صهوة جواد مطهم يلمع معدنه تحت اشعة الشمس وقد غطيت عنقه بقطعة من الحرير الاصفر المشغول بالذهب . وتمثل ملابس السلطان بقعة قائمة في وسط هذا اللون الفاقع . فتغطي رأسه عمامة من الحرير الاسود تتدلى عذبتها على كتفيه كشرائط العلم . ويلبس السلطان رداء طويلا من الحرير الاسود له اكمام واسعة . والنسيج كله من لون واحد بلا تطريز . ويتدلى على جانبه الايسر سيف معلق من حزام يدور حول كتفه الايمن . ويرفع احد كبار رجال القصر فوق رأس السلطان شارة اخرى من شارات السلطنة ، وهي مظلة صفراء مطرزة بالذهب عليها كرة ذهبية قد وقف عليها طائر ذهبي . ويسير على يمين السلطان شاب طويل القامة متين البنية ذو مظهر عسكري يحمل في يده هراوة أو عصا ضخمة تنتهي بطرف مذهب . ويحمل أمام الجنود عدد من الاعلام المصنوعة من الحرير الذي تتخلله بعض خيوط ذهبية . ويوجد فوق ساريات الاعلام قطع من الفراء .

« في يوم ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٥٠٠ ، ذهب السلطان ليرأس مأدبة الافطار في شهر رمضان . فامتطى صهوة فرس أبيض يغطيه سرج ابيض فضي ، بينما ارتدى ملابس من الحرير الابيض وحذاء ابيض ينتهي بمهماز مغطى بطبقة من الفضة ؛ وحتى نعل حذائه كان من الجلد الابيض ، وغطاء رأسه من الصوف الابيض . وكان ذلك في الواقع زيا غريبا ؛ وتشاءم الناس من ملابسه البيضاء ، ثم حدث فعلا أن عزل السلطان بعد ذلك بقليل . »

وكان الموكب يضم في بعض الاحيان كبار الاسرى ، بعضهم يمشى وبعضهم يجلس على دواب ، وجميعهم مقيدون بالسلاسل . ويسير خلفهم

الجنود حاملين اسلاب الحرب التى غنمت من الاعداء ، وخاصة طبولهم التى مزقت وراياتهم التى تحمل منكسة الى اسفل رمزا للهزيمة .

وقد بقى لنا وصف يوم الاحتفال كبير حين عرض أمير من اسرة على دولات الذى كان قد أسر بعد معركة ضارية . حدث ذلك فى شهر آب (أغسطس) سنة ١٤٧٢ ، أيام الحر القائظ . أمر السلطان بأن يدهن باب النصر وباب زويلة باللون الابيض وأن يزينا بشعار السلطان . وزينت المدينة بالرايات الجميلة ، واصبحت فى حالة من التطلع نظرا لأن كل شخص كان يريد رؤية الموكب عند مروره . وبلغ ايجار منزل يقع على طريق الموكب أربعة دنانير اشرفية ، وايجار مكان فى دكان دينارا اشرفيا . واوكب الامير المهزوم فوق حصان ، لابسا رداء اسود وعمامة ضخمة ، وحول رقبتة طوق من الحديد متصل بسلسلة ثقيلة امسك بها ضابط راكب الى جانبه . وكان هذا الموكب المهيب يتكون من الضباط الذين اشتركوا فى الحملة ، تتبعهم وحداتهم . وازدحم جميع سكان القاهرة لرؤية هذا المنظر ، بينما اصطف المنتشدون بين باب النصر واسفل القلعة . وسمعت دقات الطبول عند القلعة ، واصطف الطبالبون والزمارون أمام الدكاكين . وقدم الاسير الى السلطان داخل القلعة ، ثم نزع عنه رداؤه والبس رداء ابيض واركب جملا ، ووضع حول عنقه طوق من الحديد تتصل به عصا من الحديد تنتهى بجرس . أما اقاربه الذين شاركوه مصيره فقد وضعوا عراة الرأس والجسم فوق جمال . وخرج الاسرى من القلعة على هذه الحال ، يسير امامهم منادون يصيحون : « هذا هو جزاء كل من خرج على السلطان » . حتى اذا وصلوا الى باب زويلة ، شنق الامير وعلق فى وسط الباب ، وظل جسده هناك يوما وليلة ، ثم أنزل ولف فى كفن ودفن فى شمال المدينة . وبعد ذلك رفعت الرايات والزينات .

وهناك ايضا موكب الرؤية الذى يتألف من الفقهاء الذين يخرجون للتأكد من ثبوت رؤية هلال شهر رمضان . وكان هذا الموكب يحاط بعدد كبير من القناديل المستديرة والمشاعل والشموع . وتضاء ايضا امام الحوائث الثريات والشموع والمباخر التى تنتشر منها رائحة زكية . ومن احب الماشهد لنفوس الجماهير موكب المحمل « وهو هودج رائع مزين اجمل زينة ، يوضع فوق جمل قوى ، وهو مظهر من مظاهر السيادة . فان منظره الشامخ كان يبدو بارزا وسط القافلة المصرية عند عبورها الجزيرة العربية . وكان حكام الحجاز ينحنون امامه ، كما يخلو له سائر القوافل الطريق ليمر » .

ويوم دوران المحمل يوم مشهود . وهذه صورة عن كيفية الاحتفال به :
يركب قضاة القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب الجياد ،
ويركب معهم اعلام الفقهاء وامناء الرؤساء وارباب الدولة . ويقصدون
جميعا باب القلعة ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وامامه الامير المعين
لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومع عسكره والسقاؤون على جمالهم .
ويجتمع لذلك اصناف الناس من رجال ونساء . ثم يطوفون بالمحمل وجميع
من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون امامهم .

وسرعان ما يحدث هرج ومرج : فترى جنودا وقد ارتدوا ملابس تنكرية
مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان هؤلاء يسمون شياطين
المحمل ، اذ كانوا يرتكبون كثيرا من حماقات ، حتى ان الحكومة قررت
منع هذه العروض . وبعد اعوام كثيرة في نهاية القرن الخامس عشر ، كان
يتقدم المحمل ثلة من حملة الرماح في ملابس حمراء ويلعبون لعبة الحرب .
واحيانا يدعى الناس للمشاركة في حفلات القرآن والختان التي كانت
تزين تزينا جميلا مبالغاه فيه بالمشاعل ، وترش الروائح العطرية ، ويحرق
البخور ، وتمد موائد حافلة في هذه الاحتفالات . ومثال ذلك ما حدث في شهر
آذار (مارس) سنة ١٥٠١ حين خرجت اميرة الى القلعة محمولة في هودج
مطرز بالذهب ، يتقدمها قواد الحرس ، والامناء ، وحرس الشرف في
ملابسهم الرسمية ، وحاكم المدينة ، وقائد الجيش ، والمشرف على حريم
السلطان ، وكبار موظفي الدولة ، ورئيس الخصيان . واشتملت معية
الاميرة ايضا على مائتين من السيدات من نساء الضباط والموظفين . وحمل
على رأس الموكب الجهاز الذي تقدم به السلطان والذي اشتمل على ملابس
وطاس وابريق من البلور وخيمة مطرزة بالذهب .

وبعض مواكب الجنازات كانت تستلقت النظر بمن فيها من الندابات
المحترفات وقازعي الدفوف .

والى جانب مواكب النصر ، هناك مواكب اخرى للتشهير . فالجرمون
الذين يخالفون القانون العام كانوا يوضعون على ظهور الجمال ويطاف بهم
في شوارع القاهرة . وعادة ، يتجمع جمهور غفير على طول الطريق ، بينما
تصدر من النساء اصوات الاستنكار ضد هؤلاء المجرمين عند مرورهم .
واحيانا يجلد المجرم علنا ويوضع على حمار ويطاف به عارى الرأس
والجسد في شوارع المدينة .

وكان البدو الذين يعاقبون بسبب جرائمهم يعاملون معاملة قاسية .
فالرجال منهم توضع حول رقابهم اطواق من الحديد ، بينما يقيد النساء
والاطفال بالحبال .

وكان الملحد الذى يدان بارتكاب جريمة ضد الدين يوضع على جمل
ويطاف به فى شوارع المدينة ، ثم يشنق بالقرب من مدرسة الملك الصالح
ايوب فى منطقة بين القصرين .
وكانت تدهن وجوه النساء المنحرفات ذوات السمعة السيئة بالهباب
ويطاف بهن فى الشوارع على حمير .

* * *

يبدو انه لم تشيد ابنية خاصة للملاهي الجماعية . فقد اخذ العالم
الاسلامى الحمامات العامة مثلا عن الحضارات السابقة ، ولكنك لاتجد فى
اى مدينة اسلامية ابنية مشيدة لاسباب التسلية الشعبية كالمرح
او السيرك .

ولكن منظر وقوف الناس فى الشوارع مشدوهين فى تطلع لا يتحدد
بالمكان او الزمان ، وقد وصلتنا اوصاف عديدة من بلاد مختلفة غير مصر
عن الجماهير التى تلتف حول مدرب يلاعب دبه او قرداتى يرقص قروده
على دقات الطبول . وهذه الجماهير تستثار لرجل مجذوب مخادع او لصانع
معجزات دعى . ويذكر كتاب العرب القدماء اخبار رجال يستطيعون ابتلاع
السيوف والرمل والحصى والزجاج المجروش ، وآخرون يمكنهم تحطيم
الاشياء او اخفاءها ثم يعيدونها الى حالتها الاولى امام اعين المتفرجين
المشدوهين . وذكر ابن خلدون - دون ان يؤكد صحة الخبر - انه سمع ان
بالقاهرة من يتخصصون فى تعليم الطيور الكلام وتدريب القزود حتى
يمكنها القيام بالعباب سحرية تعتمد على خفة اليد دون ان يفتن اليها
النظارة ، ومنهم من يعلم الناس الغناء والرقص والسير على الحبل المشدود
فى الهواء .

ولا ريب ان هناك بعض الاماكن التى تصلح اكثر من غيرها لاسباب
التسلية الشعبية ، وتؤمها طبقات الشعب المختلفة . فنسمع ان سفلة
الناس من الماجنين والعاشرات كانوا يبحثون عن التسلية فى باب اللوق
حيث يوجد السحرة والبهلوانات والرجال الذين يدرّبون الجمال والحمير
والكلاب والقزود على الرقص ، والمصارعون الجوالون والمنجمون الذين
يجلسون وراء صناديق من الرمل ، ولاعبو الارجوز « الذين يحركون دمي

من وراء ستار» (١) . ثم هناك ايضا المبارزون المهرة الذين يستطيعون استخدام جميع انواع الاسلحة ، وخاصة الهراوة ، والموسيقيون الذين يرافقون منشدى اغانى الشجو والشجن .

وينافس مدربو الحيوان الحواة والبهلوانات . وفي ذلك يقول بيبر بيلون :

ويوجد بين العرب في القاهرة عدد كبير من القرداتية والطبالين ؛ واثناء لعبهم يقرعون طبله بأصابعهم ، ويغنون على صوت هذه الطبله (وهى الرق) المركب فيها عدد من الحلقات النحاسية ، ويمسكونها باليد اليسرى ويدقونها باليد اليمنى . وهم على جانب كبير من المهارة فى تعليم الالعيب القروء لأنواع مختلفة من الحيوانات ؛ يعلمونها للجدى أو غيره . من ذلك انهم يضعون سرجا على ظهر الجدى ويركبون عليه القرد ، ويعلمون الجدى القفز كالحصان . وهن يعلمون الحمار كيف يمثل انه يموت وان يتمرغ فى الارض وان يصطنع انه يرفس القروء التى تتسلق ظهره . ولديهم ايضا من الحيوانات المدربة انثى القروء ، ولكن قلما ترى لأنه لا يمكن الاعتماد عليها . ومعهم ايضا نوع الغوريلا المكمة ، وهى وديعة حسنة التدريب الى درجة انها تنقل من شخص الى آخر ممن يشاهدون الطبال وهو يلعب ، وتمد يدها دلالة على طلب النقود ، ثم تحمل النقود وتسلمها لصاحبها .

أما الحواة (٢) ، فكانوا يسيرون فى الطرقات حاملين اكياسا (تعرف بالجراب) مليئة بالثعابين التى كان فى استطاعتهم ان يجعلوها تقوم بحيل غريبة مختلفة . فعن طريق النفخ ، يمكنهم ان يجعلوها تصطنع الموت ؛ وبالنفخ مرة ثانية ، يحيونها ويجعلونها تقوم بأعمال شيطانية . وقد رأى أحد الأفراد رجلا يأخذ حية بيده المجردة من قاع قدر كبير يحتوى على عدد من هذه الثعابين ، ثم عرى رأسه ووضع الحية عليها ثم غطاها بطاقيته ، ثم رفعها ووضعها على صدره ولفها حول عنقه دون ان تصيبه الحية بأى اذى . وبعد ذلك وضع دجاجة بالقرب من الحية ذاتها فلدغتها وماتت بعد

(١) انظر الرحلة العباسية لعبد الله بن محمد بن أبى بكر العباسى ١ : ١٥٥ (ط . فاس . ١٣١٦ هـ) .

(٢) انظر اخبار الحواة والبهلوانات فى زبدة كشف الممالك : ٣٢ .

دقائق قليلة . وفي نهاية العرض ، تناول الرجل الحية من رقبتها وأكلها مبتدئا بالذيل ، حتى أتى عليها بأسرها في سهولة ودون أى امتعاض كشخص يأكل جزرة أو عودا من الكرفس .

وكان للبهلوانات جمهورهم : ومنهم من رأى فوق بركة ماء في القاهرة عندما تسلق الحبال وسار عليها بظهره مقيد اليدين ومعصوب العينين . وكان هناك آخر شد حبالا بين اعلى طبقات القلعة واحدى المنارات على مسافة ميل ومشى على الحبل مستخدما يديه ورجليه ، وهو تارة يطلق نفطا ، وتارة يزىم بقوس قوى كان بيده . ولما وصل الى نصف الحبل ، القى نفسه . فصاح القوم كلهم ، وظنوا انه سيهشم الى أشلاء . ولكن تلك لم تكن سوى حيلة بارعة ، اذ كان ممسكا في يده بطرف حبل دقيق مربوط بعناية الى الحبل المنصوب ، فتعلق به وصعد .

يظهر الكتاب العرب نوعا من الاستياء عندما يتحدثون عن الاعمال الفظيعة التى كانت ترتكب علانية في عيد رأس السنة القبطية (وهو عيد النوروز) . فكان يختار أمير يسمى أمير النوروز ، يطوف هو واتباعه على ظهور الجمال بمنازل كبار رجال المدينة ، وكان يرسل فى استدعاء أولئك الذين يدعى انهم فى منطقة نفوذه ليمثلوا امامه . وهو يفعل هذا كله على سبيل المزاح ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة . ويأيدهم الملاحى ، وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمر شربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات ، ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالاقذار ، وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمة ، فاما ان يفدى نفسه واما ان يفضح (١) .

وفي وقت معين من السنة لا يمكن تحديده ، كان الناس يتقاذفون بالبيض المسلوق ، ويضربون المارة بالسياط . وحاولت الحكومة عند نهاية القرن الرابع عشر ان تحدد هذه الاحتفالات فى مناطق معينة : ولكن هذا النوع من المرح استمر على طول القنوات والبرك ونهر النيل وبعض الشوارع الفسيحة . ويتفق الجميع على ان القوم كانوا يسرفون فى لهوهم ومرحهم فى يوم رأس السنة ، وأن أشياء كانت ترتكب وراء حدود الوقار والاحتشام ، وشاع المجون والخلاعة فى غير صابط . ونادرا ما مر ذلك اليوم دون ان يقتل عدد من الافراد .

وكان الاحتفال بوفاء النيل (عيد الشهيد) من ابهج الاعياد عند المصريين . فعند اعلان ان النهر قد بلغ اعلى منسوب ، يتجمع اهالى

القاهرة - حسب ما يذكر المقرئى (١) - « وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر . ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن .. الا ويخرج لهذا العيد .. وتصرف اموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق » .

ويؤكد الرحالة الاوروبيون صحة ما يذكره مؤرخنا العربى اليائس ، فيقول تريفيزانو :

لقد فتح الخليج ، اذ كانت العادة انه عندما يبلغ فيضان النيل منسوباً معيناً يرسل السلطان اثنين من كبار موظفيه مع اتباعهما الى حدود المدينة لفتح الخليج وترك الماء يغمر الأرض . ويخرج جمهور كبير من الناس فى هذه المناسبة ، التى كانت اجمل اعياد السنة . فتقبل جميع الدكاكين ويبدو على الناس جميعاً فرح عظيم وهم يشاهدون الماء يتدفق الى الخليج .

وبعد ذلك بعدة اعوام ، كتب ليو الافريقى فى حماسة مماثلة يقول :
يقام فى القاهرة فى الايام الاولى من الفيضان احتفال كبير . وتسمع فيه ضجة كبيرة من الصياح والموسيقى حتى يظن ان المدينة قد انقلبت رأساً على عقب . فتتخذ كل اسرة لنفسها قارباً تزينه بأرقى الاقمشة ، واجمل السجاجيد ، وتتزود بكمية من الطعام والحلوى والمشاعل التى تضاء بالشمع . وينتقل جميع السكان الى القوارب ، ويمنعون انفسهم بقدر ما يستطيعون . ويشارك السلطان نفسه وسائر الاعيان وكبار الموظفين فى هذا الاحتفال ، فيذهب الى خليج يقال له الخليج الاكبر يحيط به سد . وهناك يتناول السلطان فاساً ويحدث صدعاً فى السد ، ويفعل سائر معية السلطان الشئ ذاته بحيث ينهار الجزء من السد الذى يحجز الماء . عند ذلك ، يندفع النيل بعنف الى الخليج ، ومنه ينساب الى القنوات الاخرى فى الضواحي والمدينة المسورة . وتصبح القاهرة نتيجة لذلك فى هذا اليوم اشبه بمدينة البندقية ، فمن الممكن ان تنقل بقارب بين جميع أرجاء مصر واقاليما . وتستمر الاحتفالات سبعة ايام وسبع ليال ، بحيث ان ما يكسبه التاجر طوال السنة ينفقه فى هذا الاسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والموسيقين .

كانت جزيرة الروضة المواجهة لمصر القديمة مركزا للهو والنزهة ، حيث وجدت حدائق ومنتزهات كثيرة قصدها اهالى القاهرة ومصر القديمة للشراب والطعام والمتعة . وكانت تقام هناك مهرجانات ليلية على ضفاف بركة الرطلى التى كانت تضاء بأنوار وهاجة ، فيهرع نحوها الناس ويزدحمون على الطريق ليشاهدوا ذلك المنظر . وكانت تقدم للناس عروض مختلفة مثل تمثيلات خيال الظل أو الحلقات الغنائية . وبعبارة أخرى ، كانت ليالى حافلة بالملذات التى جذبت جمهورا كبيرا .

وفى سنة ١٤٧٦ : أسس حى من أمتع أحياء القاهرة ، وكثيرا ما اعجب به الرحالة فى العصور التالية . كان قبل ذلك مجرد سهل ملحي قاحل تتخلله بعض الكثبان ، حيث نمت بعض اشجار التمر حنة والصمغ العربى . واصبح المكان تدريجا خاليا ومهجورا ومهملا . فى هذا الوقت ، قرر احد كبار موظفى دولة المماليك ، ويسمى أربك ، ان يشيد هناك حظيرة لجماله . وعند انتهائها ، خطرت له فكرة انشاء منزل له فى ذلك الموقع ، فبنى عددا من الغرف وردهة للاستقبال ومقصورة . واحضر عددا من الثيران والمحاريث لازالة الكثبان التى فى الموقع ، وحفر بركة واحاطها بمنتزه . وسرعان ما حذا حذوه اثرياء اهل القاهرة واخذوا فى بناء بيوت فخمة هناك . واقبل الناس على الإقامة فى هذا الحى الذى اطلق عليه اسم مؤسسه وظل الى اليوم يسمى الأزبكية .

وحين يبلغ النيل اعلى منسوب له ، كان الخليج يفتح رسميا ويفيض الماء الى بركة الأزبكية . وكان يقام فى هذه المناسبة احتفال كبير يحضره كبار الضباط واعداد غفيرة من الناس . والى جانب المأدبة الرسمية ، كانت تطلق الصواريخ ، وتسير القوارب الكثيرة فى البركة . ويخبرنا مؤرخ عربى^(١) بأنه كانت تقام احتفالات كبيرة تنفق فيها على الشراب أموال كثيرة بجنون .

ويقدم لنا رحالة متأخر هذا الوصف لبركة الأزبكية :
انها عبارة عن سهل يقع فى تجويف على شكل صدفة بحرية تحيط بها من كل مكان المنازل الفاخرة . ومع ان المنازل زادت من جمال الموقع ، فان المكان ذاته يكون منظرا متنوعا خلابا . فليس هناك منظر أكثر جمالا من هذه الأرض التى تكون حوضا كبيرا يمتلئ بالماء مدة ثمانية اشهر ، ويصبح حديقة مشرقة طوال الاشهر الأربعة الأخرى . وفى شهر ايلول

(١) هوالمقرىزى : انظر الخطط ١ : ٦٩ .

(سبتمبر) ، يستطيع المرء ان يركب قاربا فيها ، وفي شهر نيسان (ابريل) ، تتحول الى ارض خضراء تغطيها الأزهار . وعندما تغطيها مياه الفيضان ، تسير فيها قوارب شراعية مذهبة ، يركبها افراد من علية القوم في المساء . وعلى شواطئ البركة ، يزدحم نظارة كثيرون يلتمسون الهواء العليل والراحة من حرارة الشمس . وعندما ينحسر الماء ، تترين الأرض بجمالها الطبيعي ، فترى بها اشجار النخيل والتمر حثة ، وانواعا شتى من الخضرة والفواكه التي تكون جميعا اجمل منظر متصور . هذه حدائق مسحورة حقا ، فهي تنبت في المكان ذاته الذي كانت تسير فيه القوارب قبل ذلك باشهر قليلة .

لم تقتصر الاحتفالات على النيل وبركة الأزبكية على عرض الصواريخ بل عرضت ايضا الاضواء الرائعة التي وصفها الكتاب العرب . وقد استمر هذا التقليد لأن فن الاضاءة بلغ درجة عالية من الاتقان . فكانت الاضواء تشكل في صورة القلاع والقصور وكذلك المعارك . وكتب في ذلك رحالة اوروبي :

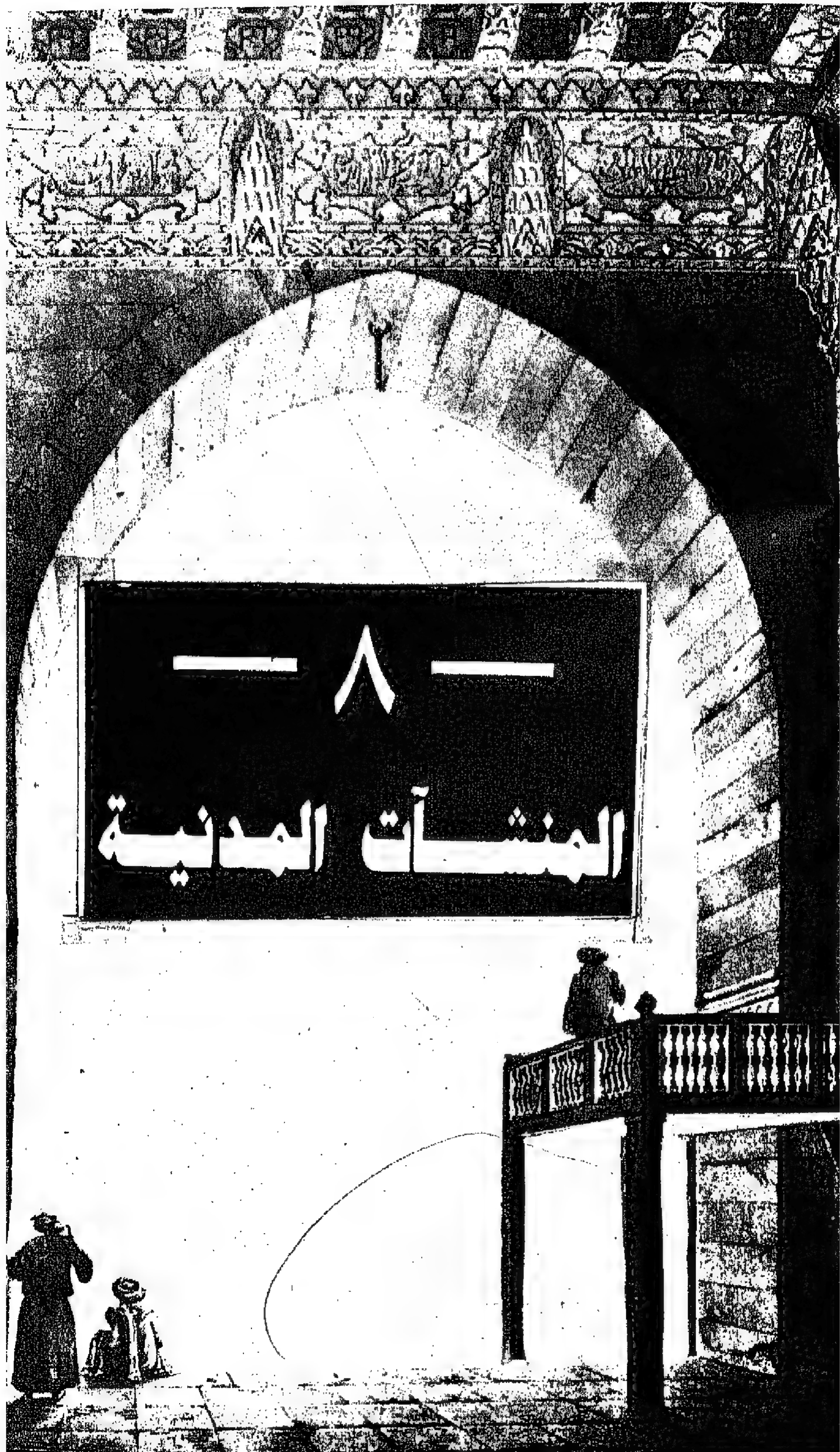
كان على واجهة كل منزل شكل معين ؛ بعض هذه الاشكال يمثل اجسام الحيوان ، وبعضها الآخر على شكل مربعات على طراز الارابيسك ، على نحو ما هو مشاهد في تصميم السجاجيد العربية . والريح لا تطفئ هذه المصابيح التي تستمر مشتعلة طوال الليل . وكان باستطاعة المرء ان يرى على النهر سفينتين كبيرتين تحملان هرمين مرتفعين من الخشب تغطيهما تماما مصابيح قريبة من بعضها البعض . ونظرا لأن النيل كان مرتفعا جدا ، فقد كانا على مستوى ضفتي النهر ويمكن رؤيتهما من عدد من المواضع الى أسفل القاعدتين . وكانت مصابيح هذين الهرمين تتغير بصورة مستمرة . كان بعضها يهبط بينما يحل محلها مصابيح اخرى بسرعة كبيرة ؛ وأنا آخرتتحرك من جانب الى آخر . وقد نتج عن هذه التغييرات التي تمت بدقة كاملة مناظر ضوئية رائعة . ولايستطيع احد ممن يراها أن يدرك انها كانت متصلة بروافع صغيرة أو انها اشتملت على رجال داخل الهيكل يحركونها . وغير بعيد من الهرمين وجد قارب ثالث حمل قصرا صنع من الالعب النارية وملئ بالقذائف والصواريخ ، بحيث انها شكلت منظرا خلايا .

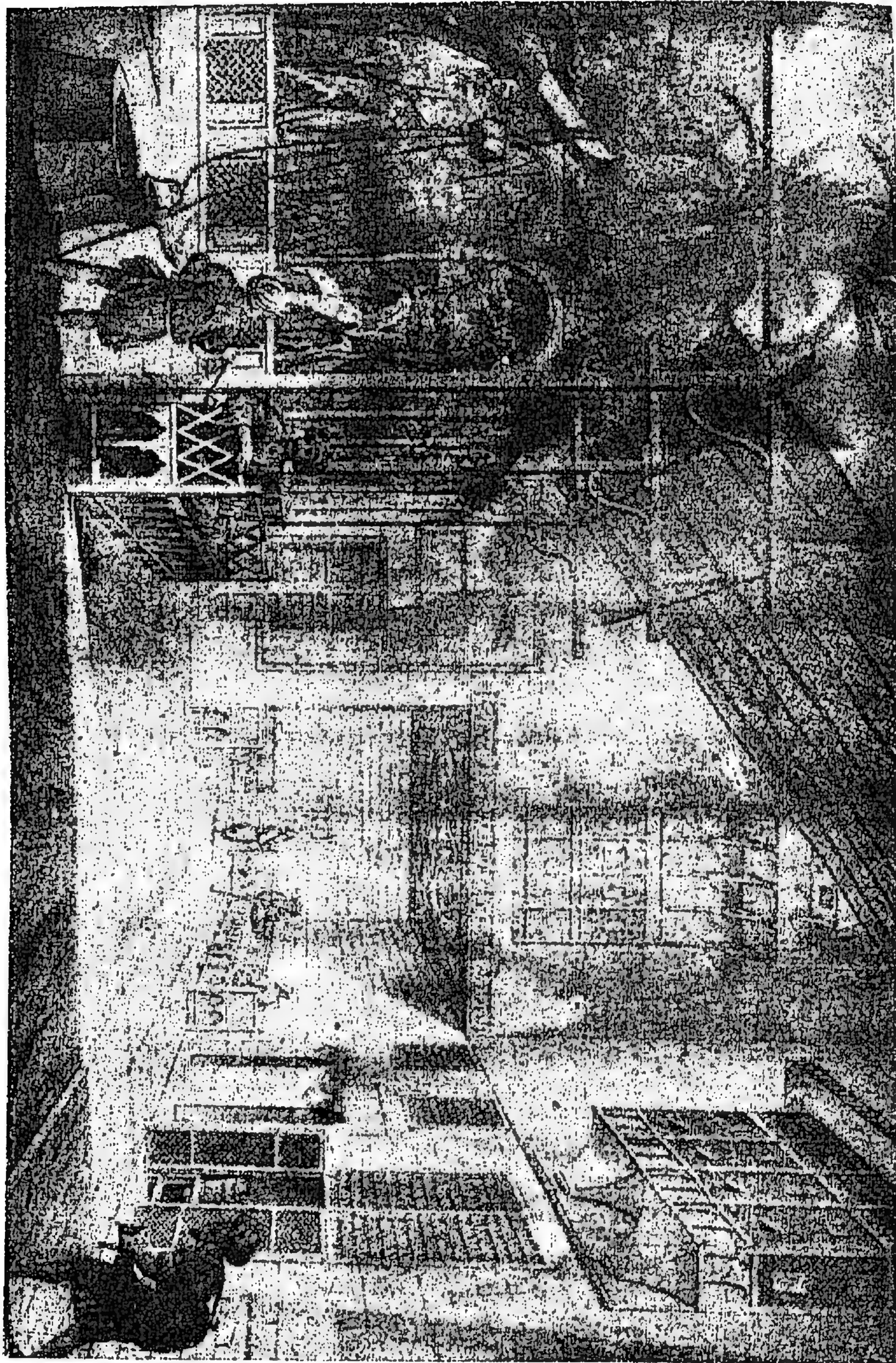
ويخبرنا ليو الافريقي انه كان من عادة سكان القاهرة ان يحتشدوا في ساحة الأزبكية كل يوم جمعة بعد الخطبة والصلاة ، لأنه كانت في هذه الضاحية بعض مظاهر اللهو غير البريئة ، كتلك التي تقدمها الحانات

والنساء ذوات السمعة السيئة . وكنت ترى في هذه الساحة كثيرا من أهل
التفنن والتسلية ، وخاصة أولئك الذين يعرضون رقصات الجمال والحمير
والكلاب . وهناك رجال يتبارزون بالسيوف أو بالعصى ، وآخرون ينشدون
ملاحم فتوح العرب لمصر . كما كثرت أعمال الجنون والاحتفال والابتذال
تى وجد فيها الناس بعض التسلية .

□ □ □







سبق لنا ان تحدثنا عن بعض المباني الدينية ، وسوف نرى غيرها ، ولكننا نريد الآن ان نتناول المنشآت التي كانت تخدم اسباب الحياة المدنية بصورة عامة . ونظرا لأن معرفتنا بالماضى ناقصة ، فاننا ندرك الى اى حد تتعرض دراستنا للعصر الاسلامي الاول في مصر للزلل .

لقد خلفت لنا المباني القديمة من أعمال الحفر الغائر ما يكشف عن جميع جوانب الحياة اليومية ، فنحن مضطرون الى ان نقصر جهدنا على جمع معلومات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك في قراءاتنا ، ثم التوفر على تفسيرها بكل ما نملك من معرفة . ولكن ربما كنا في ذلك حريصين اكثر مما ينبغي على معلومات جزئية ، فنخطيء باستنباط قواعد عامة من هذه الحالات الاستثنائية . وقد سبق لفولتير ان قال : « كثيرا ماتؤخذ الحالة الاستثنائية على انها قاعدة عامة » وفيما يتعلق بالحياة الخاصة او الحياة في الأسواق ، فنحن لانملك سوى رواية او حتى آراء مضطربة لكتاب مترمتمين ينتقدون اشد النقد الأعمال التي اثارت استياءهم ونقمتهم . وهذا غير كاف في الواقع .

يقول احد كتاب القرن الخامس عشر^(١)

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمسكن الجليلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة باصناف الأنواع والأسواق الملووة مما تشتهي الأنفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التي تحكى القصور ، ما لا يمكن حصره .

نظمت المدينة لتخدم اغراض التجارة بحيث انه وجدت مبان مخصصة لخزن البضائع واخرى لاقامة التجار . وحسب العصر التاريخي ، او ربما حسب الهدف من البناء ، اطلق على محطات القواقل هذا الاسم الفارسي « خان » او الاسمان اليونانيان « قيسارية » او « فندق » او الاسم العربي « وكالة » ، الذي اشتق منه في العصور الوسطى كلمة okelle وقد انشئ رسميا في العصر الفاطمي في القرن الثاني عشر « دار الوكالة » لاقامة التجار وخاصة السوريين والعراقيين الذين يحضرون الى مصر لأغراض التجارة .

(١) الخطط ١ : ٣٦١ .

ويعصف لنا الفندق في نهاية القرن الخامس عشر احد الرحالة بهذه
الكلمات :

في القاهرة فنادق كبيرة ، تشتمل على شارع تنتشر فيه صفوف من
الدكاكين ذات ثلاثة ابواب او اربعة ، تقفل وتحرس كل ليلة . وتجد في هذه
الفنادق جميع انواع البضائع . ويجلس التجار والصناع قريبا من
دكاكينهم ، يعرضون عينات من سلعهم . واذا ما أردت شراء شيء له قيمته
او أهميته ، صحبوك الى مخازنهم ليعرضوا عليك مالاذيهم من روائع .
ورغم انه قد يبدو مستحيلا ، فان كل واحد من هذه الفنادق يضم اكثر من
الف مخزن من هذا النوع . وليس هناك شيء في الدنيا ، حتى اكثرها
تفاهة ، الا وتجده في فنادق القاهرة .

وقد اكتسبت بعض هذه المنشآت شهرة خاصة . فنحن نعرف مثلا ، عن
طريق « الف ليلة وليلة » خان منصور حيث يباع العبيد .

وكانت هذه المنشآت تبني بطريقة موحدة . فالبناء العام مربع الشكل
يحيط بفناء كبير مرصوف ، وله رواق ذو عقود تعلوه شرفة . ويشتمل
الطابق الأرضي على الحواصل او المخازن ، وفي الطابق الذي تعلوه غرف
او ، بمعنى أدق ، حجرات صغيرة كقلل الرهبان ، ليس بها شيء غير
الجدران ، وكان النزلاء يقومون بفرشها واعداد وجباتهم فيها . وللبناء
باب واحد شبيه بباب قلعة . والهدف من هذا النظام هو حماية النزلاء من
ان يعتدى عليهم اثناء الفتن . ولقد عمل كل شيء لتشجيع التجارة وحماية
البضائع ، فهي خير وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادي . وهناك فرق
واضح بين محطات القوافل ، او الأسواق المسقوفة ، وبين الأسواق
العادية . ففي الأسواق تعرض البضائع في صف واحد وتباع ، أما في
محطات القوافل الكبيرة فيوجد عدد من الاروقة المسقوفة : ويمكن ان يرى
الصناع اثناء عملهم في حوانيتهم .

وهناك خان من نوع خاص عند مدخل المدينة شمالي باب الفتوح ، سمح
للمسافرين بالنزول فيه مجانا . ونظرا لموقعه في ظاهر المدينة ، فقد تحول
الى مستشفى للمرضى بامراض معدية . وهناك خان آخر استخدم كمصرف
اودع فيه التجار صناديق المال المملوءة بالذهب والفضة . ولكن نهاية هذه
المؤسسة كانت حزينة : فقد استولت الحكومة على الودائع عندما كانت
مصر تستعد لمواجهة غزو تيمورلنك . وفي الحي نفسه ، كان هناك خان
قوصون او وكالة قوصون الذي استخدمه التجار السوريون لخزن
بضائعهم مثل الزيت والسيرج والصابون والدبس والفسق والجوز

واللوز والخرنوب . وكان فندق دار التفاح ، بالقرب من مسجد المؤيد ،
 اشبه بوكالة كبيرة للفواكه على اختلاف انواعها . كما وجد خان آخر كانت
 تستخدم ايراداته لفدية اسرى الحرب ، واشتمل على اثني عشر حانوتا ،
 وخمسة حمامات ، وثمانية وخمسين مخزنا ، وست غرف كبيرة ، وفناء
 وخمسة رباع ، وخمسا وسبعين حجرة للنزلاء ، وخمسة حمامات في
 الطوابق العلوية . ثم ازداد التخصص ، فاصبح احد هذه المباني ، وكالة
 باب الجوانية ، يستقبل مايرد من صنف متجر الشام في البحر ، ومايرد
 بالبر من تلك البلاد كان يدخل به الى وكالة اخرى ، هي وكالة قوصون .
 واكثر الأسواق المسقوفة التي يذكرها المقریزی - وقد امكن تحقيق مكان
 تسع عشرة من اثنتين وثلاثين - موجودة في قطاع يشبه مثلثا متساوي
 الأضلاع ، رأسه يصل جنوبا الى باب زويلة وقاعدته خط شمالي يمتد بين
 ضريح السلطان الغوري الى الجامع الأزهر . وقد اختصت هذه الأسواق
 ببيع جميع انواع المنسوجات من صوف وكتان واقمشة شعبية وحرير
 ثمين وشورة العروس . ولازال اسما سوق العنبر وسوق العصفر يدلان
 بوضوح على نوع سلعهما . ومن الأسواق الأخرى ماضمت صناع الاخفاف
 والسهام والصناديق . وكان هناك في جوار ضريح السلطان قلاوون خمس
 اسواق مسقوفة ، وسبع اخرى بالقرب من مسجد الحاكم .

ولدينا فكرة عن الاسماء التي اطلقت على الأسواق في منتصف القرن
 الخامس عشر بفضل ما يذكره المقریزی^(١) من ان في القاهرة : سبعا وثلاثين
 قيسارية ، وتسعة عشر فندقا ، واحد عشر خانا ، وثلاث وكالات .

زادت المدينة الاسلامية في عدد الحمامات التي اخذتها عن الحضارات
 القديمة دون اى تغيير في خطة بنائها : فهناك غرفة الملابس والاستراحة ،
 وحمام بخار ، وفي بعض الأحيان غرفة متوسطة الحرارة ، ولعب الحمام
 دورا مزدوجا ، صحيا ودينيا ، في جميع البلاد الاسلامية . وقد اورد لنا
 الطبيب عبداللطيف البغدادي ، الذي كتب في القرن الثاني عشر وصفا
 لحمامات مصر ، فقال :

واما حماماتهم فلم اشاهد في البلاد اتقن منها وصفا ، ولا اتم حكمة ،
 ولا احسن منظرا ومخبرا . اما اولا ، فان احواضها يسع الواحد منها
 مابين روايتين الى اربع روايات واكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان
 ثجاجان ، حار وبارد . وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا
 اختلطا فيه ، جرى منه الى الحوض الكبير . وهذا الحوض نحو رבעه فوق

الأرض ، وسائر في عمقها ، ينزل اليه المستحم ، فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفي المشلح أيضا مقاصير لأرباب التخصص ، حتى لا يختلطوا بالعوام ، ولا يظهروا عوراتهم . وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة ، مليح البنية . وفي وسطه بركة مرخمة ، عليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف ، مفوف الجدران ، مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام ، مجزع باختلاف ألوانه ، وترخيم الداخل يكون ابدا احسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء ، مرتفع الأذاج ، جاماته مختلفة الألوان ، صافية الأصباغ ، بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء ان يتخذ دارا لجلوسه ، وتناهى في ذلك ، لم تكن احسن منه^(١) .

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، كتب بريدنباخ :
ذهب جماعة منا الى الحمامات : اذ توجد في هذه البلاد احواض في غاية الجمال والبذخ ، مزينة بالفسيفساء وانواع مختلفة من الرخام . فالعرب يقبلون بشغف على هذا النوع من الرياضة ، وهم في غاية المهارة في تدليك اعضاء جسم المستحم .

عرفت مصر المستشفيات قبل مجيء العرب ، ويقال ان هذا النوع من المنشآت وجد ايضا في الفسطاط منذ بداية تاريخها . ولم نتحدث عنها في شيء من الاسهاب بسبب عدم توفر التفاصيل . ولكن الخدمات الطبية العامة ابتدأت في عصر احمد بن طولون . فكان الجمهور الذي حضر صلاة الجمعة في مسجده من الضخامة بحيث لزم وجود طبيب لمساعدة من يحتاج الى علاج بين المصلين . وجاءت الأموال للمستشفى التي شيدها من ايراد السوق المخصصة لبيع العبيد السود ، ومن مصادر اخرى شبيهة بذلك . ولم يسمح للجنود بالعلاج في هذه المستشفى . وكان على المرضى الذين يدخلون المستشفى ان يخلعوا ملابسهم وان يسلموها وماعهم من نقود لأحد موظفي المستشفى الذي كان يسلمهم ايضا عنها . ثم يرتدون ملابس خاصة ويستلقون على اسرة ، ويعطون الغذاء والعلاج اللازم مجانا . وعندما يستطيع المريض اكل رغيف من الخبز ودجاجة ، كان يصرح له بمغادرة المستشفى : فتد له عندئذ ملابس ونقوده . وكان السلطان يزور المستشفى يوم الجمعة من كل اسبوع ، ليتأكد بنفسه من توفر الامدادات وحسن قيام الأطباء على المستشفى ، ويسأل المرضى والضعفاء والمصابين بأمراض عقلية .

(١) (الافادة والاعتبار : ٨٢ - ١٨٥ = (٤٥) (ط . لندن) .

ثم اسس الأخشيديون كذلك مستشفى . أما الفاطميون ، فرغم ما نعرفه من شدة اهتمامهم بتعليم الطب ، فإنه لم تصلنا اى اخبار عن المستشفيات في عصرهم .

وحول صلاح الدين احد القصور الفاطمية الى . بيمارستان (مستشفى) . وعين فيه اطباء عيون وجراحون ومدير للمستشفى . ويجب ان نذكر ان المؤرخ والطبيب المشهور ابن ابى اصيبعة تلقى تعليمه هناك . ويقول ابن جبير^(١) :

ومما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا السلطان ، البيمارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ، ابرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من اهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه استعمال الأشربة واقامتها باختلاف انواعها . ووضعت في مقاصر ذلك القصر اسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المريضات ، ولهن ايضا من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم ايضا من يتفقد في كل يوم احوالهم ويقابلهم بما يصلح لها .

اما بيمارستان قلاوون ، فهو اهم ما انشئ في القاهرة من هذه المباني . فهو بناء عظيم فخم ، يمكننا ان نتصوره في سهولة لما نعرفه عن مقبرة السلطان . ويقدر من عدد الناس الذين دخلوا وغادروا البناء ان اربعة آلاف مريض كانوا يعالجون يوميا بالمستشفى في القرن الرابع عشر . وكان كل مريض عند مغادرته للمستشفى يعطى هبة مالية وكسوة ، كما قيل ان الطعام كان يعد بعناية فائقة . ولا يتردد احد الرحالة المغربيين من ذلك العصر في القول ان الأثاث نافس مابقصور السلاطين فخامة واتقانا . وكان كل من يعمل فيها متقنا عمله ، وجميعهم ، دون استثناء ، من الأطباء الى العاملين ، كانوا يقدرون مسئولية اعمالهم . وتتضمن الوثيقة التى انشأت

(١) رحلة ابن جبير : ٢٦ (ط . بيروت ، و ٥١ اوروبية)

هذا الوقف هذه الأفكار السامية^(١) :

اننى اقرر ان خير فرصة يمسك بها الانسان وخير اعمال الخير هي تلك التي توفر الراحة للآخرين . ينبغي على الانسان ان يحقق السعادة للرجل الفقير حين يمرض عن طريق توفير المسكن والعناية الصحية ، الباهظة التكلفة . ويجب ان يبدأ بالاكثرفقرا بين المرضى والبائسين والضعفاء والمحتاجين والمساكين :

وقد انشئت هذه المستشفى لعلاج المرضى من المسلمين ، رجالا ونساء ، مقيمين او عابرين من جميع البلاد والأقاليم ، دون تمييز بسبب الأصل او الدرجة ، ومهما كان المرض الذي يشكو منه المريض ، سواء اكان بسيطا او خطيرا ، ظاهرا او مختفيا ، جسميا او عقليا . وكان الفقراء من المرضى ، رجالا ونساء ، يقيمون بالمستشفى حتى يتم شفاؤهم . كما كان هناك استعداد لتوزيع الأدوية والعقاقير الطبية للمرضى الخارجين . وكان يقسم المرضى حسب فئات معينة : فجعلت اواوين للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمدي ، وقاعة للجراحة ، وقاعة لمن افرط به الاسهال . ونجد في بنود نظام هذا الوقف فقرات غير متوقعة ، مثل تلك التي تبيح شراء مراوح من جريد النخيل لراحة المرضى في فصل الصيف .

كان الرباط اول الأمر وحدة لحراسة الحدود مكونة من محاربين . وكانت هذه المؤسسة في القرن الرابع عشر تؤوى افرادا ممن ليست لهم موارد ولا أسر . ونحن نعرف ان احد المنازل كانت تعتزل فيه النساء المطلقات اللاتي رغبن في حياة التأمل بعيدا عن عالم الحياة اليومية قبل الزواج مرة ثانية . وتحت تأثير الحركة الصوفية ، اصبحت الرباط أشبه بدير للمتصوفة ، ولكن الاسم العادى الذى اطلق على هذا النوع من الأديرة هو « خانقاه » واشهر خانقاه في مصر كانت تؤوى افراد طريقة صوفية . تعنى كلمتا « دير » و « راهب » معنى محددا في المسيحية . ولهذا ينبغي تجنب اى سوء فهم بالنسبة لهاتين الكلمتين . ونظام التصوف الاسلامى لايمكن تشبيهه بنظام العزلة الصارم الذى وجد في الاديرة المسيحية . فعلى خلاف المسيحية ، لم يعتبر الاسلام الجسد مجرد رداء حقير ، ولم يزد الحياة على الأرض . ويشبه التصوف الاسلامى الى حد بعيد الطبقة الثالثة في المسيحية . في ان افراد هذه الطبقة لايرفضون تماما الحياة المادية .. وكما في الطبقة الثالثة ، تباح العضوية لجميع الناس

(١-) هناك ترجمة فرنسية حرفية لنص هذا الوقف في كتاب Histoire des Bimaristan, par Ahmed Issa Bey. Le Caire, 1928.

وينبغي ان يكون ذلك واضحا ، لأنه لا توجد كهانة في الاسلام . وتختلف نظم الخانقاه حسب النصوص الواردة في وثيقة الوقف . وبعض الخوانق قبلت المتصوفين المتزوجين ، الذين لم يقيموا ، بطبيعة الحال ، في الخانقاه .

وقبل ان نشير الى بعض حالات التطرف التي كانت ترتكب ، يجب علينا ان نذكر الفقرة التي افرد بها ابن بطوطة للحديث عن خوانق القاهرة^(١) :
واما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق ، واحدها خانقة ، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، واكثرهم من الأعاجم ، وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب امورهم عجيب . ومن عوائدهم في الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد مايشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل انسان خبز ومرقه في اناء على حدة ، لا يشاركه فيه احد . وطعامهم مرتان في اليوم . ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري ، من ثلاثين درهما للواحد في الشهر الى عشرين . ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل اثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح .

وهم اعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشرط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، واذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزاه ، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ، ويذكرون . ثم يقرأ القراء على عادة اهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

في العصر المملوكي ، اصبحت الفرق الصوفية قوة سياسية تحسب لها الحكومة حسابا . ولهذا كان السلطان يعين رؤساءها حتى يمكن ان يحتفظ بشيء من الاشراف عليها . وضاق سائر رجال الدين والشريعة ، مثل اساتذة المدارس والقضاة ورجال الافتاء ، بهؤلاء الصوفيين الذين كثيرا ماكانوا من اصل اجنبي . ومانعرفه عن الصوفيين جاءنا عن طريق انتقاد هؤلاء القوم ، ولهذا يجب ان نقبل آراءهم في الاحتياط شديد . فسخرؤا من اولئك الصوفيين الذين ادعوا انهم ينصتون فقط الى قلوبهم . بعد ان

=====

(١) رحلة ابن بطوطة : ٣٧ - ٣٨

يسرفوا على انفسهم في حلقات الذكر ، ليدركوا الحب الالهى . وأكثر ماخشى من جانب الصوفيين هو ان يتمكنوا من بسط نفوذهم على الطبقات الشعبية ، الذين يجب المحافظة عليهم بحسبة خاصة تحت سيطرة الحكومة . وقد وصلتنا اخبار بعض الحوادث . منها ماحدث في سنة ١٤٩٦ ، حين ثار المتصوفة في احدى الخوانق ضد رئيسهم ، وهو كاتب معروف ، فمزقوا أرديتهم والقوا بها في حوض ماء للتوضؤ ، واوشكوا ان يعتدوا على رئيسهم . ولكن المؤرخ الذى اورد هذه الحادثة يقول : « واعقب ذلك اضطرابات تحتاج روايتها الى وقت طويل » .

لم تكن مصر هى البلد الوحيد الذى ترك فيه الرهبان او المتصوفة رسالتهم الدينية واتجهوا نحو استثارة الجماهير ، الأمر الذى ادى احيانا الى صدام مع السلطات المدنية . وهناك العبارات القاسية المعروفة التى قالها الكاردينال بيير دميان عن بعض الرهبان الايطاليين : « انهم جماعة من نساك المدن ، متوحدين فى الأسواق العامة ومترهبين فى الدنيا ، يحاولون التسلط على الجماهير ، تحت ستار الرهبنة » . وقد ازداد نفوذ الفرق الصوفية فى الواقع فى العصر المملوكى ، وبدأ يتخذ مظهرا خطيرا . وليس من الانصاف طبعاً ان نستنتج احكاماً مطلقة من الآراء القليلة التى يجب ان ننظر اليها بعين الاعتبار . ولكنه من الغريب ان نرى عدداً من كبار الكتاب المتدينين حملوا فى سخرية على هؤلاء الرجال ، ذوى الأسمال البالية الفاضحة والتصنع الرخيص ، الذين ارادوا ان يخلعوا رداء الحياء المرعى فى كل بقاع الأرض . وقد سود ابن جلدون احد سهامه نحو سكان الخوانق حين قال عنهم^(١) : ... من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشتررون بها الجاه ليحيروا به على الله « فلم يصوموا ولم يصلوا الا حين يضطرون الى ذلك ، واسرفوا فى جميع الملذات المباحة ، ولم يلتزموا الا بالواجبات التى ان خالفوها خرجوا عن مسلك التصوف . ولم يكلفوا انفسهم قطعاً عناء تدبر روح القوانين .

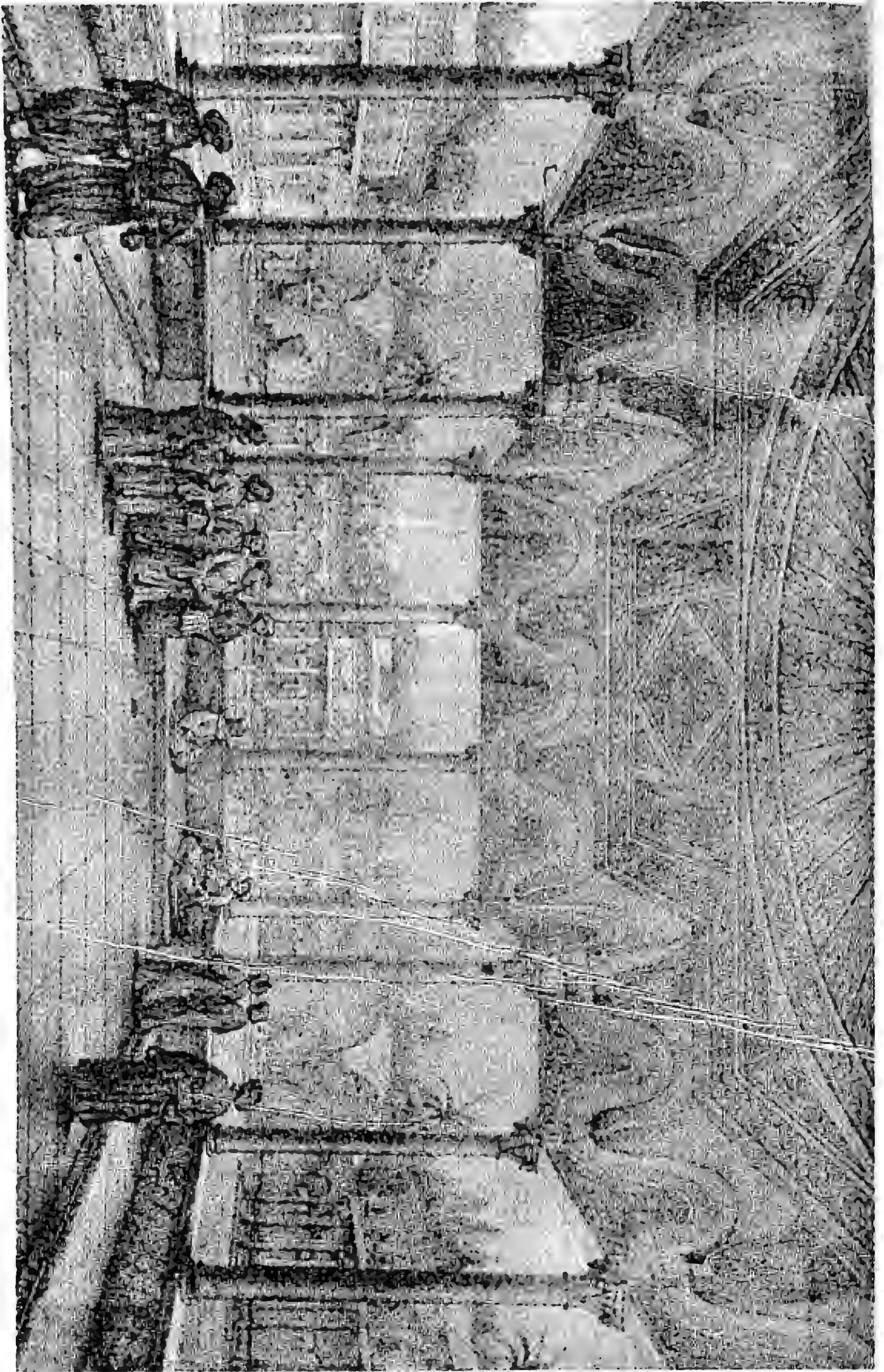
كان للمنشآت الدينية مثل المدارس والمساجد والخوانق مظهر خيرى ايضا ، وذلك لأن الهبات التى كانت تقدم لهذه المؤسسات الدينية مكنتها من ان توزع الغذاء والكساء المجانى . على ان اعظم اعمال البر جميعاً هى

(١) التعريف بابن خلدون : ٢٧٦ .

انشاء سبيل لسقيا الماء . وقد قال احد الكتاب الفرنسيين من ذلك العصر :
 . ان عظمة اى شعب يجب ان تقاس بمقدار مايعمل من أجل الحصول على
 الماء » ويتفق هذا القول مع حديث شريف منقوش على سبيل في القاهرة :
 سئل الرسول صلى الله عليه وسلم اى الأعمال افضل ، قال : « سقى
 الماء »^(١) والماء في الشرق الأوسط ضرورة حيوية ، ولعل هذا هو السبب في
 وجود نافورات في اكثر البيوت في العصور الوسطى . واقام اهل البر
 للفقراء اسبلة عامة . وقد امد هذا العمل الصالح اهل المدينة بماء للشرب ،
 كما انه - ولعل هذا هو الأهم - امدهم بماء للتوضؤ . ولهذا ابيح استخدام
 هذه الأسبلة مجاناً لعامة الناس . وكان يقوم على تزويدها سقاؤون .
 وبواسطة الامتصاص ، يندفع الماء خلال انابيب نحاسية ، ويشرب المارة
 من اكواب مثبتة في السبيل بواسطة سلاسل . وفما قاله احد الرحالة في
 نهاية القرن الرابع عشر : « ان كثرة الأسبلة الموجودة في المدينة لدليل
 رقيها » وكانت تلحق اول الامر بمبان اخرى ، مثل المدارس والخوانق .
 ولكن بعد ذلك ، في العصر المملوكي ، اصبح السبيل بناء مستقلاً لا يخلو
 من رونق ، ذا احواض واسعة وشبابيك نحاسية (يمد المار يده منها
 ليشرب) . والحق بالسبيل ، في الطابق العلوى ، كتاب للتعليم الأولى .
 وفي القرن الخامس عشر ، لم يبق في المدينة متسع من الأرض الفضاء
 سوى النزر القليل . ونتيجة لذلك ، كان من الضروري ان يصغر حجم
 المباني العامة التي بنيت عن سابقاتها . فبنيت مدارس اصغر حجماً ، كما
 ازيل منها الفناء الأوسط المكشوف . وأصبح يغطى البناء بأسره سقف
 تتخلله فتحة تسمح بدخول الضوء نهارة . وبطبيعة الحال ، لم يعد هناك
 مجال لاقامة المدرسين والتلاميذ في هذه المباني ؛ وعلى هذا ، لم يعد هناك
 فرق ظاهر - ابتداء من القرن الخامس عشر - بين المدارس والمساجد .
 فهناك مصل مستطيل الشكل ؛ وقل حجم اللوانين الجانبيين الى مجرد
 تجاويف ، والشئ الوحيد الذى يذكرنا بالفناء الأوسط القديم هو اختلاف
 ضئيل في مستوى الأرضية .







تقع الجبانات ، وهي المدافن الفسيحة ، في ضواحي
القاهرة من ناحية الغرب .
وكانت أول الأمر جنوبى القلعة . وقد ذكر ابن جبير انه
يوجد^(١) :

بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء . وهم الذين استشهدوا مع
سارية رضى الله عن جميعهم . والبسيط المذكور مستم كله للعيان على مثال
أسنة القبور دون بناء . ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية
ومشاهد معمورة ، يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء .
والاجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر . ولكن
اللجوء إلى القرافة والاقامة بها يناسب كلا من الرجل الصالح والشخص
الفاسد : فانت واجد هناك كل ما تبحث عنه . فالعزلة فيها تسر الناسك ،
بينما يحتفى بها المارقون من القانون .

وكانت تحدث في ذلك المكان معجزة وصلنا خبر عنها ابتداء من القرن
السادس عشر ، حين كتب باومجارتن يقول : « في ظاهر المدينة ، على ضفاف
النيل ، شاهدنا مسجدا : وقيل لنا أنه عند اقامة الصلاة فيه ، يخرج
الموتى من مقابرهم ويقفون دون حركة طيلة الصلاة ، وبعد ذلك يختفون
ويعرف كل شخص في القاهرة هذه الحقيقة » . وبعد أعوام عديدة ذكر
أجريبا دوبينييه هذه المعجزة في كتابه « تراجيديات ، Tragiques » .
وقد رأى الرحالة المغربى ابن بطوطة^(٢) الجزء الجنوبى من القرافة
فقط ، فقال :

وهم (يعنى أهل القاهرة يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون
عليها الحيطان ، فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء
يقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة
إلى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم
ونسائهم ، ويطوفون على الأسواق بصنوف المأكـل .
وفي العصر ذاته ، ذكر الرحالة الأوربيون تلك الظاهرة الفريدة عن
الجبانات : « على مسافة ميل تقريبا ، شرقى المدينة ، تمتد جبانات

(١) رحلة ابن جبير : ٢ (ط . بيروت)

(٢) رحلة ابن بطوطة : ٣٩٠ .

إسلامية في غاية الاتساع ، وهي مشهورة جدا . وترتفع عاليا بين المقابر زوايا ومبان يظن الانسان أنه ينظر إلى مدينة فسيحة بدلا من جبانة .
وقال آخر : « وهناك جبايات واسعة توجد فيها مقابر المسلمين ، وشيدت بها مبان رائعة من الرخام والسماق والمرمر وغيرها من الأحجار الراقية ، متقنة البناء ومذهبة ، لم أر شيئا لها في روعتها في العالم المسيحي بأسره . هذه هي مقابر قدماء السلاطين والأمراء ونبلاء العرب .
وحفظ لنا بيلوتى ، في سنة ١٤٢٠ ، أول وصف لمقابر المنطقة الجنوبية ، فقال :

على مسافة ميل من القاهرة ، توجد مدينة غير مسورة ، في اتساع مدينة البندقية ، توجد بها مبان مرتفعة وأخرى منخفضة . ويدفن في هذه المدينة موتى أهل القاهرة . ولكل عربى من أهل القاهرة بناء في هذه المدينة . في المباني المنخفضة يدفن الموتى : وفي المباني المرتفعة يقدم النبلاء الذين يمتلكونها صدقات للفقراء كل يوم جمعة : فهذا هو يوم العطلة ، ويوم الصلاة الجامعة ، ويوم اعداد وجبات كبيرة من اللحم . في هذا اليوم ، يذهب جميع فقراء القاهرة هناك لياكلوا ويأخذوا الصدقات التى تعطى لهم .

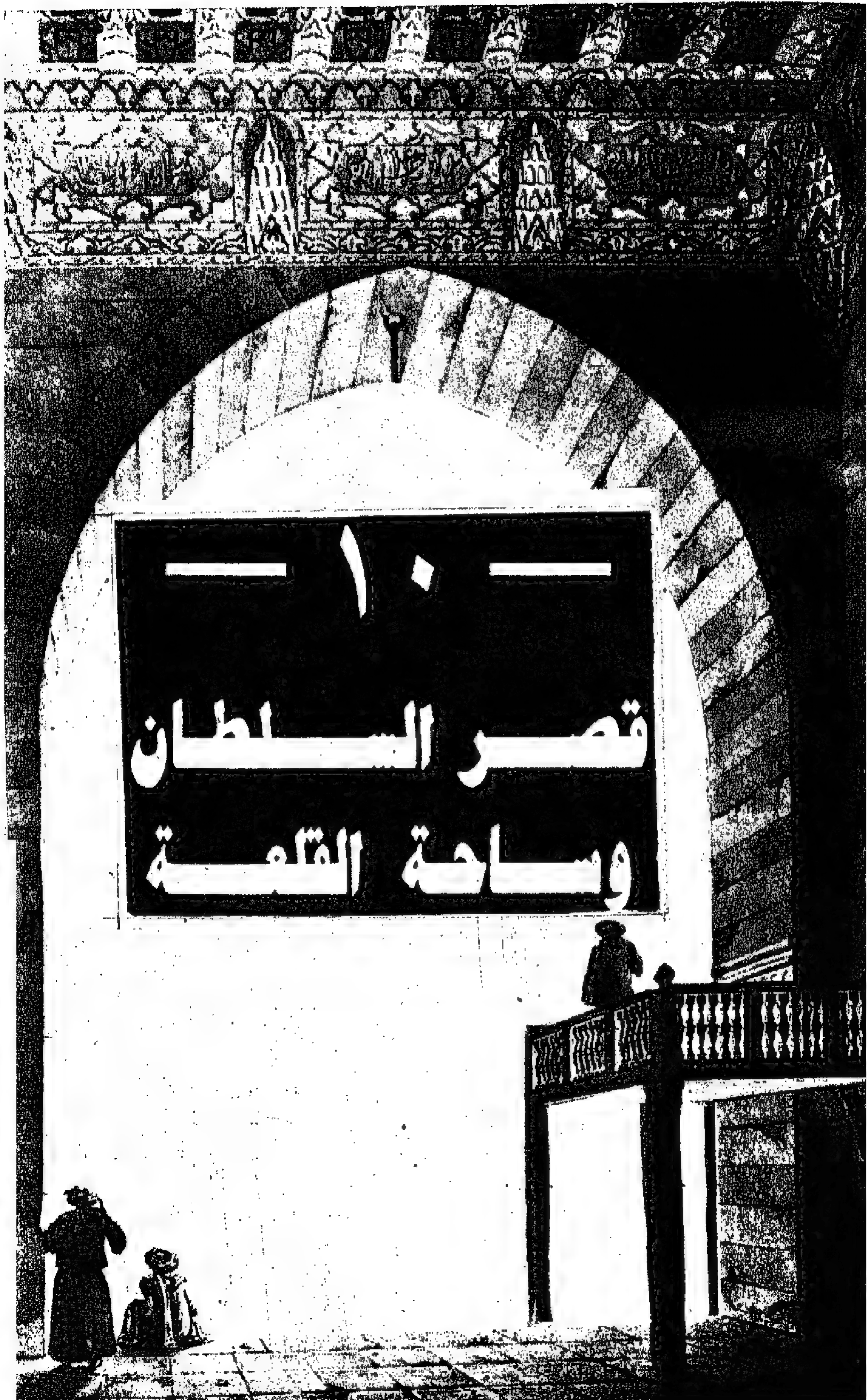
في هذه المدينة من المقابر ، حيث كان المواطنون العاديون يدفنون فيما مضى في مكان فاصل عند حافة الصحراء ، شرقى القاهرة ، أخذت الأضرحة الفخمة تشيد لتستقبل رفات الحكام من الممالك . ويبدو كأن هؤلاء الأمراء الذين عاشوا حياة مليئة بالأحداث المثيرة ، رغبوا في أن تكون مقابرهم في مكان مهجور ناء ، بعيدة عن جمال الحدائق الخضرة وأعين الأحياء ، وبعيدة عن صخب القلعة وكرسى الحكم ، كأنما يريدون أن يمنعوا ضوضاء الحياة من أن تقلق نومهم الأخير . وتضفى القباب والمآذن الصاعدة إلى السماء على المكان جوا من السكينة والحزن معا . هذه المباني الناصعة البياض ، الخالية من الظلال ، تقف في ضوء دائم صارم لا يسمح مطلقا بتخفيف حدة زوايا البناء . وعند الغسق ، تصبح كرسوم الظلال في ارتفاعها إلى عنان السماء .

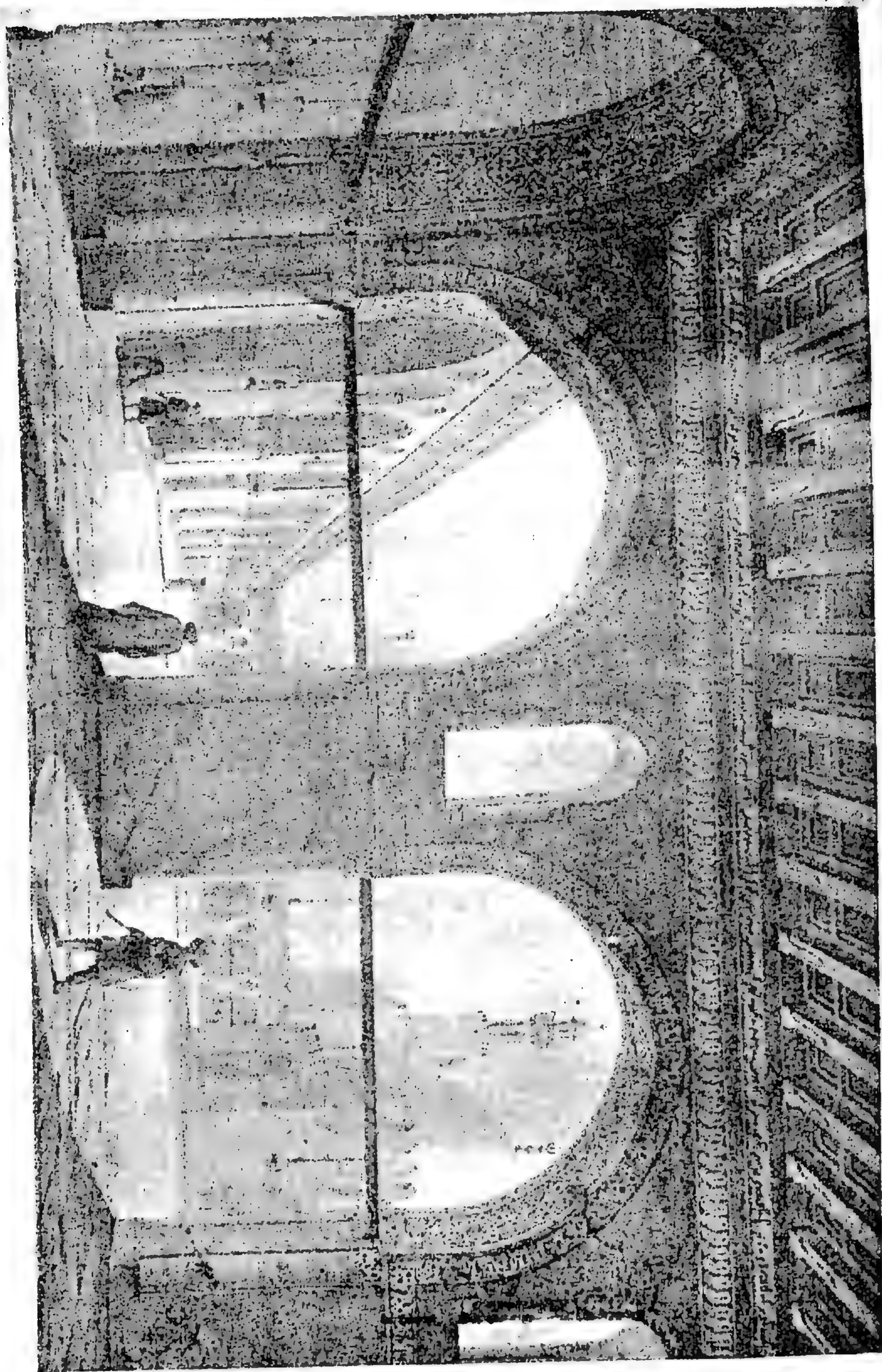
وقد زار هذا المكان بريدنباخ في طريق عودته من القلعة ، فقال :
فهيطنا منحدرًا حادًا لا يخلو من خطر . ومررنا خلال عدد من الجبانات ، حتى وصلنا إلى مقابر السلاطين . فلكل سلطان مسجد خاص بني في البقعة التى اختارها لنفسه . وقد أمر السلطان الحالى قايتباي ببناء

مسجد كبير فسيح ، له مآذن عالية ماهرة الزخرفة . كما أمر ببناء منازل كبيرة حوله ذات عدد كبير من الحجرات كالأديرة . وفيها يعول فقهاء الشريعة والدين الاسلامي .

ولنتوقف قليلا عند مقبرة قايتباي الهائلة ، التي تحير اللب بروحها المرحية . ففيها نرى ميلاد فن زخرفي رفيع ، فيه سحر وجمال . كما تشعرونا بالتعبيرات الخالية الدقيقة التي يخلقها فن الحفر العربي في حركة رقيقة لا مثيل لها . هذا هو عالم التخيلات المطلقة ، ولكنه أيضا يمثل ازدهار فن الزخرفة المتألقة . هنا يصل القائق ذروته ، ويبلغ فن الزخرفة أقصى درجات الروعة . فقد عمل الفنانون بموهبة طيبة حتى بدا عملهم كأنه تم بغير عناء . ويشعر الزائر كأن البناء يرحب به في سماحة وهدوء . وإذا ما حاول أن يتتبع المزج الدقيق بين الخطوط التي تكاد تشكل نغما متناسقا ، فإنه ينسى أنه أمام عمل من أعمال النحت أم أمام عمل من أعمال صائغ . كما أن تداخل عروق الرخام بين فاتح وقاتم ، والعقود الحجرية المزينة بالفستونات تبدو كأنها تبتسم لنا . ففي هذا العصر ، اتخذت المقابر مظهرا أليفا وديعا ، وهو أمر غريب حقا . ومقابر الخلفاء هذه ، كما تسمى - والتي لها من الشهرة ما طبق الآفاق (في وقت مضى) - هذه الساحة الجنائزية والسهل الفسيح الذي تنطقه القباب والمآذن ، لا تحس بها اثرا للحنن على الإطلاق .







لنصعد الى قمة جبل المقطم ، كما فعلنا في بداية هذا الكتاب ، ونقرأ مرة أخرى هذه الفقرة التي كتبها جوبينو : يرى الانسان تحته أولا ميدانا فسيحا ، وفي الناحية المقابلة ، يرى مسجد السلطان حسن ، وبعد ذلك عن يمين ويسار يرى المدينة ممتدة ، تخترقها الاف الشوارع ، وتنتشر فيها المساجد والمباني الكبيرة ، ويجملها في مئات الأماكن مجموعات من الأشجار والحدائق . والمدينة غير مرحة ولا غريبة ولا جليلة بالمعنى الدقيق للكلمة ، نظرا لعدم وجود التناسق فيها على الإطلاق ؛ ولكنها كبيرة ، فسيحة ، مكشوفة ، مليئة بالحياة والدفع والحرية ، ولذلك فهي مليئة بالجمال . وباستطاعة الانسان ، بطبيعة الحال ، أن يجد مدناً أخرى تتوفر فيها بصورة أكبر مقاييس الكمال ، لن تجد هنا شيئاً تام الاستقامة ؛ ولكن إذا كان الانتظام غير متوفر ، فالمظهر العام جاد ونبل ، رغم تنوعه ، كما أن هناك شعوراً بالقوة ، ورغم أنها ليست من عمل الحضارات القديمة ، إلا إنها ترجع الى عصور قديمة نسبياً ، وهي عصور لم يعوزها الايمان والفكر والشجاعة والثروة وكذلك النشاط .

وهذه نقطة ملاحظة ممتازة لتأمل هذه المدينة الجليلة . فإذا بك أمام مسرح من الأضواء ، تحده من ناحية الشمال والجنوب ماذن المقابر الملكية لسلطين المماليك . أمامك مباشرة تجد مسجد السلطان حسن واقفاً في جراحة متميزة ، ويريد من الشعور بفخامة هذا البناء الحجري الهائل إنتشار المباني مزدهمة ورائه . ويستوقف نظرك طويلاً منظر الريف للسطح خارج المدينة ، بعيداً عن النهر الذي تقف وراءه مجموعة الأهرامات عند الأفق كسلسلة من البقع الصغيرة .

تساعدنا مدرسة السلطان حسن - ولعلها أجمل بناء اسلامي - على فهم الهندسة العامة لبناء المعاهد التي خصصها لتعليم المذاهب السنية الأربعة . ونظرة من خارج البناء ان المدرسة تتكون من فناء أوسط أو صحن وأربعة أواوين والايوان المواجه لمكة أكبر من الأواوين الأخرى ، وهكذا يتخذ التصميم الداخلي شكل الصليب ؛ وليس هناك ما يدعونا الى أن نعزو ذلك الى تأثير مسيحي . من الخارج ، يبدو البناء مربعاً أو مستطيلاً ، بسبب وجود غرف بين أضلاع الصليب للمدرسين وبعض تلاميذ المذاهب الأربعة .

أن منظر البناء ببقوته وضخامته وجدرانه العالية الصارمة . يبدو

وكانه يتحدى القلعة الواقعة ازاءه . فكم من فتنة . وكم من معركة دامية وقعت بين هذه الجدران . هذه المدرسة - في حقيقة الأمر - خصصت لأغراض التعليم الدينى الهادىء ، ولكن بسبب موقعها لعبت دورا سياسيا . فعند حدوث قلاقل فى القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد الى معقل لهم . فالمنظر الخارجى يشبه حصنا مكعب الشكل . يزيد من مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقة . وحافة بارزة تمتد فى أعلى الجدران . ويتكون مدخل البناء من ممر ذى عطفين ، يقود فجأة ودون أى تمهيد الى فناء واسع مكشوف ، تحيط بجوانبه الأربعة أواوين ضخمة ذات أسقف معقودة . والشغم السائد فى هذا البناء هو الوقار من غير شك ، ولكن يخفف منه التناسق التام بين كتله .

يقع المكان الذى اختير لهذا البناء فى مواجهة القلعة الحصينة التى تشرف على مدينة القاهرة ، ولعل المهندس قد استوحى منه من التحدى الناتج عن هذه المواجهة . فمن التحدى أن تشيد بناء صارم السميت كهذا فى ظل عداوة واضحة من جدران القلعة ، فقد حاول السلطان حسن أن يستغل كل شبر فى القلعة لجعلها تبدو كأنها تتحفر لتثب فى كبرياء ووقار ، بينما يبدو المسجد العملاق كأنه قد عقد العزم على سحق القلعة ، وبما زاد مظهره تميزا موقعه الممتاز ، ووجود الساحة التى تفصل بينه وبين غريمته ، ونحن نلاحظ فى هذا الجامع الحصن جمالا أولمبيا ، يذكرنا الى حد ما بكاتدرائية البى ، إذ به من الصفات ما يجذب الذوق الفنى العام . لقد أتمت روعة البناء دقة المنطق عند التصميم ، فنتج عنهما عمل فنى واضح المعالم بلغ حد الكمال ، بحيث أن أى تعليق يصبح غير ذى معنى . وهو يمثل قمة فى فن العمارة سيتحرك بعده الفن المملوكى - بما فيه من سحر لا ينكر - فى اتجاه واحد فقط ، نحو التخلف . ففى مصر ، هو أكمل المباني الإسلامية ، وأكثرها تناسقا ، وهو البناء الذى يستحق أن يقف جنبا الى جنب مع الأعمال المعجزة التى خلفتها الحضارة الفرعونية . ومما يجعلنا نزيد فى تقديره ، الظروف التاريخية التى بنى فى ظلها . فهو ينقض الاعتقاد السائد فإن وجود ظروف مستقرة منتظمة أمر لازم لعمل طويل مضمّن مثل هذا البناء الحجرى الجرىء الرائع . فقد استغرق بناؤه سبع سنوات من العمل والعناء ، أن صدقت العبارة التى قالها السلطان ذاته : « لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناءه ، لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه »^(١) . ويضاف الى ذلك العقبان السياسية التى أدت الى عزل السلطان . وأنه لمن سخرية الأقدار ،

ان الحاكم الذى بنى لنفسه مثل الفراغة مقبرة خالدة مات مقتولا ولم يضم رفاته قبر .

الطاعون الذى حدث سنة ١٣٤٨ ، الذى قضى على ثلثى سكان فلورنسة ، تسبب فى موت أعداد مفرغة فى القاهرة . ولسنا بحاجة الى ان نذكر ان ثروات بأسرها ألت الى خزانة الدولة بسبب عدم وجود ورثة احياء . فقد قيل ان الميراث فى بعض الحالات انتقل بين اربعة او خمسة ورثة متعاقبين فى يوم واحد . كان ذلك فى النصف الاول من حكم السلطان حسن ؛ وربما كانت الزيادة غير المتوقعة فى الاموال سببا فى ميله الى الاسراف .

من المحتمل ان السبب الذى دعا صلاح الدين الى بناء القلعة هو تهدئة شعب قلق ومقاومة أى هجوم محتمل من جانب عدو اجنبى . « أما فى عصر خلفائه » ، فيقول مارسيل كليرجيه :

اتخذت القلعة المظهر الأكيد للمدينة - القصر المحصنة . فاتصل البناءان تدريجا ؛ بينما تضاعفت المنشآت القضائية والادارية ، وزحفت على المنطقة الواقعة أسفل النشور الذى فى الجبل ، وفتحت أبواب كثيرة فى الاسوار . واخيرا ، انقسمت الساحة الى عدد من الاجنحة : غرفة لتنفيذ الاحكام ، وحظائر هائلة ، وحمامات ، ومسجد ، وحدائق زودت بوفرة من الماء بطريقة ماهرة بالآبار والقنوات والسواقي . فجذبت اليها هذه المرافق عددا متزايدا من الناس ، وتكونت الأسواق والمتاجر لبيع المأكولات والاسلحة والموازين المنزلية ، ويصفها كازانوفا بصدق بأنها كانت أشبه ببوتسدام ، او فرساي صغيرة ، تتخللها شوارع ضيقة منحنية منحوتة فى الصخر .

اعاد السلطان محمد بن قلاوون بناء غرفة السلطنة أو العرش الفسيحة فى القلعة . فشيّد فوقها قبة رائعة ، ووسع مساحتها ، وزودها بأعمدة ممتازة من صعيد مصر ، وكساها بالرخام ، ووضع فى الوسط كرسى السلطنة المصنوع من العاج والابنوس . وزاد فى ارتفاع الغرفة كثيرا ، وبنى امامها ميدانا فسيحا . وبالباب المؤدى الى الغرفة يوجد حاجز من الحديد المشغول بمهارة ، ليمنع الناس من الدخول . اما السلطان نفسه ، فكان له باب يبقى عادة مغلقا ، وفى مناسبات الاستقبال ، يفتح الباب حتى يرى من خلاله او من خلال الشبابيك ذات القضبان الجزء الأكبر من جيشه فى الميدان . وكان السلطان يعقد الاستقبالات عادة يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع .

وتروى لنا احدى الرحلات انه :

في اتجاه منتصف مدينة القاهرة ، من الناحية الشرقية ، فوق نقوء في
-الجبل ، توجد قلعة السلطان ، وهي واسعة ، جميلة ، حسنة البناء ،
تزينها المباني العسكرية والقصور ومكاتب الادارة وغيرها من روائع
الدولة . ويقال ان قطرها يبلغ الميل ، وانها تبعد عن المدينة بمقدار مدى
قذيفة المنجنيق . ويقيم بها عشرة آلاف فارس ، معينون لحراسة
السلطان ، دون أن ندخل في حسابنا وأولئك الذين يقيمون في المدينة الآنفة
الذكر . وأساسات القلعة ، وكذلك سائر منشآتها ، مبنية من حجر أبيض
رخو . ولا يوجد بالقلعة ، بالرغم من حجم الحامية العسكرية بها ،
أى عيون للماء ، وأسوارها - فيما يقال - تنهار بسهولة .

واليك وصف خليل الظاهري في منتصف القرن الخامس عشر^(١) :
وأما دار الملك الشريف التى بها تخت المملكة ، المعروفة الآن بقلعة
الجبل ، ليس لها نظير في الاتساع والزخرفة والأبهة والعلو ، تشتمل على
سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد ، وهى حصينة جدا ، وبها من
القصور والأواوين والمجالس والغرف والطباق والأحواش والبيادين
والاصطبلات والجوامع والمدارس والأسواق والحمامات ما يطول شرح
ذكره . ولكن نأتى بملخصه لما فيه من العظمة والأبهة والناموس
الشريف . أما قصر الأبلق ، فيه ثلاثة قصور شريفة وخرجاه برسم المواكب
السلطانية . الجميع مفروش بالرخام الملون ، والسقوف مدهونة بالذهب
واللازورد والنقوش العجيبة . وأما الايوان الأعظم ، فليس له نظير ، وهو
مكان بمفرده بظاهر القصر ، تعلوه قبة خضراء عالية جدا ، حسنة المنظر ،
وبه مرتبة الملك ، وعمد كثيرة ، وهو مكان عجيب . أما الجامع الكبير الذى
بالقلعة فليس له نظير . قيل انه يصلى فيه خمسة آلاف نفر . وبه عمد
عجيبة في الغلظ ، وبه منارتان . أما الدهيشة ، فهى من العجائب ،
وعمارتها حسنة ، من خواص مجالس السلاطين . وأما القياح المخصصة
بالأدر الشريفة فعديدة .. وأما طباق الممالك الشريفة السلطانية اثنتا
عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن . حتى انه
يمكن السكنى في كل طبقة لألف مملوك . وأما الحوش الشريف ، فانه متسع
جدا ، وبه بستان عظيم ، وبه بحرة معظمة . وأما الاصطبلات الشريفة ،
فانها متسعة جدا يرسم الحيوان السلطانية . وأما المديان الشريف ،
المعروف بالأسود ، فمتسع جدا يرسم المسيرة .

(١) زبدة كشف الممالك ٢٦ : ٢٧

ويصر رحالة القرن السادس عشر على قلة القيمة العسكرية لهذه القلعة . فكتب جان تينو يقول :

يكاد يبلغ قصر السلطان في اتساعه مساحة مدينة أورليان . عند دخولنا اطلقت طلقتان . وكان هناك خمسون موسيقيا بالآت مختلفة . ومررنا بساحة بها نحو من خمسمائة مملوك في تشكيل عسكري ، في ثياب طويلة بيضاء وقبعات مستديرة خضراء وسوداء . ثم مررنا بساحة أخرى ، رأينا عند مدخلها بعض عدد الحرب وآلات تحطيم الأسوار ، كما رأينا صانعي الأسلحة ومثقفها ، وفي هذه الساحة نحو من ألفي مملوك أبهى منظرا من الآخرين . وعلى رأس هذه الساحة ، فوق حجر مرتفع مغطى بالسجاد الثمين ، جلس السلطان القرقصاء . وأمامه على الأرض سجادة لا تقل مساحتها عن عشرين قدما مربعا ، ملابسه من الحرير الأصفر ، وعلى رأسه عمامة عالية مصنوعة من نسيج رفيع من الهند ، ومشكلته على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الامام ، واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشمال . وكان هذا الأسلوب من العمام ذات القمم العالية مستخدما منذ عشرين عاما فقط في ذلك الوقت ..

ويضيف تريفزانو البندقي ، الذي استقبله حاكم مصر :
للقاهرة قلعة غير قوية ، ويبلغ محيطها نحو من ثلاثة أميال . وهي مشيدة على أرض مرتفعة من الصخر ، وتشرف على المدينة بأسرها . وبداخلها قصر السلطان . وهو في غاية الجمال والامتناع . ولا يوجد في القاهرة مكان آخر محصن . ومثل هذه القلعة لا تسمى حصنا في بلادنا ، وإنما يطلق عليها اسم قصر عظيم .

كان السلطان يجلس أثناء المقابلات الرسمية تحت مظلة مطرزة بخيوط من الذهب . ويزين باب مخزن الأسلحة أعلام ورايات وأسلحة عدة الخيل والزبدات والبلط والسيوف . وأكثر وصف تفصيلي لمقابلة في القلعة ما ذكره فيليقتشي برانكاتشي الفلورنسي الذي حظى بمقابلة السلطان بيبرس سنة ١٤٢٢ ، قال :

قبل بزوغ الفجر بساعة ، حضر إلينا ادلاؤنا وأحضروا معهم خيلا ، وحضر معهم أحد النبلاء المعينين لاستقبال السفراء ، وكذلك عدد من الموظفين الآخرين ، بعضهم مترجلين وبعضهم على ظهور الخيل ، وخرجنا قاصدين شطر قلعة السلطان الواقعة على مسافة ميلين فوق مكان مرتفع . ووصلنا عند مشرق الشمس ، ولكننا انتظرنا نحو من ساعة خارج الأبواب الأولى ، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، وأخذ الممالك ،

وهم النبلاء على مختلف درجاتهم ، يتوافدون على القلعة . وكانوا في أعداد كبيرة يلبسون زيهم التقليدي من التيل الأبيض الذي يصل الى الأرض تعلوه عباءة فضفاضة من الكتان الرفيع ذات أكمام محلاة بصفوف من التطريز الأزرق تتكون من رسوم اختص بها هؤلاء القوم . وقد ارتدى جميعهم هذا الزي . وفي منتصف الساعة الثالثة ، صعدنا الى القلعة بواسطة طريق صاعد يبلغ اتساعه ثمانين ياردة ولكنه شديد الانحدار وشاق لصعود الخيل ، حتى وصلنا الى باب دخلنا منه الى فناء كبير ، حيث جلسنا بين عدد كبير من الممالك وانتظرنا نصف ساعة . وبعد ذلك ، مررنا خلال باب آخر وسرنا في عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من الممالك يواجه كل منهما الآخر حاملين الرماح في أيديهم ، حتى وصلنا الى باب آخر تقوم عليه الحراسة بالطريقة ذاتها . وبعد أن واصلنا السير خلال ممرات ذات قباب ، خرجنا الى فناء حيث شاهدنا مرة ثانية رجالا مسلحين بالرماح ومصطفين بالطريقة ذاتها وهناك تم تفتيش ثيابنا بما فيها الملابس الداخلية للتأكد من عدم وجود أسلحة معنا . وأخيرا وصلنا الى حيث يقيم السلطان ، بعد أن صعدنا ثمانى مجموعات من الدرج وقف على طولها رجال مسلحون بالرماح ، ورماح هؤلاء تنتهى برأس من الحديد متعدد الأسنان وهى تشبه ما نطلق عليه عندنا اسم halker (وهو نوع من الفؤوس ذات الأسنان المدببة) وقد عقدوا رماحهم فوق رؤسنا أثناء مرورنا . وفي كل مكان من أماكن الحراسة ، وجد نحو من اثني عشر رجلا من حاملي الرماح ، والحجرة التى دخلناها ، حيث جلس الأمير ، تنقسم مثل الكنيسة الى ثلاثة أروقة يفصل بينهما أعمدة من الحجر . والرواق الأوسط أكبر من الرواقين الجانبين . وتنفذ هذه الأورقة من الجانب الذى دخلنا منه ، ويغطى الفتحات شبكة مسدلة من أعلى الى أسفل . ورصفت الأرض ببساط . وفي مواجهة المدخل ، ترتفع منصة تؤدى إليها درجات على الجانبين وقد جلس السلطان على أرض هذه المنصة . وليس لهذه المنصة حافة مرتفعة ، كما كان الدرج على الجانبين بغير سور ، وكان من السهل رؤية السلطان من كل مكان . وكان يرتدى ملابس من الكتان مثل الآخرين ، ويبلغ من العمر حوالى ثمان وثلاثين أو أربعين سنة ، وله لحية بنية اللون ، ويقف خلفه مباشرة عدد كبير من الممالك ، يحمل أحدهم سيفاً مشهوراً وجرابه في يده ، ويحمل آخر أبريتا ، ويرفع ثالثاً عالياً فوق كتفه الأيمن عصا من الذهب الخالص يبلغ طولها ياردة واحدة وسمكها بوصة . ويقف عدد كبير من الممالك بالقرب منهم وعلى الدرج الجانبى وعند أسفل

المنصة . وقد نظم هذا الجمع الكبير بطريقة تذكرنا بمناظر مواكب النصر التي ترى في الصور . وانتشر في كل مكان ، وخاصة على الدرجات أسفل العواميد ، موسيقيون يعزفون على الكمان والربابة والعود والآلات الخافتة الصوت والصاجات ، جميعا في وقت واحد بصحبة مغنين ، محدثين أصواتا عالية ، وقد يتفق النغم أحيانا . ولا يمكنني أن أقدم وصفا منظما ننظرا لأن عيني أعماههما البريق ، وأصمت أذني الأصوات ، وكنت ملزما فوق ذلك بتقبيل كل درجة . وبالإضافة الى ذلك ، يمسك رجلان بكتف كل واحد منا ويدفعاننا ونحن منحنيون كما لو كنا من دواب الحمل . وفي كل مرة أرادوا منا نقبل الأرض ، كانوا يصيحون صيحات عالية في لغتهم بشكل أصم أذننا . وعلى هذا النحو ، الزمونا بتقبيل الأرض سبع أو ثماني مرات ، حتى إذا أصبحنا على مسافة خمس وعشرين ياردة من السلطان ، توقفنا وسكتت الأصوات . وطلب منا ألا نطيل الحديث في هذه المقابلة الأولى التي ظلت أثناءها ثلاثة فؤوس لامعة مشهرة ويلوح بها فوق رؤوسنا ولم نكد نذكر لترجمنا بضع كلمات نقدم بها الموضوع حتى قوطعنا بكلمات « كفى .. كفى .. » ، وبعد أن الزمنا بتقبيل الأرض ، سحبنا الى الوراء نحو مدخل الغرفة ، وهناك ، بعد أن قبلنا الأرض ، سمح لنا أن ندير ظهورنا للسلطان وأن ننصرف . وهنا غادر السلطان الغرفة أيضا ..

وهذا وصف أخير للقلعة كتبه بيير بيلون يمكننا أن نذكره ، فهو لا يقتصر على ذكر تفاصيل مماثلة فحسب ولكنه يقدم تحية أخيرة لسلطين المماليك ..

ان مباني قلعة القاهرة ، وحجراتها ، وابهاءها الجميلة ، والرسوم الموجودة فيها ، لتقوم دليلا على عظمة الجراكسة الذين حكموا مصر مدة ليست بالطويلة . فالجدران مرخمة بقدر ارتفاع قامة رجل ، وحول الأبواب والنوافذ ، وهناك اطار يبلغ عرضه قدما مطعما على الطريقة الدمشقية بالصدف والأبنوس وأثنيور والرخام والمرجان والزجاج الملون . وتقع القلعة على صخرة صلبة قطعت فيها درجات لتيسر الصعود . وعلى هذا ، فان موقع القلعة يتكون من أرض مرتفعة تكاد تكون مستديرة ، وهناك عدد من الأبراج العالية المستديرة صنعت على الطريقة القديمة وليست من مواد بناء جيدة . وميدان القلعة كبير فسيح ، كما أن المباني جميلة مشرقة لأنه عند النظر من النوافذ هنا وهناك ، حيث المناظر الجميلة المكشوفة ، يمكن

رؤية مصر بأسرها تقريبا . ولكن لاتعتبر قلعة القاهرة منيعة جدا اذا ما قورنت بما عندنا من حصون ..

وقد أدركت الحكومة نفسها هذه الحقيقة ، فحين هددتها ثورة في سنة ١٥٠٠ ، قررت إعادة تنظيم الدفاع عن القلعة . فوضعت المدافع فوق الأسوار ، كما تم اصلاح الأسوار والقلع ، وأقيم باب على السلم المدرج الذى لايزال موجودا ، وأحيط باب السلسلة ببرج بنى من الحجر ، وفتحت فيه فتحات لرماة السهام وأبواب صغيرة . وسد السلطان الفتحات المؤدية الى الميدان وساحة العرب والحظائر بالقرب من منحدر المدخل . ثم أمر بهدم مدرسة السلطان حسن ، فبدىء العمل فى جزء من الواجهة ، وحين مضت ثلاثة أيام دون انجاز شىء يذكر ، عدل عن المشروع . وقد انزعج الناس بشأن الاقدام على هدم مثل ذلك البناء الرائع الذى لامثيل له فى سائر أنحاء العالم ، كما انه هدم فى غير طائل . وفضلا عن ذلك ، فقد ثبتت استحالة التنفيذ ، وكان العدول أكثر نبلا من الاعتراف بالاحفاق . وأمر السلطان بإحضار العلف والبطائر والجبن وغيرها من مواد الغذاء الأساسية الى القلعة . فامتألت المخازن والمطابخ بكل ما كان ضروريا لمواجهة حصار شهرين . ودمر سلم مدرسة السلطان حسن . واحضرت الى القلعة مواد حربية . وخاصة قطع من الخشب لبناء السيوف والزرديات والدروع بأنواعها والقسي والسهام ووزعت بين الجنود .

اما مشكلة الماء ، فقد أعيد التفكير فيها بعد ذلك بقليل . ففي حوالى شهر نيسان (أبريل) من سنة ١٥٠٧ ، أمر السلطان بتدمير خليج مصر القديمة وإعادة بنائه . فحفر بئر عند نقطة ابتدائية ووصل بينه وبين النيل بمجرى مائى ، ورفعت المياه الى المستوى المطلوب بواسطة مجموعة من السواقي .. ورفعت القناة التى كانت تصل الى القلعة على عقود تعتمد على أعمدة . وقد اعتبرها أهل العصر معجزة كبرى ، ولكنهم ضاقوا بالأموال الطائلة التى انفقت على بنائها ، خاصة وان هذه الأموال استخدمت فى جمعها اساليب العنف ومصادرة الأملاك . وتبدو هذه القناة عند النظر اليها من مكان مرتفع فى حالتها الهالكة الراهنة ، « بحكم موقعها فى سهل قاحل ، كهيكل عظمى لثعبان قد تفككت فقراته » ..

ويوجد فى القلعة عدد من السجون . فهناك الجب الذى بنى فى نهاية القرن الثالث عشر ، وكان يسجن فيه الأمراء . وبعد ان استمر استخدامه اربعين سنة ، نزل اليه مفتش المباني ليصلح عمارته ، فشاهد أمرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة التى شاعت فى هذا السجن

الأرضي . فأمر بردمه في الحال . ولكن يوجد سجن آخر لا يقل عنه سوءا كان يسمى « أرقوانة » (أى بركة الوحل) ، وكان يستخدم للمسجونين السياسيين أو للتجار الذين خالفوا القانون . بعض هؤلاء المسجونين وضعوا في الحديد وتركوا هناك سنين طويلة . وبطبيعة الحال كان الهروب ممكنا ، ولكن تحت خطر كبير . وليس لدينا سوى أوصاف متأخرة عن هذه السجون كتبها لنا الرحالة الأوروبيون .

يرى الإنسان أحياسا وسجوننا من بينها ذلك السجن الذى احتجز فيه يوسف النبى وحيث قام بتفسير أحلام زملائه الذين سجنوا معه ، وهو في الوقت الحاضر عفن نتن حيث تساء معاملة المسجونين المساكين المقيدون بالسلاسل والمشدودين بالحديد الى كتل من الخشب ، وإذا لم يمنحوا صدقات ، فسوف يكون مآلهم الموت جالسين على أرض رطبة وعلى القاذورات التى تتكوم في كل مكان ..

من بين المباني الخارجية في قصر السلطان بالقلعة التى زارها بعض الرحالة ، حظائر السلطان التى لم تضم الخيل الخاصة فحسب ولكن ضمت كذلك عددا من الحيوانات الغريبة الجميلة . فكان هناك ، أولا ، الفيلة . وفي ذلك يقول أحد الرحالة : « رأينا ثلاثة منها ، وكل واحد مقيد من رقبته وأقدامه الى عواميد وقوائم بواسطة سلاسل ضخمة من الحديد ، ورغم أنها من غير شك حيوانات فظيعة وليست جميلة المنظر ، إلا أنها ، بسبب ضخامة حجمها وعلوها ، تبدو متمتعة بتلك القوة العظيمة التى يتحدث عنها الكتاب المقدس » ..

ولكن لعل الزرافة كانت أكثر إثارة للعجب من غيرها من الحيوانات .. إنها عظيمة الارتفاع بحيث أن رجلا طويلا لا يكاد يبلغ بأطراف أصابعه أعلى فخذها ، وهى حيوان جميل جدا يتميز بالرقّة والوداعة ، لا يخلو شعره من التجاعيد ، وجلده شديد الشبه بجلد الغزال . وتغطى جسم الزرافة بطريقة أو أخرى بقع ملونة خفيفة ، ورقبتها ضعيفة طويلة وتحملها عاليا عند المشى . ويوجد فوق رأسها قرنان صغيران ، وجبهتها مدببة في شكل الماس ، وقائمتاها الأماميتان أكثر ارتفاعا من الخلفيتين ، وبسبب هذه الخاصة ، يحسبها الناس وكأنها مشوهة التركيب ، وذيلها الذى لا يكاد يتحرك رفيع ويغطيه شعر قليل جدا عند الطرف .. ويحتمل أن السلطان احتفظ أيضا بحيوانات مفترسة ، فقد قيل أنه في يوم ٣٠ نيسان (أبريل) سنة ١٥١٥ اضطرعت قبيلة كبيرة الحجم وأسود وحيوانات أخرى متوحشة في الميدان ..

* * *

لو أن العالم الإسلامي عرف فكرة الـ « commune » (والمقصود بها اغتصاب هيئة من الأفراد لسلطة الحكم الذاتي) لمثل بناء السلطان حسن المواجهة لمركز الحكم تحدى المدينة لسلطان الدولة . وعلى أى حال ، فإن وجود هذا البناء العتيق في هذا المكان شكل خطرا مستمرا فنحن نعرف أنه لم يكن دائما بقعة هادئة آمنة ، إذ كان مسرحا لاشد المغامرات السياسية دموية في تاريخ الممالك : ففيه ارتكبت أغرب الجرائم وأكثرها وحشية . ففي هذا العصر ، ساد من القلق والاضطراب ما يبعث على الأسى ، حين تلاطمت على بناء القلعة موجات من الغضب والسخط . فهذه الساحة للعرض العسكري تشبه ميدان السنيوريا في فلورنسة - إذا ما تفاضينا عن طبيعة اختلاف المكانين - من حيث أنها القلب النابض للحياة السياسية طيلة قرنين من حكم سلاطين الممالك ..

بين الحصنين ، الحصن الحقيقي ومسجد السلطان حسن ، أقيمت الحفلات والموائد للسفراء في وقت السلم . فالمكان فسيح حقا ، حيث يستطيع الناس أن يتمتعوا بالمشي . وكان هذا الميدان المسطح لا يخلو من أعداد لاتنتهي من الناس ، بين راجل وفارس ، ولامن الجنود وسائر موظفي السلطان . وفيه سوق لبيع الجمال والحمير والخيول .

والى الجنوب منه الميدان ، وهو مكان مباريات المبارزة ، حيث عرض المتبارزون أساليب مهارتهم في المراوغة . التي أعجب بها الممالك أيما أعجاب . كما عقدت مباريات البولز التي كانت تسمى لعبة الكرة ، في هذه الساحة الرملية . وقد كتب رحالة من ذلك العصر يقول :

أحيانا يجنح السلطان مع سائر ضباطه الى التسلية . والتسلية التي يمارسونها هي ذاتها التي يقوم بها الرعاة في البلاد المسيحية الذين يلعبون بكرة وعصا منحنية . وهناك فرق واحد ، وهو أن النبلاء وسلطانهم لا يضربون الكرة إلا من فوق ظهور الخيل ، وحولوها بأسلوبهم الخاص الى مباراة عسكرية ، لقياس قيمة الفرس وقوة راكبه وسرعة حركته وغيرها من الصفات العسكرية .

كانت الكرة توضع في وسط الملعب ، ويرسم خطان متوازيان : خط عند كل طرف . ويقسم الراكبون الى فريقين . ويحمل كل لاعب مضربا ذا يد طويلة ، ويحاول أن يضرب الكرة وراء الخط المواجه . وقيل أيضا أنه « وجد عند نهاية الملعب قصر فسيح مرتفع ، تستطيع منه نساء السلطان وسائر النبلاء مشاهدة اللاعبين ، وخاصة السلطان نفسه ، دون الاختلاط بالجمهور الكبير من النظارة . وكلما جاء دور السلطان ليضرب

الكرة . يصفق الجميع ويباركون ، وتصعد أصوات الأبواق مرات عديدة ، وتسمع دقات خافتة عميقة من الطبول بين الصباح والتهليل .
وفي هذا الميدان أيضا ، أظهر الممالك مهارتهم كرماة : فالرماية هي الرياضة الوطنية بين الممالك الأتراك . فكانت حمامة توضع داخل قفص من الذهب أو الفضة ، ويطلق المبارون سهامهم أثناء ركوبهم بأقصى سرعة ، محاولين إصابة الحمامة ..
شاهد جياكومينو الفيروني التدريبات العسكرية اليومية للممالك ، وقال :

يجتمع الجنود كل صباح أمام باب القلعة . وجميعهم مسلحون بالقسي ، ويركبون خيلا صغيرة ، ولم أر بينها أبدا فرسا حربيا . وأجسام الفرسان ضعيفة الحماية ، ولا يغطي رؤوسهم سوى خوذ صغيرة من الحديد . وقليلون منهم فقط يلبسون الدروع ، أما الآخرون ، فيلبسون وقاء من الجلد فقط . وليس لأحدهم أى وقاية للذراع الذى يحمل القوس ، ولا للأفخاذ والأرجل . وهم يستخدمون ركابا قصيرا ، وعندما يريدون الرمي بالقسي ، يقفون عاليا عليه . ومن هذا الوضع يرمون السهام . أما خيل السلطان ، فقد رأيتها جميعها تلبس أغطية مطرزة بخيوط الذهب والحرير . وحسب قوله رحالة آخر من القرن الرابع عشر ..

يركب جميع الفرسان على سروج منخفضة وركابات قصيرة ، كما تفعل النساء . وفي مؤخر كل سرج توجد حلقة يثبت فيها بطريقة عسكرية عصا أو هراوة لوقاية الفارس وحمايته . وجميع الفرسان بغير استثناء مسلحون بسيف مقوس ، كما أن أكثرهم رماة مهرة ، وخاصة الأتراك منهم الذين يستخدمون أقواسا مصنوعة من قرون محدبة ، وسهاما ذات رأس كراس الحربة ، ورأس السهم مثبت في جسم السهم كما يثبت السلاح في مقبض السكين ..

وقد وصلتنا معلومات مشابهة من نهاية القرن الخامس عشر تقول : « في كل يوم ، أو على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع ، يخرج مماليك القصر الى أسفل الجبل ، ليقوموا بتدريباتهم العسكرية . وتشتمل هذه التدريبات على تسلق المضائق والمنحدرات ، وبذلك يدربون خيولهم على الحركة في السهول والجبال » ..

وقد بلغت القلعة أوجها في عصر السلطان الغورى في بداية القرن السادس عشر ، إذ أمر هذا الحاكم بأن يرفع مستوى الأرض في الميدان بمقدار أربعة أقدام ، ثم سويت وغطيت بالحصى الصغيرة . وكذلك بنيت

مقصورة وغرفة لتستخدم كدار للمحكمة . وفي الطرف الغربى ، شيدت شرفة ذات مظلات جميلة صغيرة على الجانبين وبركة من الماء . كما زرعت اشجار الفواكه وأحواض الأزهار وشجيرات النباتات العطرية . فهذا السلطان الذى ألع بزراعة الأشجار كان يحب أيضا منظر أحواض الزهور . وكان يذهب الى ذلك المكان كل يوم ، ليس فقط لأنه مكان اجتماعاته الرسمية ولكن لأنه كان يحب المشى فيه ..

ولنقرأ الوصف الذى أورده تريفيزانو ، سفير دوقية مدينة البندقية : هو ميدان يمتد أسفل الأسوار وتتم فيه تمرينات الفروسية الماهرة . وهذا الميدان الكبير يبلغ ضعف حجم ساحة القديس مرقس ، وهو مستطيل الشكل . وحديقة السلطان أوسع من الميدان ، وفي وسطها تقوم على مستوى أعلى بدرجة واحدة من مستوى الأرض شرفة مشيدة على أعمدة ، تغطيها النباتات الخضراء ، معلق على جانبها وخلفها مظلات من القماش للحماية من حرارة الشمس ، وعلى كل عمود معلق قفص فيه طائر صغير يغرد . وتمتلئ الحديقة بأشجار الرمان والكمثرى والتين والعنب والآس وغيرها من الأشجار المختلفة ..

وفي شهر أيار (مايو) من سنة ١٥٠٩ (١) :

أقام السلطان احتفالا في الميدان ، ونصب به خيمة كبيرة مستديرة ، وملا البحرة التى أنشأها هناك من ماء النيل بواسطة المجراة التى أنشأها ، ثم رسم بجمع كل ورد في القاهرة ووضع في تلك البحرة ، وجمع قراء البلديات والوعاظ ، وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير وأرباب الوظائف من المباشرين وأعيان الناس قاطبة .. ومد (السلطان) تلك الليلة أسمطة حافلة ، فمد في السماط أربعمائة صحن صينى ، ورسم بأن تعمل المؤمنية الحموية (مايعرف بالمرازبان وهو من عجين اللوز) ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمائة زطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون ميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ..

وفي اليوم العاشر من نيسان (أبريل) سنة ١٥١٠ ، في عيد رأس السنة

الهجرية ، نزل السلطان الى الميدان لتقبل تهانى كبار ضباطه . وقدم لكل واحد منهم وردة . ويضيف المؤرخ الذى أورد لنا هذا الخبر قوله (١) : « فقبلوا له الأرض الأمراء المقدمون لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر .. »

فى سنة ١٥١١ ، أئبعت الشجيرات التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ما شتله به من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة . وفى ذلك يقول ابن أياسا (٢) : ولقد عاينت به (يعنى الميدان) وردا أبيض زكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى بمصر ، وقد نقل من الشام ، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان ، يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والابنوس ويفرش فوقها مقعدا مضملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين ، ويقف حوله المماليك الحسان بأيدهم المذبان ، ينشون عليه . ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة . وتارة يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجرة تجرى ليلا ونهارا . فيجلس على سرير هناك فى غالب ايام الجمعة ولايدخل عليه من الأمراء أحد إلا من يختاره ..

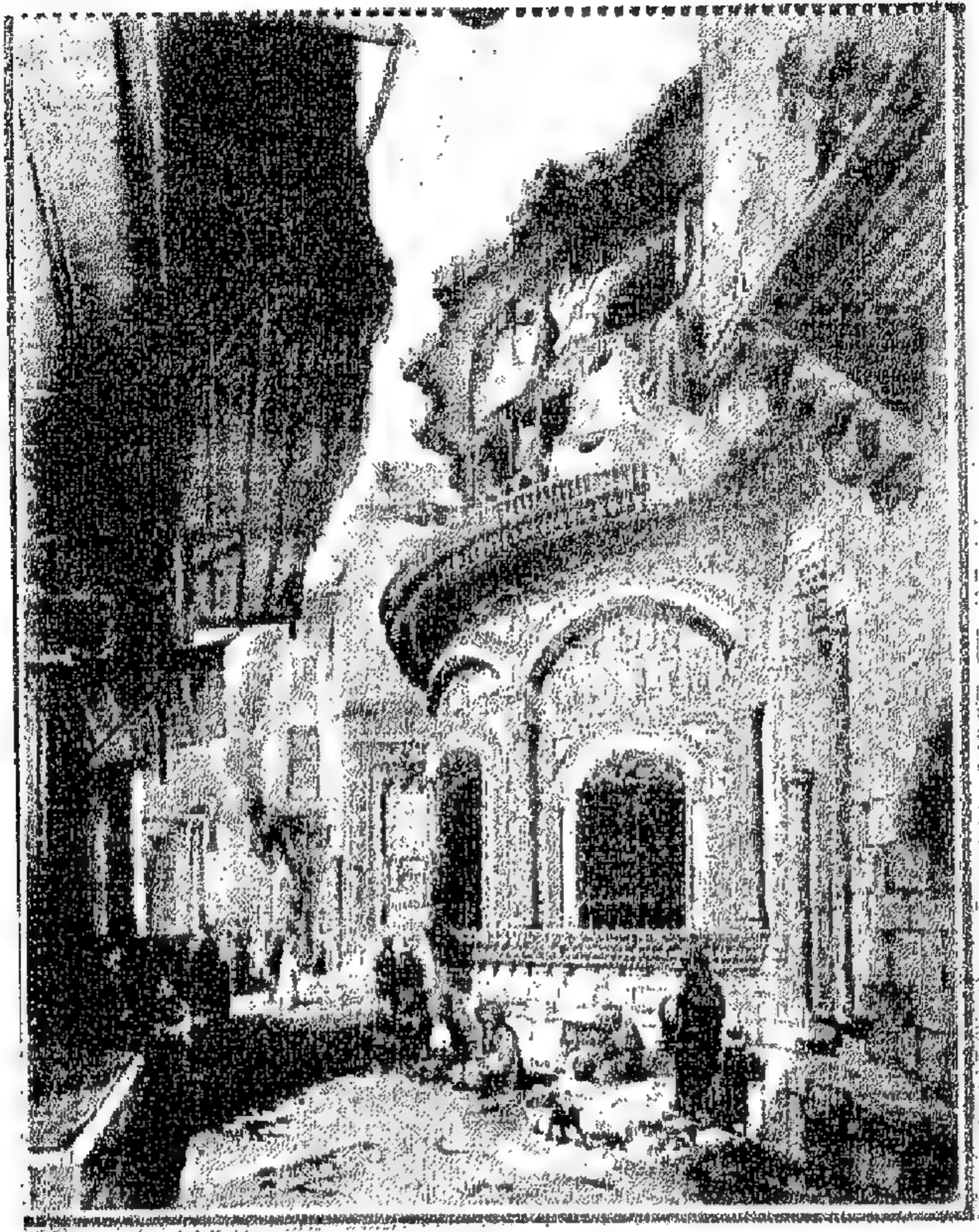
هذا هو المكان الذى أقام فيه السلطان حفلات رائعة للسفراء الذين كانوا يملرون بالبلاد . وفى بداية القرن السادس عشر ، ارسل عدد من الحكام سفارات الى سلطان مصر . ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ١٥١٢ ، وجد فى القاهرة نحو أربعة عشر قاصدا (سفيرا) فى وقت واحد . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى ، وقاصد ملك الكرج (جورجيا) ، وقاصد ابن رمضان أمير الترجمان (كيليكية) ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود (البنغال) ، وقاصد ابن درغفل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه (فى تجريدة) ، وقاصد البنادقة (البندقية)

(١) بدائع الزهور ٤ : ١٧٧

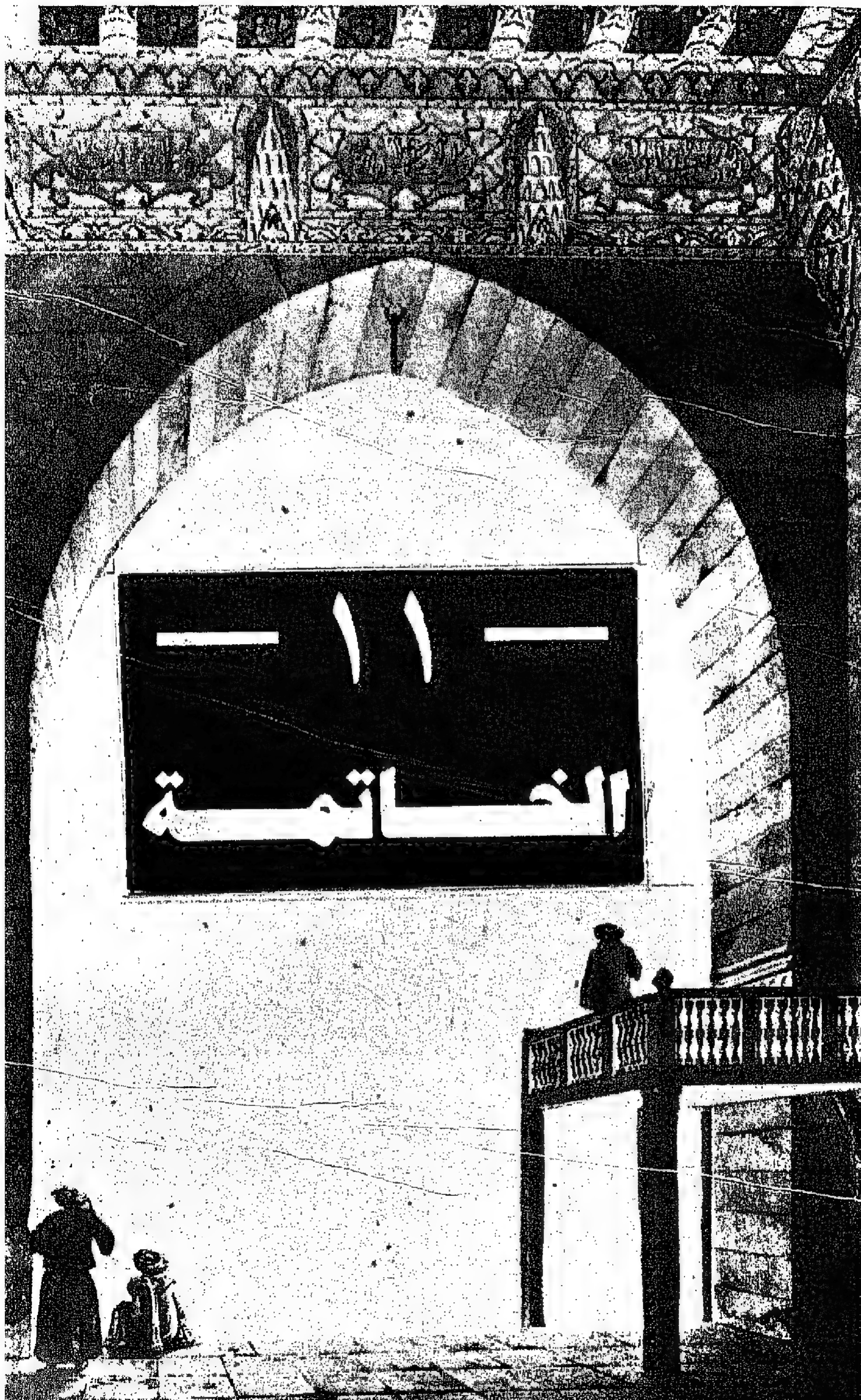
(٢) المصدر نفسه ٤ : ١٧٢

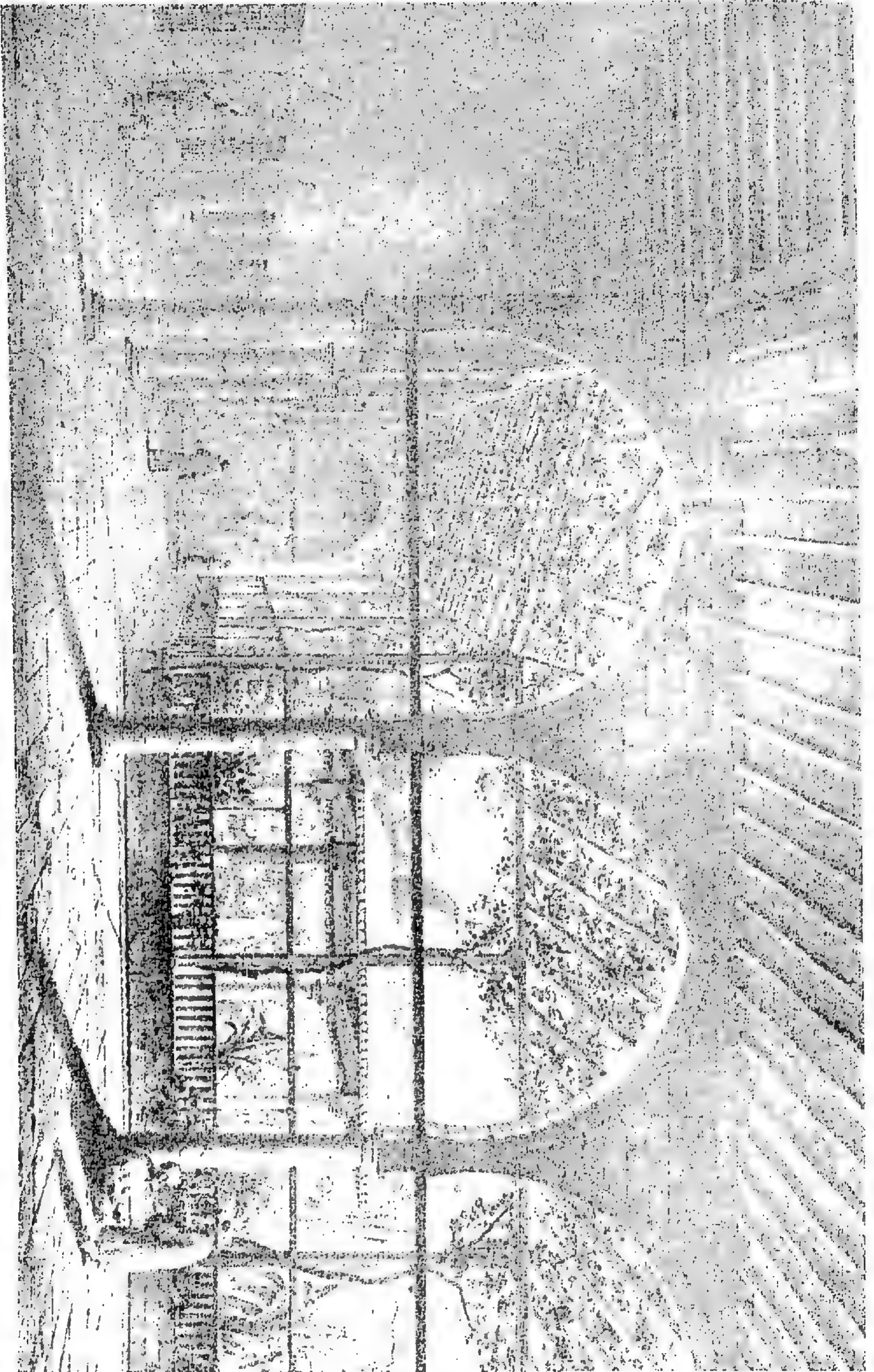
وقاصد على دولات (سليكية) ، وغير ذلك قاصد من عند جماعة من
النواب (١) .

□ □ □



(١) انظر بدائع الزهور ٤ : ٢٦٨ - ٢٦٩





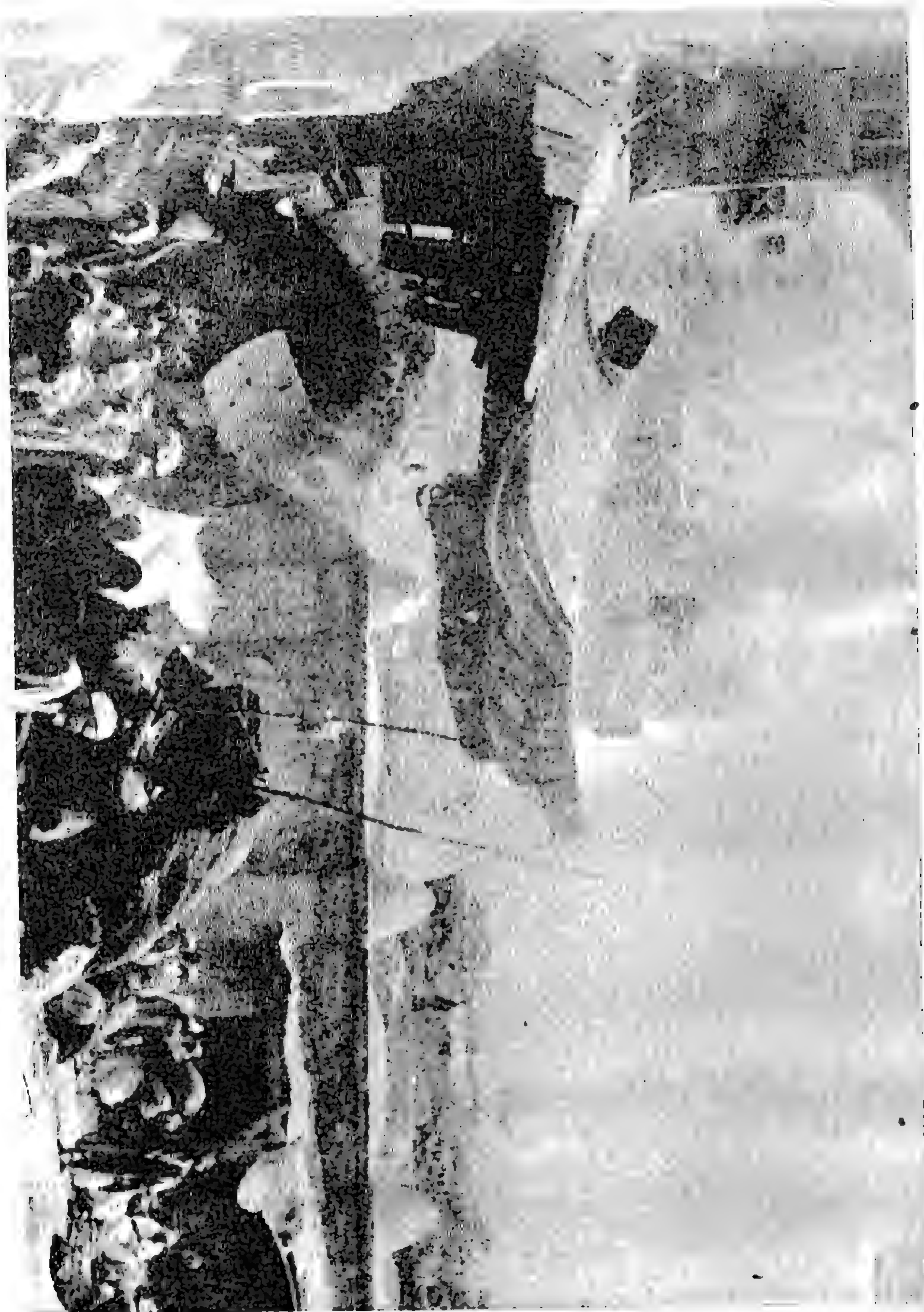
عرفت دولة سلاطين المماليك نهايتها في الواقع فيما يمكن
ان يسمى ساحة الاعدام ، وهو الباب الجنوبي للقاهرة
الفاطمية ، المسمى بباب زويلة .

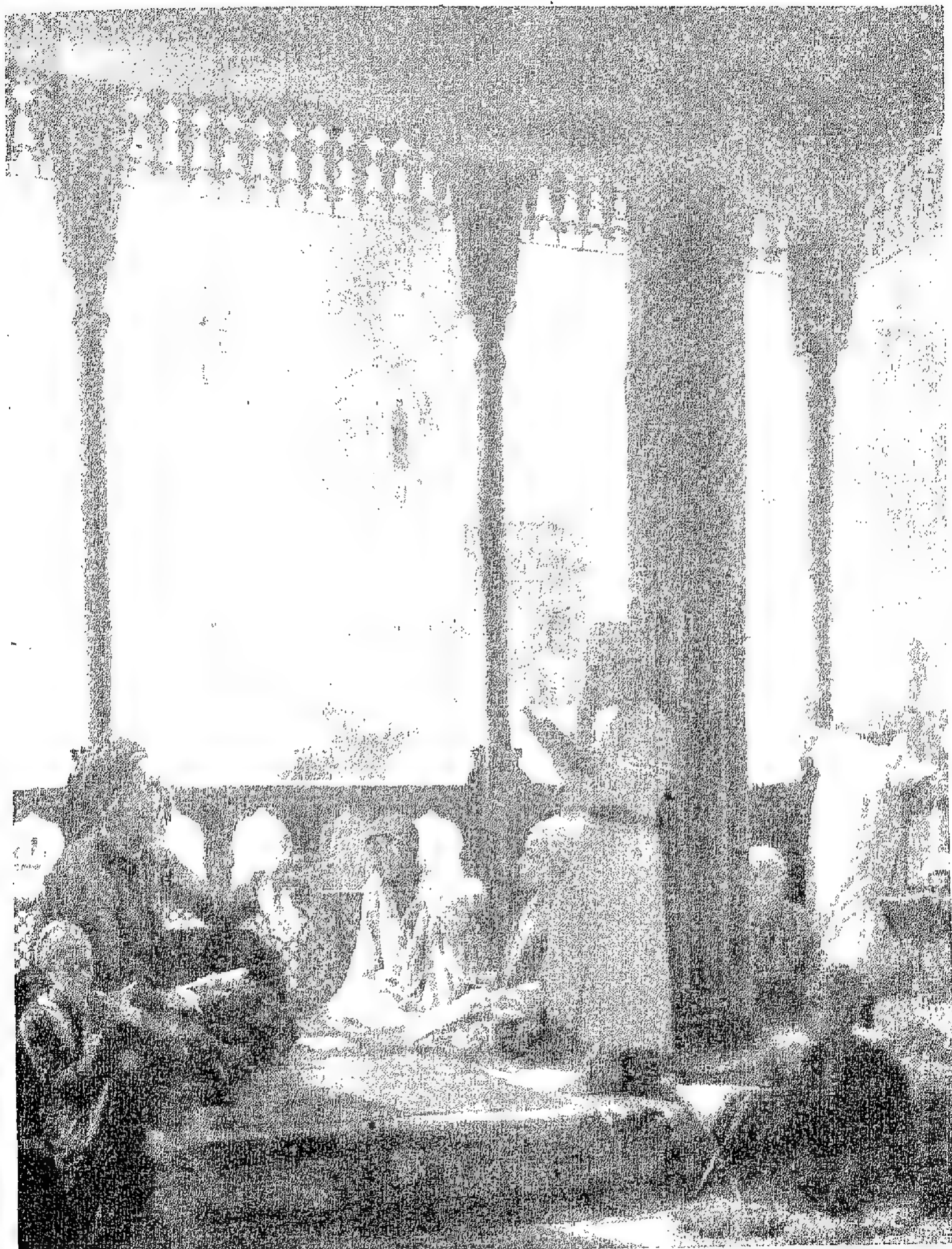
ففي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٥١٧ ، ألبس
السلطان السابق طومان باى رداء ذا أكمام طويلة وقلنسوة ، وكان مقيدا
بالسلاسل ومحمولا فوق جمل . ثم عبر المدينة من شمالها إلى جنوبها .
وعند باب زويلة ، انزل عن دابته وفك وثاقه واحاط به الجنود العثمانيون
الذين حملوا سيوفا مشهورة . وعندما أيقن أنه سوف يشنق ، وقف أمام
الباب وصاح : « اقرأوا الفاتحة لى ثلاث مرات ! » ثم مد يده وقرأ الفاتحة
ثلاث مرات . ثم استدار نحو الجلاد وقال : « قم بعملك ! » فوضع الحبل
حول عنقه وشد إلى أعلى فتمزق الحبل ووقع طومان باى أسفل الباب .
ويقال ان الحبل تمزق مرتين ووقع منه الرجل إلى الأرض . وفي آخر الأمر ،
شنق عارى الرأس وجسده مغطى بأسمال حمراء ، وقدماه مقيدتان
باشربة من قماش أزرق . وعند موته علت صيحة عظيمة من الجمهور
الحزين المنكسر .

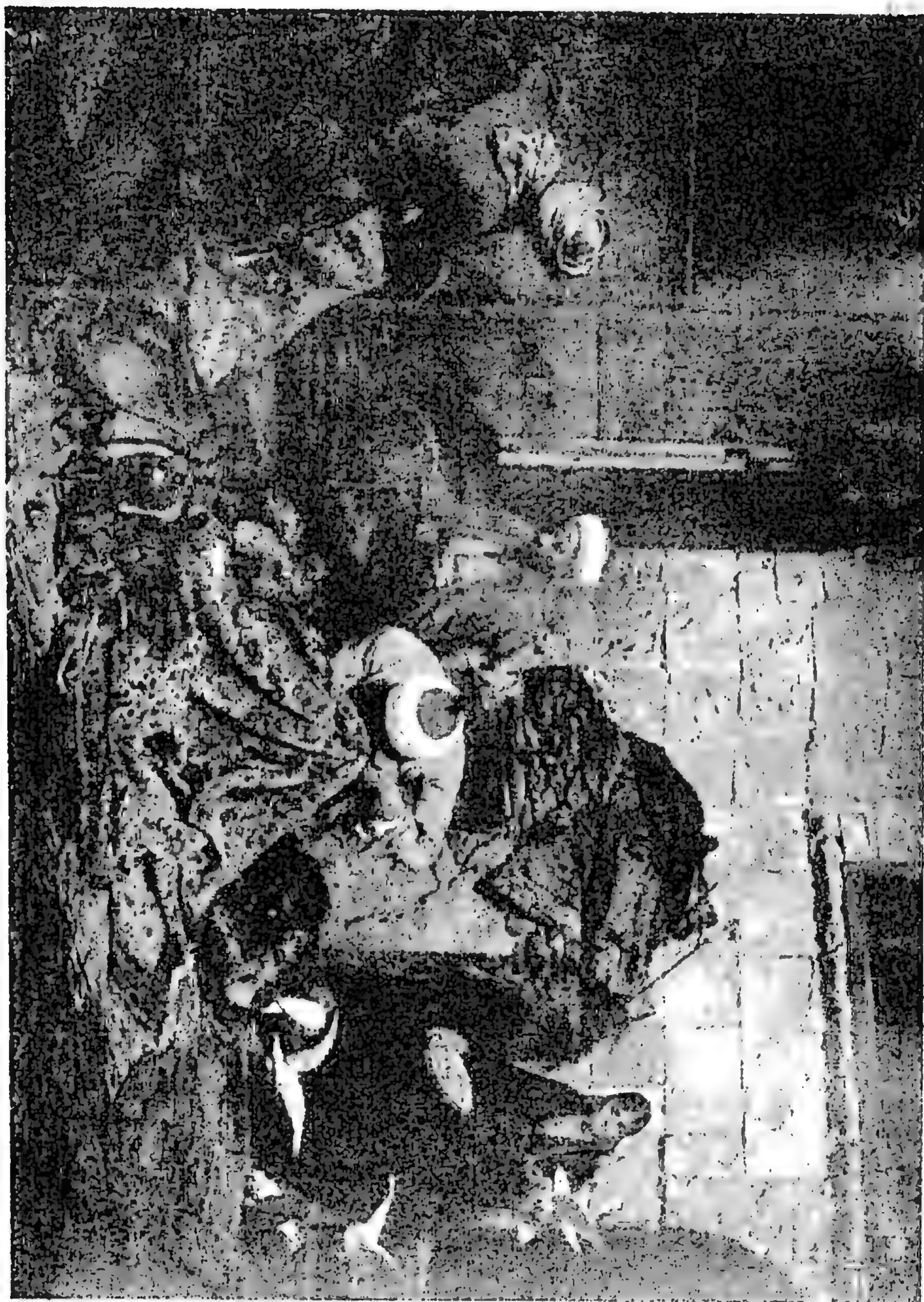
كان من المتوقع ان يقع هذا الاعدام . ولكن لسوء الحظ ، لم يتوقف
السلطان سليم عند هذا الحد ؛ فبعد ذلك بعدة أشهر ، شهد حفلة من
حفلات خيال الظل في جزيرة الروضة ، وفيها عرض الفنانون باب زويلة
وطومان باى ممثلا بدمية عند وقت شنقه . ووجد السلطان العثماني المنظر
مسليا عندما تمزق الحبل مرتين . واعطى الفنان مائتى دينار وقال له :
« عندما نذهب إلى استانبول ، أحضر معنا حتى يستطيع ابنى ان يرى هذه
التمثيلية ! » .





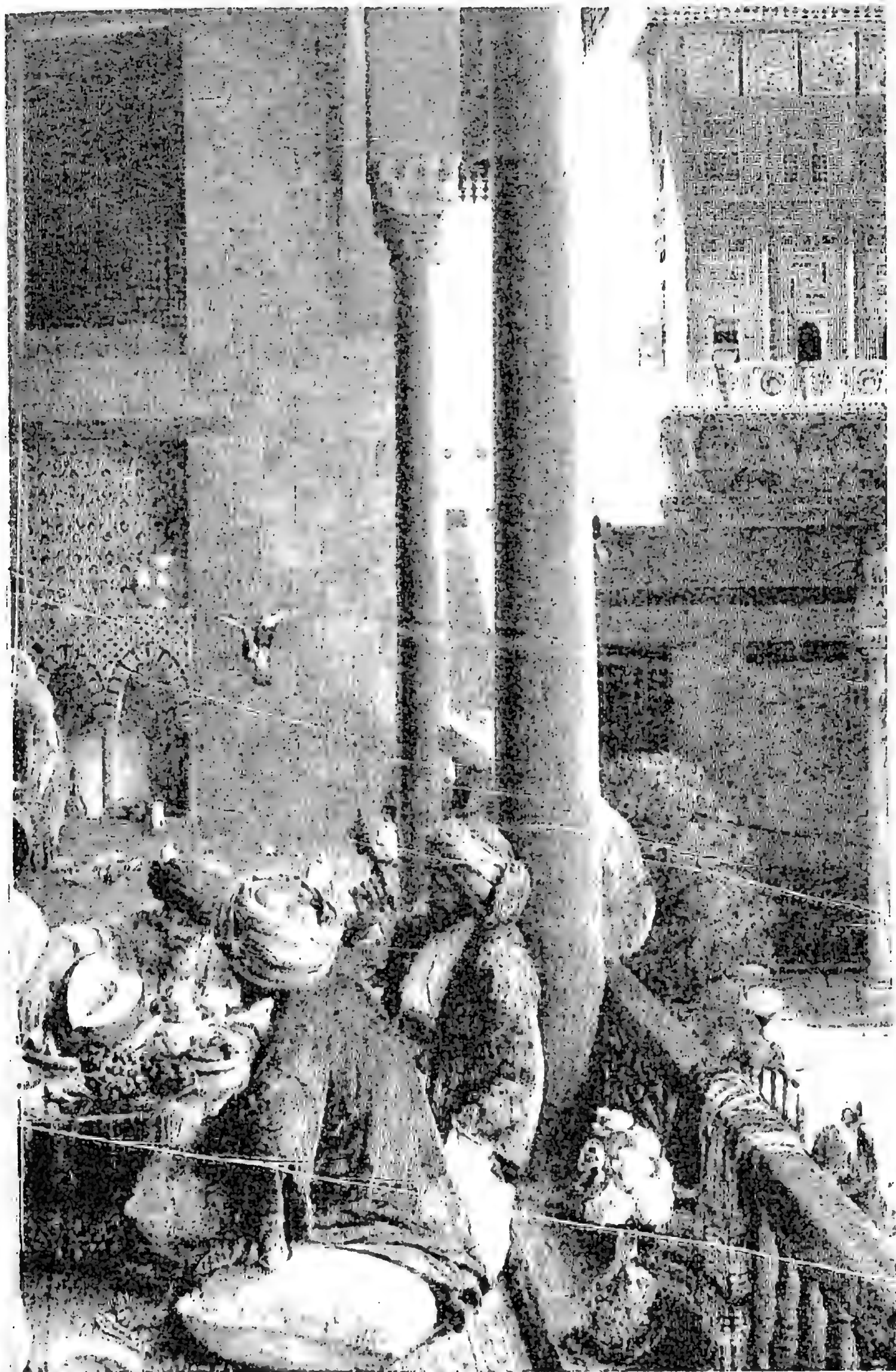


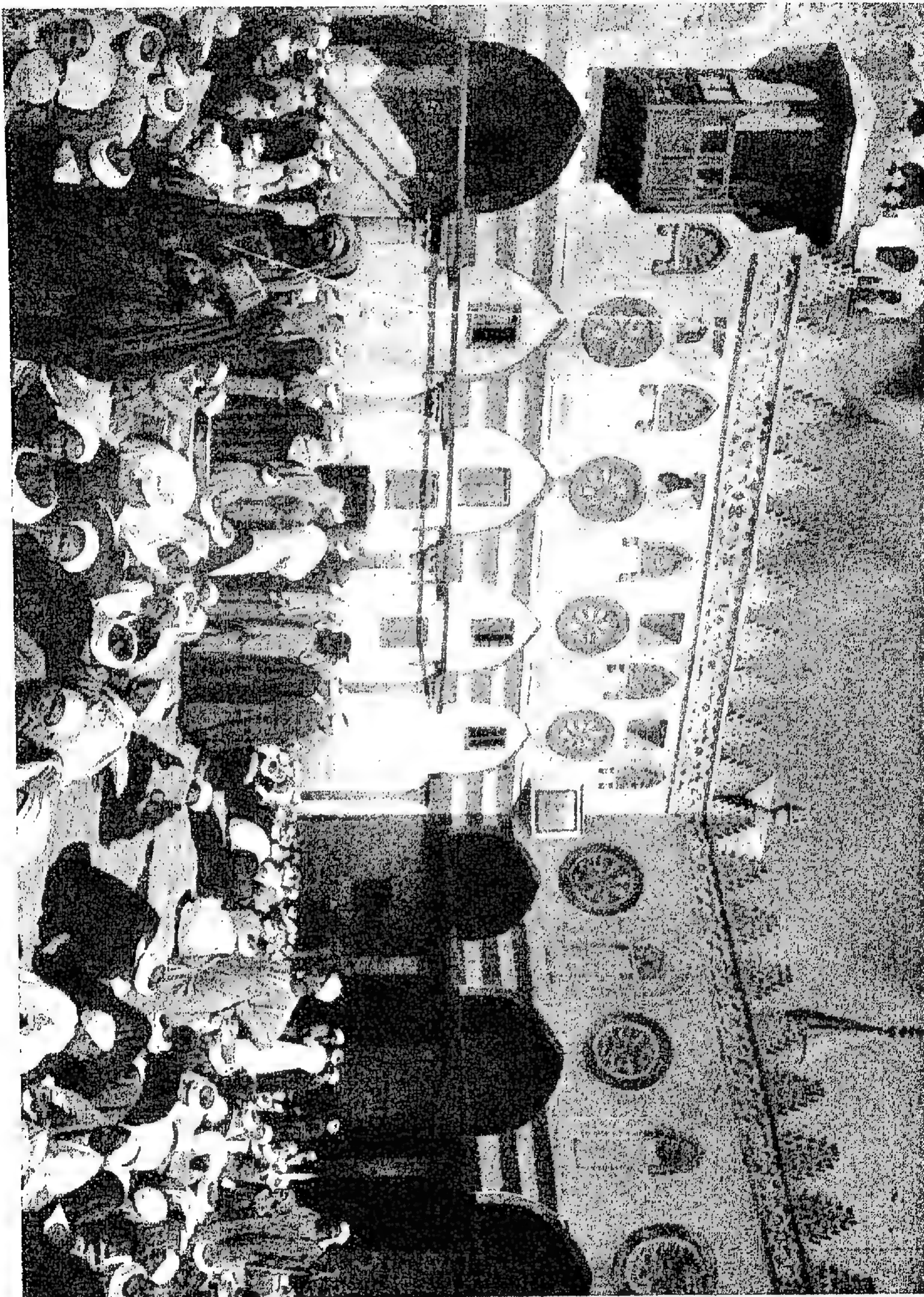












مجل بتوارينخ حكام مصر

٦٤٠ - ٨٦٨	الحكام من قبل الخلفاء
٨٦٨ - ٩٠٥	الدولة الطولونية
٩٠٥ - ٩٣٩	عودة الحكام من قبل الخلفاء
٩٣٩ - ٩٦٩	الدولة الاخشيدية
٩٦٩ - ١١٧٢	الدولة الفاطمية
١١٧٢ - ١٢٥٠	الدولة الأيوبية
١٢٥٠ - ١٥١٧	سلاطين المماليك
١٥١٧ -	الفتح العثماني لمصر

المستويات

ص	
٣	● مؤلف هذا الكتاب :
٥	● مترجم هذا الكتاب :
٦	● المقدمة :
٩	● ١ - العواصم الاسلامية الاولى :
٢٥	● ٢ - القاهرة الفاطمية :
٥١	● ٣ - صلاح الدين :
٦٧	● ٤ - سلاطين المماليك :
٨١	● ٥ - الشوارع والمنازل :
١٠٣	● ٦ - الأضرحة والأسواق :
١١٩	● ٧ - الأعياد والأفراح :
١٣٥	● ٨ - المنشآت المدنية :
١٤٩	● ٩ - الجبانة العظيمة :
	● ١٠ - قصر السلطان :
١٥٧	وساحة القلعة
١٧٥	● ١١ - الخاتمة :
١٨٠	● ● ● (ملحق بالصور)

● لضمان حصولك على كتاب اليوم شهريا ●

أخبار اليوم (إدارة الاشتراكات)

أرجو إرسال كتاب اليوم لمدة ١٢ شهرا على العنوان التالي :

..... : الاسم

..... : العنوان



● الاشتراك السنوي :

جمهورية مصر العربية ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوي :

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٥ دولار أمريكى

وباقى دول العالم أوروبا والأمريكيتين

وآسيا وكندا وأستراليا ٢٠ دولار أمريكى

.. يمكن قبول نصف القيمة عن ٦ شهور .

مرفق شيك مصرفى مستحوب على أحد البنوك

العالمية لأحد اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم .

AKHBAR EL-YOM SUBSC. DEPT.

أرسل هذا الكوبون على العنوان التالي :

مؤسسة أخبار اليوم (إدارة الاشتراكات)

١٣ (شارع الصحافة - القاهرة)

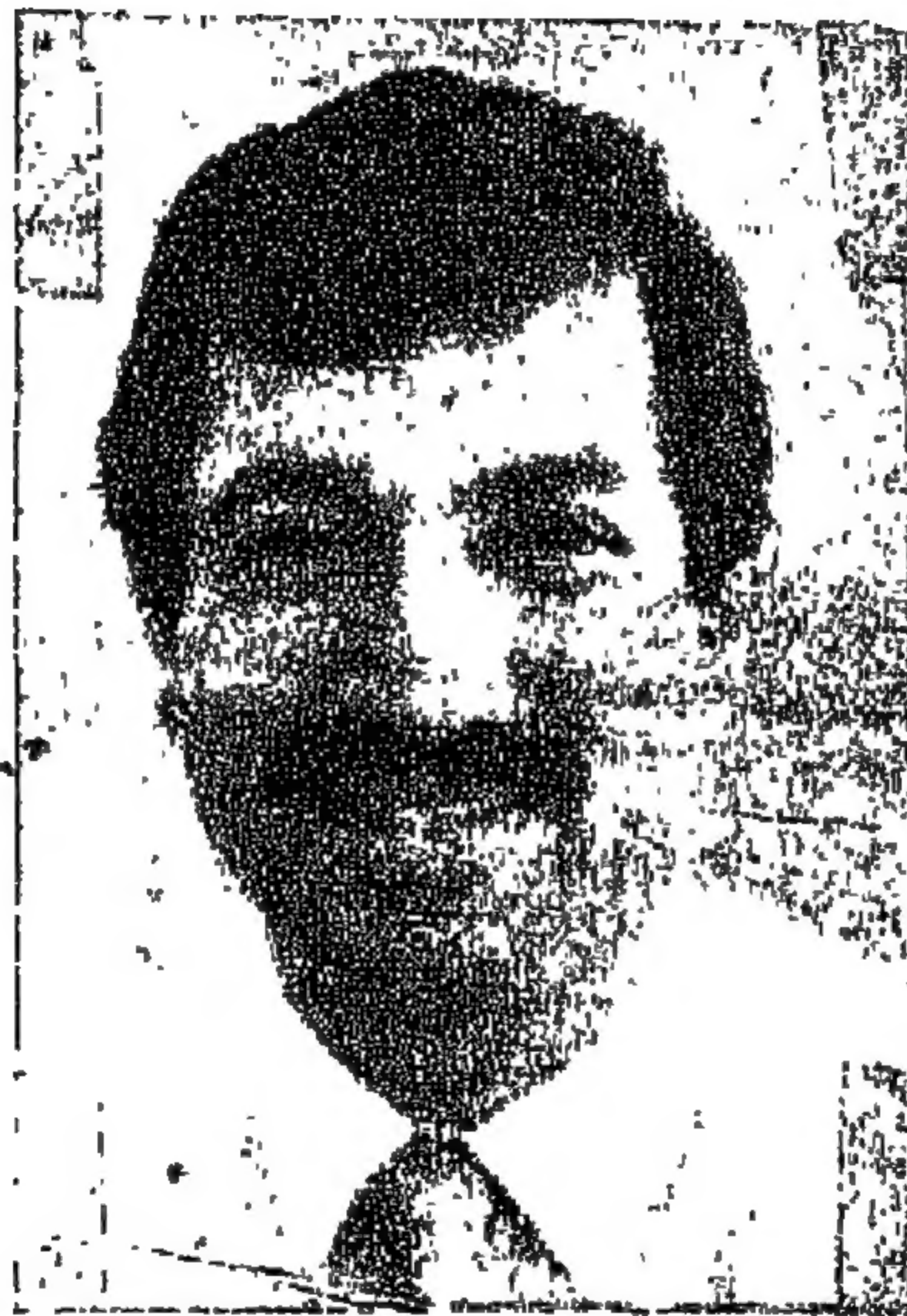
AKHBAR EL-YOM SUPSC. DEPT.

3A SAHAFA St., CAIRO

● كتاب اليوم ● عدد يونيو ١٩٩٠

كأس العالم

للدكتور علاء صادق



كل نتائج فرق كأس العالم | ٢٢ | مع مصر دوليا

● مرجع شامل ، تاريخ كأس العالم ، موقف الفرق المشاركة ، تحليل علمي دقيق ، أشهر اللاعبين ، الموقف بالنسبة للفريق القومى المصرى ..

● ترقب صدوره ●

MADE IN SYRIA

نيون

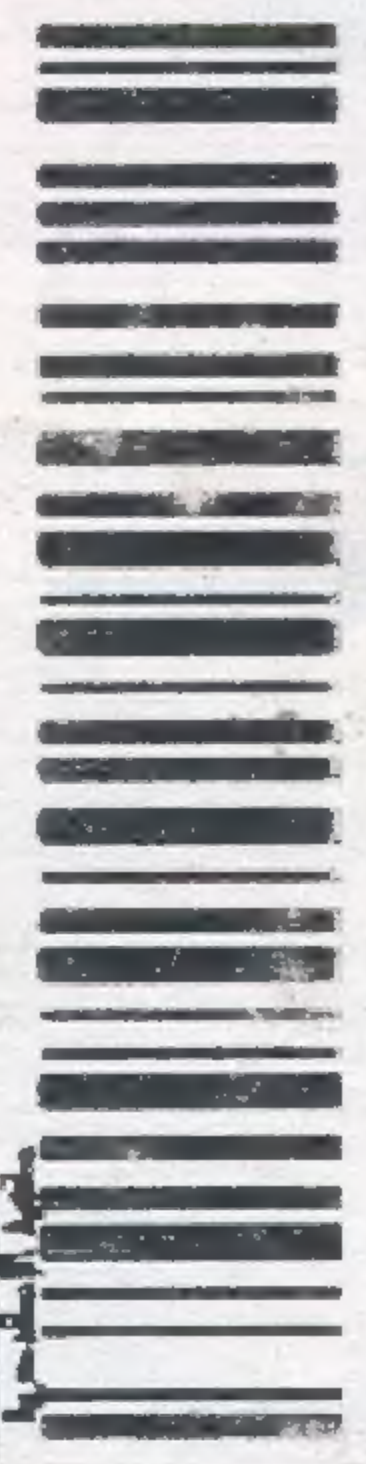
أحدث منظف صناعي



رغوة وفيرة
يزيل الدهون
والغرو
زواحة زكية
انتاج

شركة اسكندرية للتزيين وال...

Bibliotheca Alexandrina



0601409

